جَابِر بْن زَيـد

حياة من أجل العلم

تأليـــف

الدكتور أحمد درويش

" بسم اللّه الرحمن الرحيم "

"إنما يخشى اللَّهَ من عباده العلماء"

صدق الله العظيم

" محتويــات الكتـــــاب "

الفصل الثالث : جابر وأصول تلقي العلم :

البحث عن المنابع : ص ٤٩ إلى ص ٧١

علاقة مفهوم العلم بجوهر الإنسانية ، تفاوت العلماء في تحقيق ذلك المفهوم ، تشرب جابر لآداب الإسلام في العلم ؛ حرصه على التثبت والتحرز ، ولعه بالرحلة إلى الحجاز للحج والعلم ، حبه للناقة وسيلة الرحلة ، حاكم البصرة يحبسه عن الرحلة الحجازية ، جابر يتلقى العلم في رحلته ويفتي الحجيج ، رحلة الحج متعة لها آدابها ـ مناقشة مع زوجته ، نموذج لرحلة دنيوية قصيرة عند جابر ، مجالس العلم التى يرحل إليها جابر في الحجاز ، ابن عمر ، وابن عباس وعائشة ، شهادات كبار الصحابة لجابر ، جابر نموذج للعالم في صدر الإسلام ، وهو يرسى مبادىء التلقي والأداء .

الفصل الرابع : جابر وضوابط تقييد العلم :

التدوين ص ٧٣ إلى ص ٩٨

طرائق الاتصال البشرى في تاريخ الحضارات ، المشافهة وميل العرب إليها ، تأثر الكتابة العربية بطريقة المشافهة ، نماذج للبس الوارد في الكتابة ، علاقة الكتابة العربية باللغات السامية الأخرى ، سبق الكتابة العربية في مجال التجارة وتأخرها في مجال الثقافة ، ومناقشة رأى العقاد ، مجهودات علماء اللغة المعاصرين لجابر في إصلاح الكتابة العربية ، دوافع تردد المسلمين في اللجوء إلى التدوين رغم تشجيع الإسلام عليه ، البدء بمرحلة التقييد ، الدقة العلمية البالغة في تقييد القرآن ، التردد أمام تقييد الحديث ، الخوف على الذاكرة من الضعف ، اللجوء إلى حل وسط ، زوال مخاوف اللبس بعد جمع المصحف.الخوف من أن يصير العلم إلى غير أهله ، مواقف العلماء في هذا الصدد ، جابر أول " المدونين ." أهمية الخطوة التى لجأ إليها ، مناقشة الروايات التى صورت موقفه في هذا الصدد ، " ديوان جابر " وجوده في المكتبات

القديمة ، مناقشة احتمالات وجوده ، مكانته في تاريخ التدوين في التفسير والحديث والفقه .

الفصل الخامس : العلم وطغيان العصر :
عالم الفقراء والضعفاء : ص ٩٩ إلى ص ١١١

نموذج الحياة في البصرة في عهد جابر ، ازدياد الثراء ، أموال الموالي والفرس ، موائد الحجاج ، تزييف الدراهم وسلوك جابر إزاءها ، جابر وموقفه من هدايا الأغنياء ، جابر واحد من الفقراء البسطاء ، لجوء الضعفاء إليه وحمايته لهم ، المتعفف الزاهد ، البصرة منكوبة بالأمراض والطاعون ، تتبع للحالة الصحية للمدينة في ذلك العصر ، جابر عالم المنكوبين ، الناس يبحثون عن المعرفة ، وجابر يساعد على انتشارها ، التلاميذ وحملة العلم رسائل جابر إلى الآفاق البعيدة ، واعظ البسطاء في الطريق .

الفصل السادس : العلم وطغيان العصر :
الحكمة في مواجهة العنف : ص ١١٣ إلى ص ١٢٧

البصرة والحكام الظلمة في عصر جابر ، زياد بن أبيه ، وعبدالله بن زياد ، والحجاج ، أساليب العنف والقمع ، اضطهاد العلماء ، جابر يلجأ إلى الحكمة ، تحليل لقاء جابر بالحجاج ، التحوط أمام بطش الحجاج ووسائله المختلفة: التجسس ، السجن ونصيب جابر منه ، هدوء جابر وتسامحه في النقاش ، تشدده لحماية دماء المسلمين ومناقشته العلنية لمن يستحل أموالهم ودماءهم ، تحريضه على قتل خائن ، نفيه إلى عُمان ، وعودته إلى البصرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

هذا كتاب لا يندرج في كتب الفقه وأصوله ، أو الحديث الشريف وعلومه أو التفسير وقضاياه ، مع خطر هذه العلوم وجلالها ، ومع أن جابر بن زيد كان عالماً بارزاً فيها .

وهو لا يندرج أيضاً في كتب التاريخ بمعناه العام ، مع أنه يحاول أن يستفيد ما وسعه ذلك من حقائقه ومن هدى حقائق فروع المعرفة الأخرى التى أشرنا إليها .

وإنما هو كتاب يطمح أن يصنف في فن " التراجم والسير " وهو فن عرفة تراثنا القديم مقترباً به من فن كتابة " التاريخ " ، وتوسعت فيه الدراسات الحديثة فاقتربت به من فنون الأدب ، وحاولت أن تستفيد من وسائله في إعادة صياغة " تاريخ الرجال " على نحو يجعل الحدث معاشاً لا مروياً فحسب ، ويحاول أن يسد الفجوات أن وجدت بخيال يطير بجناحين من الحقيقة ولا يتعارض مع أصولها ومسلماتها ولكنه يحاول أن يوسع من آفاقها .

وإلى جانب استفادة فن " التراجم والسير " من فنون الأدب والفن القصصي منها على نحو خاص ، فإنه يحاول أن يستفيد من موضوعية " العلم " في فروعه المختلفة ، وما تمليه مناهج البحث فيـــه من أعراف مرسومة لطرح القضايا ، ومناقشة الفروض ، والتوصل إلى النتائج ، وإثارة القضايا العلمية التى تنير المسار الرئيس للشخصية التى يدور الحديث حولها وتساعد على فهم دورها وتمثله وتعمقه ومحاولة الإفادة منه امتداداً لما يصنعه فن " التاريخ " في إثبات هذا الدور أو نفيه .

ولقد كانت الكتابة عن سيرة الإمام جابر بن زيد (١٨ ـ ٩٣ هـ) تتطلب اللجوء إلى منهج كهذا يحاول أن يستفيد من معطيات فروع المعرفة الأخرى دون أن يضل في تفاصيلها ويحاول أن يتوصل إلى ملامح " الصـورة " في غياب كثير من تفاصيل " السيرة " .

ولقد اهتم القدماء وبعض المحدثين بالكتابة عن الإمام جابر بن زيد ، ولكن تعدد الزوايا التى تثيرها حياته ، جعل التركيز في كثير من الأحيان يتوجه إلى إنتاجه العلمي وتلاميذه الذين رووا عنه وأتباعه الذين ساروا على خطاه ، أكثر من توجهه إلى منابع هذا كله في شخصية " الرجل العالم " وكان من نتاج ذلك أن قلت المادة التاريخية المروية حول سيرته ، وفى الوقت الذى خلف فيه جابر أول ديوان " مكتوب في تاريخ العلم فى الإسلام " قالوا إنه كان ينوء به البعير حملاً ، وتصل مجلداته إلى عشرة ، فإن ما كتبته معظم الكتب القديمة عن سيرته لم يزد في مجمله عن عشر صفحات وأقول في مجمله لأنه في معظمها لم يكن يتجاوز الصفحة أو الصفحتين ، وتتشابه الأخبار الواردة هنا وهناك تشابهاً يؤكدها ، لكنه لا ينميها ولا يعللها .

ولقد بدأت الكتب الحديثة تهتم بالدراسة الموضوعية لبعض جوانب حياته وعلمه فكان التركيز على فقهه في كتاب الأستاذ / يحيى البكوش ، أو على أثره في الدعوة في كتاب الشيخ صالح الصوافي ، أو على جوانب من تأثيره التاريخي في الحركة الإباضية للدكتور / عوض خليفات إلى جانب بعض الجهود التى تمت في تحقيق بعض آثاره كجهود الشيخ سعيد بن خلف الخروصي في تحقيق جواباته وطبعها .

ولقد أسهمت هذه الجهود بالإضافة إلى جهود أبحاث أخرى متفرقة أشرنا إليها في ثنايا الكتاب ـ في إضاءة كثير من جوانب شخصية الإمام جابر بن زيد وتمهيد الطريق لفهم أعمق لدورها في تاريخ " العلم " عند المسلمين .

ولقد اختار هذا الكتاب ـ أن ينمي هذه النقطة الأخيرة وحدها التى يحسبها مفتاح الشخصية عند جابر بن زيد والتى تلخص حياته في أنها " حياة من أجل العلم " وهذا المحور يستطيع أن يفسر لنا كثيراً من جوانب الحركة في حياته ، شوقاً إلى العلم وهو في عُمان حيث ولد ، وانتقاء البصرة مهجراً ومقاماً حيث يلتقي نحو خمسمائة من صحابة رسول الله وتابعيهم فيشكلون أكبر مصدر حي " للعلم " خارج الأراضي الحجازية ، وهو محور يفسر كذلك حرصه طوال حياته على الحركة المستمرة بين البصرة ومكة والمدينة تثبتاً وتوثيقاً وجمعاً للعلم من نبعه

الحقيقي ، ثم يفسر لنا قلقه الدائم وخوفه على العلم من أن يدخل فيه ما ليس منه أو يضيع منه شيء من أصوله واهتداؤه من خلال ذلك كله إلى فكرة " التدوين " وريادته لها في تاريخ المسلمين بعد أن كانت قد مرت بجوانب كثيرة من النقاش سوف يلقي الكتاب الضوء على جذورها وبواعثها ، ثم هو محور كذلك يساعدنا على فهم موقف جابر العالم من " طغيان العصر " الذى عاش فيه سواء تمثل هذا الطغيان في الفقر أو الغنى وفي ضعف النفوس أو الأبدان ، أو في سطوة الولاة الظلمة ، وكيف واجه كل صروف الطغيان على ضوء من " العلم " الذى أخلص له حياته ووقفها عليه .

لكن ترجمة هذا المحور في حياة جابر إلى أحداث متصلة كان يتطلب الاستعانة بكثير من فروع المعرفة الإنسانية .

كان تصوير فترة النشأة والطفولة عنده ، وهي التى لم يكتب عنها شيء ، يتطلب اللجوء إلى أصول " فن التراجم " والاستعانة بقليل من العنصر الروائي المعتمد على حقائق العصر ، وتصور مدى انعكاسها على قرية عُمانية في صدر الإسلام ، يوجد فيها ذلك الصبي المتشوّق إلى المعرفة .

وكان تصوير جانب الأسفار والحركة عنده من جنوب الجزيرة إلى شمالها ومن شرقها إلى غربها يقتضي الاستعانة بدراسات الجغرافيين قديماً وحديثاً والاستعانة بخرائطهم لتصور مسرح الأحداث الرئيسية في حياة جابر بن زيد ، كما كان تصور مدينة البصرة خاصة محتاجاً إلى العودة إلى دراسات " العمران " وتخطيط المدن الإسلامية .

وكان " طلب العلم " محتاجاً إلى الإلمام بالاتجاهات الكبرى التى سادت بين الرواية والدراية ، والطرائق الرئيسية التى سار عليها أعلام الصحابة ممن لقيهم جابر ، ثم طرائق التثبت والاحتراز في الفتوى التى تلقاها جابر وساهم في إرساء أسـسـها .

أما قضية " التدوين " وهي زبدة ما أهداه جابر إلى تقاليد العلم ف الإسلام ، فقد اقتضى تصور دوره فيها إلى الامتداد إلى جذور الكتابة والاستعانة

بخلاصة دراسات فقه اللغة واللغات السامية ومقارنة الحضارات ، إلى جانب دراسات الأدب العربي ، وتطور الكتابة في علم اللغة مما واجه الحروف العربية في عصر جابر وما بعده ، ثم كان لابد من الاستعانة بخلاصة تاريخ الكتابة في فروع العلوم المختلفة في الدين واللغة لتصور مكان جابر ومكانته في هذه القضية .

أما " التاريخ " فكان لحمة الدراسة وسداها ، ولقد أفادت الدراسة مما كتبه المؤرخون من كل المذاهب والاتجاهات ، والشيء الذى لا خلاف عليه بينها جميعاً ، أن جابراً كان من أكبر علماء التابعين ، وكان شيخ المدونين ، وكان موضع إجلال كل المسلمين .

× × × × ×

لقد حاول الكتاب أن يستفيد من هذه الفروع كلها ـ دون أن يطويه واحد منها ـ وأن يظل انتماؤه إلى " فن التراجم والسير " قائماً ، وأن يظل الملمح الرئيسي الذى أختاره لشخصية جابر وهو " حياة جابر من أجل العلم " واضحاً لأنه في الواقع أبرز الملامح الذى يفسر ما عداه ، ولا يتعارض مع ما سواه .

وإننا لنأمل أن يكون هذا الكتاب قد وفق في أن يقدم صورة لعالم جليل من أبرز علماء الصدر الأول للإسلام وأن يقف بذلك قريباً من منابع تقاليد العلم في الإسلام الذى ما تزال الثقافة العربية الإسلامية تسير فى ضوئها إلى اليوم ، **ربنا عليك توكلنا و إليك أنبنا و إليك المصير** .

مسقط في ٢١ ربيع الأول ١٤٠٩

أحمد درويـــش

الموافق أول نوفمبر ١٩٨٨م

عمان

والشوق

إلى

العلم

لم يكن أصيل هذا اليوم من أيام الخريف الممتعة بمختلف عن كثير من الأيام الهادئة التى تشهدها هذه القرية النائمة بالقرب من أحضان الجبل الأخضر ، كانت حدة الحرارة قد ولت مع انكسار الصيف ، وكان ذلك الثقل الذى يمتلىء به الهواء حيناً فيشيع في الصدر ضيقاً وفي الجسد فتوراً قد تولى ، وحلت محله نسائم رقيقة مشبعة بخضرة الجبل القريب ، وباعثة على مزيد من الصفاء والحركة ، وكان الصيف قد خلف رغم حره كثيراً من الخيرات ، نضج التمر وثقلت العراجين وكثر الحصاد وامتلأت البيوت بالثمار وأحس الناس أن هذه الأعوام المباركة من أواخر العقد الثالث للقرن الأول الهجرى تزداد فيها البركة والخيرات عن ذى قبل ، وقال شيخ مجرب كبير لفتية متوقدين يتبعونه إلى مسجد القرية لأداء صلاة العصر عندما سألوه عن سر الخير الوفير ، لقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعوة رسوله ﷺ لأهل عُمان ، وقال الشباب في لهفة ، زدنا تفصيلاً أيها الشيخ الجليل ، وقال الشيخ : أوسعوا الخطو أولاً حتى نؤدى الصلاة مع إخواننا في المسجد ثم يكون لنا إن شاءالله مجلس موسع فيه بعد الصلاة .

امتلأ مسجد بلدة " فرق "[1] بجموع المصلين من أبناء القرية وأمهم الشيخ الجليل وأديت الصلاة في خشوع ، ولم يكن قد مرّ بعد على دخول الإسلام أرض عُمان أكثر من عقدين من السنين ، وكانت النفوس ظمأى إلى كثير من ألوان المعرفة حول الدين الجديد وسيرة أعلامه وهدى مبادئه وكانت القلوب متفتحة ، والآذان صاغية حين خيم صوت مهيب على الحلقة التى عقدت في أعقاب صلاة العصر تصغي إلى الشيخ الذى يحمل كثيراً من المعرفة من خلال السماع والرحلة والحفظ وبدأ الشيخ حديثه قائلاً بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم :

---

(١) تجمع الغالبية العظمى من الروايات على أن جابر بن زيد ولد بقرية فرق من أعمال نزوى ولا يكاد يخرج عن ذلك إلا بعض الروايات النادرة كتلك التى ذكرها ابن مراد من أنه كان من " تمور عين " (سيرة ابن مداد) كذلك تعد مصادر أخرى أنه ولد في مكان يسمى " الحرقة " ولعل ذلك تحريف لكلمة فرق.أنظر ابن جنى : مشاهير علماء الأمصار ص ٨٩ نقلاً عن الدكتور عوض خليفات نشأة الحركة الإباضية ص ٨٦ .

لقد حق لنا أن نحسد أهل " سمائل " على ما سبقونا إليه ، وحق لهم أن يعتزوا بالمزية التى هداهم الله إليها .

وقال أحد الجلوس : ألم تحدثنا من قبل أن الإسلام ينهي عن الحسد .
واستدرك الشيخ قائلاً : إنما نحسدهم يا بني في إحدى اثنتين أباح الإسلام لوناً طيباً من الحسد فيهما وهما العلم الذى يفيد الناس والمال الذى ينفق منه على الخير .

وقال أحد السامعين : وفي أيهما نحسد أهل " سمائل " في حديثنا اليوم ؟
قال الشيخ : في العلم ، فلقد هدى الله رجلاً منهم ، فكان أول من آمن من أهل عُمان ، وهو مازن بن غضوبة رضي الله عنه عندما سمع عن دعوة الرسول ﷺ ، وكانت نفسه تحدثه بأن نوراً أضاء في شمال الجزيرة وأن أشعته قد بدأت تلامس جنوبها فأخذ يلتقط أخبار الركب القادمين ويسعى إليهم حتى وجد رجلاً من أهل الحجاز فأخبره أن رجلاً ظهر يقول لمن أتاه " **أجيبوا داعي الله** " فأيقن أنه النور الذى يترقبه ولم يتمهل فركب راحلته على عظم المشقة وبعد المزار حتى أتى رسول الله ﷺ فشرح له الإسلام ونور الله قلبه للهدى فكان أول من أسلم من أهل عُمان .

قال الجلوس : صدقت وإنه لشرف يحسد عليه مازن بن غضوبة ويحسد عليه أهل سمائل وقال أحدهم : هلاّ دعونا الله لأهل عُمان أن يكثر من بينهم من أحبوا الهدى وسعوا إليه وحافظوا عليه ونقلوه للناس كما فعل مازن ، وارتفعت الأكف ضارعة أن يستجيب الله للدعاء ، وأضاف آخر ادعوا لقريتنا الصغيرة " فرق " أن يخرج من بينها من يشارك فى الحفاظ على هذا الدين ورفع رايته والتدبر فى أحكامه وأجابته الأصوات المبتهلة بالقبول والإكثار والضارعة بالاستجابة .

وقال الشيخ : ذكرتموني بالدعاء المستجاب وكنت قد وعدت الفتيان قبل صلاة العصر بالحديث عنه عندما سـألوا عن سر الخير الوفير في هذه الأعوام ، ذلك أن مازناً عندما التقى بالرسول ﷺ قال له يا رسول الله صلى الله عليك وسلم : ادع الله تعالى لأهل عُمان : فقال : اللهم اهدهم وأثبهم فقال مازن زدنى

يارسول الله ، قال : اللهم ارزقهم العفاف والرضا بما قدرت لهم ، قال : مازن : يارسول الله البحر ينضح بجانبنا ، فادع الله في ميرتنا وخفنا وظلفنا ، قال الرسول الكريم اللهم وسع عليهم في ميرتهم وأكثر خيرهم من بحرهم ، قال مازن : زدني ، قال الرسول داعياً لأهل عُمان : اللهم لا تسلط عليهم عدواً من غيرهم ، ثم قال : قل يا مازن آمين ، فإن آمين يستجاب عندها الدعاء(٢) .

وأمن الجميع على دعاء الرسول الذى ردّده الشيخ وسرى البشر في وجوههم اطمئناناً لتحقيق صاحب الدعاء المستجاب صلوات الله وسلامه عليه ،وأضاف الشيخ قبل أن ينصرف الجمع من مجلس العلم فلنتـواص جميعاً على أن نأخذ بيد أبنائنا نحو معرفة هذا الدين والتفقه فيه ولندع الله أن نكون ممن أراد بهم الخير ، فمن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين .

× × × × ×

كانت جموع المصلين التى تحرص على متابعة الحديث تزداد موسماً بعد موسم فهنالك الرجال والشيوخ الذين أدركهم الإسلام بعد أن كانوا قد قطعوا من العمر أشواطاً في مصاحبة عقيدة أخرى أو الحيرة في أمر الاعتقاد وهاهم يمسهم برد اليقين وسكينة الإيمان فتطمئن نفوسهم وهم يحمدون الله على أن العمر لم ينقض قبل أن يشرفوا بسماع الدعوة والاستجابة لها دون عنف أو مقاومة أو إكراه ، وهم يودون لو كانوا أكثر شباباً ليسيحوا في الأرض طلباً للعلم ونصرة للدين ، ويقول بعضهم لبعض عندما تثار الذكريات والأمنيات : إنما تمتد أعمارنا في أبنائنا ، فليبارك الله لهم في العطاء ، وليكن فيهم أمل البركة والنماء ، وليقترن توجيهنا لهم بخالص الدعاء .

وهناك الشباب الأقوياء ممن ذاقوا حلاوة الإسلام في أول الصبا فلم يسجدوا لصنم أو حجر ولم ينخرطوا في عادات شباب الجاهلية ، ولم تعشـش الخمر في دمائهم ، ولا أصبح اللهو عادة لهم وأولئك يتوقون أن يفدوا الدين الجديد بالنفس والنفيس وأن يعملوا على نصرته وعزته ، كل بما أوتي من قوة ،

---

(٢) انظر تفصيل حديث مازن بن غضوبة في تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان للشيخ أبي محمد عبدالله بن حميد السالمي ج١ ص ٣٦ وما بعدها .

تكمن أحياناً في البدن فتوة وتوقاً إلى نصرة الحق وتدعيم أركانه ، وتكمن أحياناً في العقل تفتحاً وشوقاً إلى معرفة المزيد من العلم عن هذا الدين واللقاء بمن تلقوه عن صاحب الرسالة عليه أفضل الصلاة والسلام والسعي إليهم في أمصارهم النائية ، حتى ولو جهد البدن ، وقل المال .

وهناك إلى جانب هؤلاء وأولئك ، فتية صغار ، لايزال حظهم من الأحلام التعلق بأيدى آبائهم في الغدو إلى المسجد أو الرواح منه ، يتلقون في رضا هذا السيل الغامر من المشاعر التى تعمر قلوبهم الغضة بالإيمان ، ربما دون معرفة كثير من التفاصيل ، ويتلقون خيوط المعرفة الأولى من خلال تلاوتهم وحفظهم لآيات الكتاب الكريم ، وما يقدم لهم من كلمات الرسول ويواظبون بتوجيه من آبائهم على شعائر الدين وأخلاقه حتى تتشربها النفس في يسر وتصبح جزءاً من السلوك ومنهجاً للحياة ، لكن هؤلاء الفتية لم يعرفوا بعد أى اتجاه سوف يقدر لهم أن يسلكوه في نصرة هذا الدين ؟ هل هو اتجاه بطولة الجسد كما كان الشأن في كثير من شباب الإسلام لذلك العصر والذين تسابقوا في سبيل حمله ونشره والدفاع عنه والاستشهاد في سبيله وكتبت أسماؤهم بالنور في صدور أجيال العقود الأولى للبعثة المحمدية وأصبح الاقتداء بهم حلم كل الفتيان ؟

أم هو اتجاه بطولة العقل والجهاد بالعلم والتدبر في الدين وأحكامه وارتياد آفاقه وبحوره التى لا تحد وفتح أبواب الهداية أمام الآخرين ؟ كان ذلك كله ما زال في رحم الغيب بالنسبة لهؤلاء الفتيان وكان من بينهم فتي ناجل صغير يحرص على أن يصطحب أباه إلى المسجد في صلوات ويلازمه عندما يدور الحديث العذب عن الإسلام ، ويعينه على ذلك ما وعاه صدره من آيات الذكر الحكيم ، ويعتز بأنه يحفظ عنه بعض الأحاديث النبوية[٣] ، لكنه لا يعلم ماذا يدخر له الغد ، وكان هذا الفتى يسمى جابر بن زيد .

× × ×

(٣) يعتقد بعض العلماء أن والد جابر بن زيد كان صحابياً ، ويثبتون رواية لجابر بن زيد عن أبيه ، ذكرها أبو بكر الجصاص في كتاب الأحكام ، أنظر : فقه الإمام جابر بن زيد : يحي البكوش ص ١٢ .

عندما عاد المجلس للانعقاد وفيه طوائف الشيوخ والرجال والفتيان المختلفة وبينهم هذا الفتى الصغير الناحل ، ثار الحديث حول بطولات قومهم الأزد في سبيل نصرة هذا الدين الجديد ، وكيف أصبحوا ليوثاً كواسر يضربون في سبيل الله في جنوب الجزيرة وشمالها ، ويلاقون الفرس كما يلاقون الغساسنة ويعبرون البحر كما يقطعون الصحارى ، وهم في كل ذلك موضع رضا الشيخين أبي بكر وعمر ، كما كانوا موضع رضا الرسول الكريم ، وكان بين الجالسين فتى شاعر هاجته الذكريات فارتفعت أنغامه قليلاً وهو يردد قول ثابت بن قطنة العتكي[٤] الأزدى

ألم تنبئك عن سكانها الدار	وعندها من بيان الحي أخبار
كأنهم يوم راحو تاركين لها	من جدهم بجناحي طائر طاروا
صادفت "مسكان" وسط النقع منجدلا	أثوابه بعد تاج الملك أطمار
بقية من سراة الأزد يقدمهم	رئيس صدق إلى الروعات كرار
لاهم ضعاف ولا أزرى بهم خور	عند الطعان ولا عزل وأغمار
إذا أقول لهم والحرب ساطعة	والموت يكره : سيروا نحوه ساروا
نحن العتيك مضاض الناس قد علموا	وفي القبائل أساد وأسرار
قوم نعز ولا ترجى ظلامتنا	ولا يكون أكالي بيننا الجار
من كان فيه من الأحياء مختلف	فنحن لا عيب فينا . . لا . . ولا عار
والله يعلم والأقوام قد علموا	أنا لنصر إذا ما معشر جاروا

وكان الصوت الرخي والشعر الجميل ونسائم الخريف اللينة قد بعثت جميعاً لوناً من الطرب والنشوة في نفوس الحاضرين ، وكانوا يرددون مع المنشد الكلمة الأخيرة من كل بيت في صوت جماعي استحساناً وطلباً للمزيد وصاح فتى من الحضور بعد انتهاء الإنشاد ، الله أكبر ، ماأعظم بطولة آبائنا وما أعز أخلاقهم ، ولكن من " مسكان " هذا المسكين الذى جندله أبطالنا في الاطمار بعد أن كان متوشحاً بثياب الملك ؟ . . قال المنشد : إنما كان قائد المجوس الفرس في عُمان الذين كانوا يزاحموننا أرضنا قبل الإسلام ، فلما شاء الله الهداية لأهل

(٤) أنظر في التعريف بثابت : الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٠٠ وما بعدها . وفي النص تحفة الأعيان ج١ ص ٤٠ .

عُمان وأرسل النبي ﷺ رسالته الموجزة إلى ملكيها جيفر وعبد ابني الجلندى فاستجابا وأسلما وأرسلا بدورهما رسائل إلى زعماء القبائل في عُمان كلها من بلاد مهرة والشحر ونواحيها إلى بلاد دبي وما يليها . فأسلم الجميع إلا هؤلاء المجوس الذين رفضوا ومعهم مسكان أن يستجيبوا لدعوة الإسلام ـ فاجتمع الأزد إلى جيفر بن الجلندى وقالوا لا يجاورنا العجم في عُمان بعد اليوم فدعا جيفر برؤساء الفرس من المرازبة والأساورة فخيرهم بين الإسلام والرحيل ، فرفضوا الأمرين جميعاً ، فنهض الأزد إلى قتالهم فهزموهم شر هزيمة ، وقتل قائدهم وخرجوا من عُمان بعد أن تركوا كل ثروتهم ماعدا سفينة حملتهم إلى أرض فارس .

× × × × ×

ظلت أصداء هذا الحديث تتردد في رأس الفتى الصغير جابر ، وهو يكبر البطولة الأولى التى أصرت على أن تجعل أرض عُمان خالصة لذلك الدين الجديد ، ويتخيل نفسه واحداً من الجند الذين شاركوا في إزاحة المجوس ، ورزقوا فخر النصر أو شرف الشهادة وإنه ليعدو ذات يوم في حقل لهم على مشارف " فرق " ويتخيل موقع المعركة أمامه وجنود الأعداء كالعيدان الغضة وإبطال الأزد كالريح القوية العاتية .

لاهم ضعاف ولا أزرى بهم خور عند الطعان ولا عزل و أغمار

وإنه ليأتى أثناء تخيله وانطلاقه بحركات الفرسان في الإقبال والكر ويكاد ينسى نفسه حتى إنه لا يحس بوقع أقدام أبيه حتى تلامس يداه كتفه ، وهو يقول له مبتسماً : هون على نفسك أيها الفارس المغوار وكفاك ما أطحت به من رؤوس اليوم ، وهاك بعض بواكير تمرات الحقل فاعتصرها كما اعتصرت قوة الأعداء ، وهو يقول لأبيه : شكراً لك يا أبى فليس بي حاجة إلى الطعام بقدر حاجتى إلى السماع ومعرفة ما قدم أسلافنا من بطولات في نصرة هذا الدين ، ويمسح الأب على رأس ابنه قائلاً بارك الله فيك يا بني وجعلك بطلاً من حماة هذا الدين ، تعال معي كي أقص عليك كيف أذاب الدين العصبية القبلية من نفوسنا فإذا بأزد عُمان يقاتلون قوماً من أزد الشام لأنهم كانوا أعداء هذا الدين ويقول جابر إنى لمتشوق

لسماع ذلك فيقول والده : تعلم يا بني أن هذا الدين الحنيف قدم رابطة العقيدة على كل الروابط الأخرى من النسب والمصاهرة والمجاورة والانتماء إلى أصل بعيد أو فرع قريب فيقول جابر : نعم يا أبي ، فيقول الأب ممتحناً فهل تستطيع أن تدلني على آية مما حفظت من كتاب الله تشير إلى هذا المعنى ، ويمر الفتى بأطراف أصابعه على جبهته قليلاً ثم يقول : أحسب أن مما يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى : « **قل إن كان ءاباؤكـم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين** » .(٥)

قال الأب : فتح الله عليك يا بني ، وإنك لتقرأ القرآن وأنت صبي فتضيف إلى حسن التلاوة صحة التدبر وسيكون لي حديث معك حول ما استوعبت من الكتاب العزيز وتدبرته فيما بعد ، لكن دعني الآن أكمل لك ما بدأته من محو العصبية من نفوس المؤمنين قال جابر : أني لمصغ يا أبي وبدأ الأب روايته : " كان ذلك في العام الذى لحق فيه رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى في العام الحادى عشر للهجرة وكان ذلك قبل مولدك يا بني بنحو عشر سنوات أو أقل ، ولا تسل عن الجزع الذى أصاب أهل عُمان لوقوع ذلك الحدث الأجل ، وكان عمرو بن العاص والينا من قبل الرسول وعبد بن الجلندى مليكنا وقد أسلم وحسن إسلامه فسافرا على رأس وفد من سراة عُمان إلى المدينة المنورة يلقون أبا بكر خليفة رسول الله لتقديم العزاء وتجديد الولاء فلما دخلوا على أبي بكر قام خطيبهم سارف بن ظالم فقال يا خليفة رسول الله ويا معشر قريش : هذه أمانة كانت في أيدينا وفي ذمتنا وديعة رسول الله ﷺ فقد برئنا منها إليك ، قال أبو بكر جزاكم الله خيراً وأثنى عليهم خطباء المسلمين ، وفي اليوم الثاني جمع أبو بكر الناس من المهاجرين والأنصار ووجه الحديث على ملأ منهم إلى أهل عُمان : " إنكم أسلمتم طوعاً لم يطأ رسول الله ساحتكم بخف ولا حافر ولا جشمتموه ما جشمه غيركم من العرب ولم ترموا بفرقة ولا تشتت شمل فجمع الله على الخير شملكم ، ثم بعث

(٥) سورة التوبة آية ٢٤ .

إليكم عمرو بن العاص بلا جيش ولا سلاح ، فأجبتموه إذ دعاكم على بعد داركم وأطعتموه إذ أمركم على كثرة عددكم وعدتكم ، فأى فضل أبّر من فضلكم ؟ وأى فعل أشرف من فعلكم كفاكم قول رسول الله ﷺ شرفاً إلى يوم المعاد " .

قال الفتى: ما أجملها من كلمات تصدر عن الصديق وا أعزها من شهادة لأهل عُمان قال الوالد :لم يقف الأمر عن حد الكلمات والشهادة وإنما كان في جوهره تجربة وثقة ، ومن أجل ذلك يسرع أبو بكر باستكمال تجهيز سرية من المهاجرين والأنصار يعقد لواءها لعبد بن الجلندى الأزدى يأمرها بالتوجه إلى بلاد الشام لمقاتلة الغساسنة الأزديين من آل جفنة وكانوا قد تمردوا على الدولة ، وهنا يظهر يا بني معنى أن عصبية الدين أقوى من كل عصبة سواها ، فها هو زعيم أزد الجنوب يكون أشد الناس حرباً على أزد الشمال إذا هم حاربوا الله ورسوله ، ولقد أبلي عبد ومن معه أحسن البلاء ، وأعانهم الله على الأعداء ويكفي ما شهد له به شاعر الرسول حسّان بن ثابت ، وكان من بين جند السرية ، وبعد أن عاد وقف أمام أبي بكر لكي يقول: " قد شهر مقام عبد في الجاهلية والإسلام ، فلم أر رجلاً أحزم ولا أحسن رأياً وتدبيراً من عبد ، هو والله ممن وهب نفسه للّه في يوم كثر صيلحه وتشابكت رماحه وأظلم صباحه ، وها هو أبو بكر يسر بهذه الشهادة ويقول لحسان : هو يا أبا الوليد كما ذكرت ، والقول يقصر عن وصفه والوصف يقصر عن فضله[٦] .

انتهى الأب من روايته ونظر إلى ابنه جابر فإذا هو شارد النظرة فى الأفق البعيد ، مستغرق فى التفكير ، حتى لكأنه لم يتنبه إلى أن حديث والده قد انتهى ، وها هو يربت على كتفه ويقول : أين أنت يا جابر ؟ ويجيب : الحق يا أبي أن حديثك جذبني وحملني بعيداً نحو هذه الأرض المباركة نحو مدينة رسول الله ﷺ

(٦) أنظر في تفصيل حديث عبد في المدينة :
- تحفة الأعيان للشيخ السالمي ج١ ـ ص ٤٣ وما بعدها .
- عُمان عبر التاريخ للشيخ سالم بن حمود السيابي ج١ ص ١٣٩ وما بعدها .
- تاريخ أهل عُمان (مجهول المؤلف) تحقيق د/سعيد بن عبدالفتاح عاشور ص ٤٤ وما بعدها .
- تاريخ عُمان المقتبس من كتاب كشف الغمة لسرحان بن سعيد الأزكوى ص ٣٨ وما بعدها .

ونحو لقاء الغر الميامين من أصحابه المباركين الطيبين ولئن كنت قد حرمت شرف لقاء الرسول الكريم ولقاء الشيخين أبي بكر وعمر من بعده ، فما تزال المدينة عامرة بلقاء الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم ممن وعت صدورهم العلم عن رسول الله وما أجمل أن يلتقي الإنسان بالعبادلة الكرام ، بحر الأمة عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عمرو ، وما أعظم أن يدخل الإنسان بيت رسول الله ﷺ ، ويلتمس العلم من موطنه ، ويحفظ الأحاديث التي ترويها أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها ولكم يدفعني الظمأ إلى طرح كثير من التساؤلات عن حياة الرسول وشئونه لأننا من شأننا إذا عرفناها أن نضيء بها حياتنا وحياة المسلمين في يومنا وغدنا ولكم أتوق كذلك إلى رؤية كتبة الوحي الذين قَدَّموا منذ سنوات قليلة يداً بيضاء لهذا الدين ولكتابه العظيم ، وحملت أخبارهم الركبان إلى كل مكان .

ويسأل الأب : عمن تتحدث يا بني ؟

قال جابر : إنما أتحدث يا أبي عن زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث ، عندما أحسنوا القيام بالمهمة التي عهد بها إليهم عثمان بن عفان في العام الثلاثين للهجرة ، فعمدوا إلى الصحائف التي كتب فيها القرآن والتي كانت تحتفظ بها أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما بعد مقتل أبيها عمر بن الخطاب ، فرتبوا الصحائف المتفرقة في مصحف واحد بعد أن رجعوا ما عن لهم إلى القراء من كبار الصحابة واعتمدوا نسخة موحدة أحرقوا ما عداها ، وكتبوا منها أربع نسخ أرسلوها إلى الأمصار ، لتكون مصدر المسلمين الوحيد في قراءة القرآن ، ولتكون بداية التحقيق لقوله جلّ وعلا : " **إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون**[٧] .

ويتابع الأب حديث ابنه في غبطة وسرور ويقول :

بخ بخ يا جابر ، ها أنت كبرت وأصبحت تدرك من أمور العلم مالا ندرك ، وتتلقف الأحاديث من أفواه الركبان ، وها هي همتك تزداد سموا وعلوا يوماً بعد يوم ، وإني لأدرك الآن جزءاً من سر الصمت الطويل الذى يعتريك من حين إلى

---

(٧) سـورة الحجـر آية ١٥ .

حين ، أنه إذن يا بني صمت التدبر والتفكر والبحث لا صمت الفراغ والخواء ، وإنه لجدير بمثلك ممن أقبل على حفظ القرآن صغيراً ، وعلى مجالس العلم فتى ، وممن شغل نفسه بالاستقصاء والبحث ، وأكثر السؤال وأطال السماع ، جدير بمثلك أن تكون له هذا الهمة العالية ، وأن يتعب جسده في سبيل بلوغ غاية نفسه ، إنني لأفهم الآن يا بني كثيراً مما كان غامضاً علي من أمورك ، وأستطيع الإطمئنان إلى ما أنت مقبل عليه ، لكنه يبدو لي أنك كنت أحياناً في حيرة من أمرك ، فهل تراني كنت على صواب فيما ذهب إليه حدسي ؟

ويجيب جابر : معك يا أبي الحق كل الحق .

ويتساءل زيد : وفيم كانت حيرتك يا بني وأنت الهادىء النفس ، الطيب السلوك منذ طفولتك ؟ .

ويقول جابر : الحق يا أبتي ، إنني في بعض المراحل كنت أتساءل عن الدرب الذى أسلكه للجهاد في سبيل الله ، بعد أن طبت خاطراً بأن تكون نفسي للّه ، لا لدنيا أصيبها ولا لمجد أبحث عنه ، كنت أحياناً أتوق إلى أن أكون محارباً في سبيل الله أحمل السيف دفاعاً عن العقيدة ، وكنت أتمثل دائماً نماذج الأبطال من الأزد ممن قدموا أرواحهم رخصية في سبيل الله مثل جابر بن حديد اليحمدى الذى قتل " شهرك " بن الحمراء قائد الفرس ، عندما واجهته جموع الأزد في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه تحت قيادة عثمان بن أبي العاص الثقفي والي عُمان ، فلم يرهب الأزد أن يلقاهم شهرك موفداً من قبل يزدجرد ومعه أربعون ألفاً من الأساورة فلقد كانت معهم قوة العقيدة التى لا تقاوم فغلبوهم بإذن الله ، وكان الشرف لأحد أبناء عمومتنا جابر بن حديد اليحمدى فأطاح برأس الشرك " شهرك "[٨] .

قال زيد : صدقت يا بني ولقد كان هذا قبل مولدك بسنوات قليلة وكثير من الناس تمنى في هذا اليوم أن يكون جابراً وها أنت قد تمنيت الأمر ذاته في مطلع صباك وابتسم الأب وهو يقول : وعلى أى حال فأنت سميه ، ولقد ولدت في أعقاب بطولته

(٨) انظر بعض التفاصيل والاستدلالات في تحفة الأعيان ج١ ص ٤٧ وما بعدها .
ـ نشأة الحركة الإباضية : الدكتور/عوض خليفات ص ٨٧
ـ فقه الإمام جابر بن زيد : يحيى محمد البكوش ص ١٢

تلك بزمن يسير ، ومن يدرى يا بني ، فلعلّ اسمه الذى كنا نردده كثيراً آنذاك ، هو الذى دفعني ودفع أمك إلى أن نميل إلى إطلاق اسم " جابر " عليك تيمناً ورجاءً بأن تكون بطلاً من أبطال الإسلام المشهورين المجاهدين في سبيله .

قال جابر : لا أخفى عليك يا أبي إنني ملت إلى هذا الطريق يوماً ، وشجع مخيلتي عليه صورة رجل آخر من بني قومي .

قال الأب : ومن هو يا جابر ذلك البطل الآخر ؟

قال جابر : إنما هو " حرقوص بن زهير السعدى " الذى كان من كبار الأبطال في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو الذى فتح " سوق الأهواز " ببلاد فارس ، وهزم الهرمزان قائد الفرس وجعله يلجأ إلى " رامهرمز " .

ويقول زيد : بارك الله في حرقوص ومد في أجله إنما هو أحد أبطال الإسلام الذين شاركوا في الفتوحات لعهد عمر وعثمان رضي الله عنهما وطار اسمه في الآفاق مقترناً ببطولات بني قومنا ودفاعهم عن الإسلام وبذلهم في سبيله النفس والنفيس ، وإنه لحق لك يا بني أن تحلم بأن تلحق بهؤلاء الأبطال وتقدم من التضحية في سبيل الله ما قدموا ، وتساهم في إعلاء شأن الدين كما أعلوا ، ولو كنت مثلك أمر بفترة من العمر تسمح لجسدى أن يحمل أحلام نفسي ويحلق بها بعيداً كما تصنع أنت لما قصرت يا بني ولكم يتمنى المرء أن يرزق في سبيل هذا الدين أعماراً عديدة يفنيها كلها في خدمته ، لكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه يا بني ، وها أنا تراني وقد وهن العزم مني واشتعل الرأس شيباً ، ولم أعد أقوى على القيام بما كنت أقوم به من قبل . فليبارك الله فيك يا بني لتحقق ما لم نستطع أن نحققه .

ثم يصمت الأب قليلاً وهو يخط بعصاه في التراب أمامه ويحرك شفتيه كمن يهم بالحديث ثم يسكت ويتردد مرات قبل أن يقول لابنه : لكن يا بني ألا ترى أنت أيضاً أنك برغم شبابك وفتوتك لم تهيأ تماماً للبس الدروع والقلانس وحمل السيوف والطعن بالرماح، أنك ناحل الجسد ، زاهد في ملذات المأكل والمشرب ، لا تكاد تصيب من الطعام إلا ما يسد الرمق ، وكما ترى فإنني أقدم لك ثمرات من

حقلنا ، فلا تفعل إلا أن تقبلها شاكراً في أدب يليق بمثلك ثم ها أنت ، تنحيها جانباً وتنصرف عنها إلى حديث طويل عن المجاهدين والعلماء تحلق فيه في كل مكان ، دون أن تعنى بما يعني به أترابك من الإقبال علي ملذات الحياة المباحة في مثل هذا العمر .

ثم لا تنسى يا بني أن الله امتحنك فأصبحت ممتعاً بإحدى عينيك رعى الله لك نورها وبارك فيه وأنت بهذا كله ربما كنت مهيأً لشيء آخر غير الجهاد ، ربما لطلب العلم مثلاً .

قال جابر : صدقت ، على هذا انعقد عزمي أيضاً ، ولقد حفظت من حديث رسول الله ﷺ ما يجعل به طلب العلم لوناً من الجهاد ، وما يجعل به مداد طالب العلم كدماء المجاهد في سبيل الله .

قال الأب : أخبرنى يا بني بما حفظت ـ فتح الله عليك ـ قال جابر " بلغنى عن رسول الله ﷺ قال : " رسم المداد فى ثوب أحدكم إذا كان يكتب علماً كالدم فى سبيل الله ، ولا يزال ينال به الأجر مادام ذلك المداد فى ثوبه "[9] .

قال الأب : ما أعظمها من صورة يقدمها رسول الله ترغب النفس في الجهاد من خلال العلم ، لكن يا بني أين نحن من ديار العلم ، أن البون لشاسع بين ديارنا وديار النبوة وما يحيط بها من الأمصار ، ولقد سمعت أن بعض مفسرى القرآن ، عندما كانوا يقرأون قوله تعالى : " **وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق** "[10] ، كانوا يفسرون الفج العميق بأنه أرض عُمان[11] ، فَأَنَّى لطالب العلم أن يبحث عنه يا بني مع مشقة الرحيل ؟ .

---

(٩) الحديث رواه أبو عبيدة عن جابر ، أنظر : الجامع الصحيح ، مسند الإمام الربيع بن حبيب ابن عمر الأزدى ج١ ص ١٣ .

(١٠) سورة الحج آية ٢٧ .

(١١) هذه رواية الحسن في تفسير الآية كما يوردها الشيخ سالم بن حمود السيابي ، كما يورد روايات أخرى عن بعد عمان مثل حديث الحوض وقوله عليه السلام " عرضه من مقامي هذا إلى عُمان " وكذلك " لأعلم أرضاً من أرض العرب يقال لها عُمان الحجة منها أفضل من حجتين من غيرها " أنظر عُمان عبر التاريخ ص ٢٣٩ .

قال جابر : لن تكون هذه الديار أبعد من بلاد الصين ، وقد جاء في الحديث الشريف " اطلبوا العلم ولو في الصين "(١٢) ثم هل هناك يا أبي هدف أسمى من أن يحقق المرء خير الدارين من خلال العلم تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ " تعلموا العلم فإن تعلمه قربة إلى الله عز وجل وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وأن العلم لينزل بصاحبه في موضع الشرف والرفعة ، والعلم زين لأهله في الدنيا والآخرة " .(١٣)

أما وعورة الطريق وصعوبة السبيل فإني لأطمع أن نكون ممن تحق عليهم كلمة الرسول الكريم " من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهل الله له طريق الجنة(١٤) . صدق رسول الله .

قال الأب : وقد تملكه الأعجاب : زادك الله علماً يا جابر وإني أراك لا تكاد تتحدث إلا بكتاب الله وسنة رسول عليه السلام ، وإنك قد أحسنت اختيار طريقك ، وعقدت العزم عليه ،.وما كنت لأجادلك إلا لكي أتثبت من تقديرك لجوانب ما أنت مقدم عليه ، أما وأنت على هذا القدر من قوة البصيرة فلتكمل طريقك وليكن الله معك ، ولنتدبر معاً أفضل السبل التي تسلكها لتحقيق ما أنت مقدم عليه .

---

(١٢) الجامع الصحيح ص ١٢ .
(١٣) المرجع السابق ص ١٢ .
(١٤) المرجع السابق ص ١٢ .

البصرة

ملتقى

العلماء



كانت الفكرة قد استقرت عند جابر بن زيد ، فليس هناك إلا الهجرة في سبيل الله طلباً للعلم ، وليس هناك إلا السعي للقاء العلماء من أصحاب رسول الله ﷺ وممن تلقوا العلم في مدرسة النبوة الأولى ، وكان كثير من هؤلاء قد تجمعوا في المدينة الإسلامية التى اختطت في العام السادس عشر الهجرى عند ملتقى دجلة والفرات على شاطىء الخليج العربي ، وسميت مدينة البصرة(١٥)

وكانت سمعة هذه المدينة الناشئة ، التي كاد يتواكب مولدها مع مولد جابر بن زيد نفسه ، أو قبله بسنوات قليلة ، كانت سمعتها وسمعة أختها القريبة منها وهي مدينة الكوفة قد بدأت تتردد في أنحاء الجزيرة العربية وحواضر الإسلام التى بدأت تتسع وتتعدد لذلك العصر ، وكانت كل منهما قد أصبحت " مصراً " أى اقليماً عامراً ، وهو مصطلح كان يطلق على كل الأقاليم العامرة في الدولة الإسلامية ، لكنه عندما يتم الحديث عن " المصرين " بالتثنية وألف العهد فإنه يراد بهما " البصرة والكوفة " لشهرتهما وكثرة ترددهما على الألسن في ذلك الوقت .

وكانت هذه المنطقة حتى قبل أن تختط مدينة البصرة مألوفة لعُمان وأزد عُمان منذ فترات تاريخية قديمة لأسباب تجارية واقتصادية معروفة في تاريخ الجزيرة العربية ، بين هاتين المنطقتين اللتين تمثلان طرفَيْ الخليج العربي ، عُمان فى الجنوب الشرقي منه يحوطها بحر العرب وخليج عُمان ، وتستقبل المحيط الهندى وما يمثله من شريان حيوى يحمل تجارة الهند والشرق الأقصى ، إلى المرافىء التاريخية في صور وصحار ومسقط وقلهات وغيرها ، والعراق في الشمال الغربي من الخليج حيث الاتصال البرى المتاح ببلاد الشام ومصر والنفاذ منهما

---

(١٥) يورد ياقوت في معجم البلدان مجموعة من التعليلات لتسمية هذه المدينة بالبصرة ، فيقول أن البصرة في كلام العرب تعني الأرض الغليظة التى فيها حجارة تقلع وتقطع حوافر الإبل ، وقد كانت المنطقة التى اختيرت لتقام عليها المدينة مليئة بهذه الحجارة ، وحين وفد المسلمون عليها كما يقول الشرقي بن القطامي نظروا إليها من بعيد وأبصروا الحصى عليها ، فقالوا إن هذه أرض بصرة ، يعنون حصية فسميت بذلك ، وهناك رأى آخر يورده ياقوت أيضاً ، ومفاده أن كلمة " بصرة " معربة عن الكلمة الفارسية " بس راء " التي تعني الطرق الكثيرة المتشعبة وسميت بهذا الاسم ، لأنها كانت ملتقى طرق كثيرة . أنظر ياقوت الحموى : معجم البلدان : ٢ : ٤٣٠ وما بعدها .

إلى بحر الروم وما وراء ذلك إلى جزر ذلك البحر وإلى الشاطىء الآخر منه حيث بلاد أوروبا ونقل التجارة القادمة من بلاد آسيا عبر عُمان إلى هذه المناطق جميعاً ، وكذلك حمل التجارة من هذه البلاد في اتجاه آسيا خلال نفس الطريق .

ومن أجل هذا صار الطريق البحرى بين عُمان والبصرة آهلاً ومعروفاً وموضع اهتمام الرحالة والجغرافيين في كل العصور ، ولم يقتصر العُمانيون على استغلال موقعهم الجغرافي فحسب وإنما أسهموا بدور نشط في تجارة هذه المنطقة على كل المستويات استقبالاً وتصديراً وتصنيعاً وكما يشهد أحد الباحثين الأجانب " فلقد كانت التجارة الدولية المصدر الرئيسي لثروة التجار العُمانيين وعلى عكس عدن التى تدين بإزدهارها لموقعها الجغرافي الفريد وحده دون أن تكون لها موارد أخرى ، فإن عُمان كانت لها موارد خاصة يشير إليها الجغرافيون العرب باستمرار "(١٦)

استقبل العرب خلال هذا الطريق كثيراً من البضائع القادمة من عُمان أو القادمة عبر عُمان ، وينسب إلى الجاحظ أنه كان يتحدث عن اللؤلؤ فيقسمه إلى قسمين ، اللؤلؤ العُماني ، واللؤلؤ القلزمي وكان يرى أن " أفضله هو ما يأتى من عُمان " وكانت هذه اللآلي تسمى باللآلى التؤامية حيث كان بحر عُمان يسمى تؤام ، وقد تحدث كثير من الجغرافيين العرب عن هذه اللآلي العُمانية ، ووردت إشارات عنها عند المقدسي في أحسن التقاسيم ، والمسعودى في مروج الذهب وغيرها(١٧) .

وكان طريق عُمان ـ البصرة الذى يتطلع جابر إلى أن يسلكه في رحلته آهلاً في كل العصور ، وكانت صحار الميناء المتجه للبصرة واحدة من أجمل مدن الشواطىء وأكثرها عماراً ، وظلت كذلك لفترات عديدة من الزمن ، ولطالما أشاد بها الرحالة والجغرافيون العرب ، يصفها المقدسي بأنها " قصبة عُمان " ليس على بحر

---

(١٦) أنظر بحث : د/مناويلا مارين حول " أخبار عن عُمان في الأدب الجغرافي العربي " والمنشور في حصاد ندوة الدراسات العمانية/ ذو الحجة ١٤٠٠هـ نوفمبر ١٩٨٠م المجلد السابع ص ٧٧ وما بعدها وقد أشار هذا البحث إلى مجموعة من النصوص الهامة للجغرافيين العرب حول عُمان في مختلف العصور .

(١٧) المرجع السابق والإرشادات الواردة به .

الصين . . بلد أجمل منه ، عامر أهله ، حسن طيب نزه ، ذو يسار وتجار وفواكه وخيرات ويصفها الأصطخرى[١٨] بأنها " مدينة على البحر وبها متاجر البحر وقصد المراكب وهي أعمر مدينة بعُمان وأكثرها مالاً ولا تكاد تعرف على شاطيء بحر فارس بجميع بلاد الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صحار " وينص اليعقوبي[١٩] فيما بعد على الخط الذى كانت تسير فيه الخيرات المتجهة إلى بغداد عاصمة الخلافة والتي يتخذ جزء منها مساره من عُمان في الخليج حتى البصرة ثم يخترق دجلة صاعداً إلى بغداد .

" كل ما يأتى في دجلة من واسط والبصرة والأبلة والأهواز وفارس وعُمان واليمامة والبحرين وما يتصل بذلك فإليها ترقى وبها ترسو " .

ولا نود أن ندخل في تفاصيل هذه الخيرات التى تمتد إلى التمور الجيدة وآلات الصيادلة والعطور والديباج والحديد والرصاص والصندل والبلور والفلفل وغير ذلك . بالإضافة إلى استقبال هذه المرافيء للعاج القادم من بلاد الزنج وإعادة تصديره إلى بلاد الهند والصين ، بل إن تنشيط التجارة كان يمتد إلى أبعد من هذا حين تستقبل عُمان ألواناً من أشجار الفواكه لم تكن مألوفة من قبل فتستزرعه في أراضيها فإذا نجحت زراعته بها امتدت الزراعة إلى بقية أنحاء الجزيرة العربية وما يليها على نحو ما يذكر المسعودى عن شجر النارنج فيقول " كذلك شجر النارنج والأترج المدور الذى كان يجلب من أرض الهند في أول الأمر ثم يزرع بعُمان ، ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام حتى كثر ق دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغر الشامي وانطاكية وساحل الشام وفلسطين ومصر وما كان يعهد بها ولا يعرف "[٢٠] .

أردنا من خلال هذه الاستضاءة بطائفة من أقوال الباحثين والرحالة والجغرافيين أن نوضح مدى قوة الصلة بين عُمان حيث ولد جابر بن زيد والبصرة حيث قرر الهجرة وتلقي العلم وأن أحلامه ونفسه الطموح عندما حملته إلى الرحلة

---

(١٨) المسالك ص ٢٥ نقلاً عن المرجع السابق .

(١٩) اليعقوبي ـ البلدان ص ٣٩ نقلاً عن المرجع السابق .

(٢٠) المسعودى : مروج الذهب ج٢ : ص ٤٣٢

في سبيل طلب العلم ، وجد أمامه طريقاً يكاد يحدد له المجال فها هي القوافل المتجهة من منطقة نزوى إلى ساحل الخليج تجد الطريق أمامها مؤهلاً لكي تصطحب رحلات التجار المتعددة إلى البصرة ، وهي تجد هذا الطريق ممثلاً في ذلك الخط الملاحي الذى أشرنا إليه والذى ينطلق من ميناء صحار غالباً إلى البحرين ثم إلى البصرة حيث يوجد أول نهر عذب يقابل المسافر البحرى بعد أن يقلع من صحار وكان يوجد إلى جانب هذا الطريق البحرى ، طريق برى آخر يسير بدوره في نفس الإتجاة وكان يعرف بطريق " الأسوار " وهو الطريق الذى كان يبدأ من عدن في أقصى الجنوب الغربي للجزيرة العربية ثم يقطع جنوب الجزيرة متجهاً شرقاً بالقرب من ساحل بحر العرب ، مروراً بمأرب ، وتاريم وكنده وبلاد المهرة وظفار وريسوت ، ثم يصعد شمالاً بالقرب من ساحل خليج عُمان فيمر برأس مدركه وخليج مصيره ويحاذى رأس الحد في إتجاهه إلى مسقط ثم ينعرج غرباً إلى صحار ومنها إلى مينونة قبل أن يتجه شمالاً إلى مشقر وهجر والبحرين والقطيف على شاطيء الخليج العربي ويكون الطريق بعد ذلك مفتوحاً في اتجاه الأبلة والبصرة وشواطيء العراق[٢١] (أنظر الخريطة المرفقة) .

وإذا كانت طرق الاتصال بين عُمان والبصرة مألوفة للرحالة والتجار والمسافرين من المحيط الهندى إلى الخليج العربي إلى أرض الرافدين ، فإنها كانت أكثر ألفة بالنسبة إلى أزد عُمان الذين اختارت أفواج من بينهم جيلاً بعد جيل أن تستقر في نهاية هذا الخط الملاحي في بلاد العراق أو أن تذهب أحياناً أخرى إلى ماوراء ذلك في بلاد الشام حيث استقرت طوائف منهم ساهمت في إقامة مملكة الغساسنة على تخوم الروم وكان هؤلاء الأزد كما أسلفنا من قبل موضع هجوم وحرب من أزد عُمان في عهد أبي بكر الصديق عندما حارب الغساسنة الإسلام ، فتناسى أزد عُمان العصبية القبيلة ووقفوا إلى جانب عصبية الدين وحدها .

وهذه الموجه من الهجرات زادت انتشاراً بعد الإسلام وفي اتجاه البصرة على نحو خاص ، وكان كثير من الذين اشتركوا في جيوش الفتح الإسلامية يستقرون في الأمصار التى فتح الله بها عليهم ، وكان مسلمو عُمان كما أسلفنا من

---

(٢١) أنظر : أطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس ص ٩٩

قبل قد اشتركوا في كثير من الفتوحات في عهد الصديق أبي بكر ، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، وعندما أتيحت لهم فرصة الاستقرار اختار كثير منهم " البصرة " مستقراً ولعل ذلك راجع إلى الإحساس بهذا الرابط القديم الذى يجمع بين طرفي الخليج عُمان والبصرة ، ولكي يحسوا على البعد بأنهم على اتصال بالوطن الأم يتلقون أخباره من القوافل التجارية القادمة ويرسلون مع هذه القوافل ما قد يحتاجه الأهل هناك ، ويشبعون من خلال هذا كله حاسة التجار القدماء بأن يكونوا على مقربة من أحد المرافيء وها هم في البصرة يتحقق لهم من ذلك الشيء الكثير فماء البحر حيث التجارة والاتصال ببقية أطراف بلاد المسلمين أمامهم ، ومياه الأنهار حيث الزراعة والخصب والرى تحيط بهم .

ومن هنا فليس عجيباً أن تشير الروايات التاريخية إلى أنه منذ قيام مدينة البصرة في عهد عمر بن الخطاب كان للأزد أماكن فيها معلومة ومرتبطة باسمهم ، يقول ياقوت الحموى : " وبنى المسلمون بالبصرة سبع دساكر اثنتان بالخريبة ، واثنتان بالزابوقة وثلاث في موضع دار الأزد اليوم[٢٢] " وإذا كان للأزد ثلاث دساكر من بين سبع فإن لهم نحو نصف المدينة وهو توزيع ينم عن كثافة عدد المهاجرين منهم إلى هذه البقعة .

وكان من عادة القبائل العربية عندما تستقر في " المهاجر " التي تختارها أن تتجمع القبيلة داخل أحياء متجاورة ، وأن يكون لها من العصبية ما كان لها في وطنها وأن تحمل معها عداوتها وصداقاتها ، ولقد طبع ذلك المهجر العراقي في البصرة والكوفة بطابع قبلي ، يقول الأستاذ أحمد أمين " رحل العرب إلى العراق يحملون بين جنوبهم العصبية القبلية . . فكان من مظاهر ذلك أن البصرة والكوفة خطط كل منهما تخطيطاً قبلياً ، فقد قسمت الكوفة مثلاً قسمين القسم الشرقي وكان خير القسمين والقسم الغربي ، فاقترع على من يأخذ خير القسمين . . اليمنيون أم النزاريون ؟ فنال القسم الشرقي اليمن والقسم الغربي نزار ثم اختط كل فريق جزءاً من أرضه حسب القبائل . . وكانت هذه العصبية مثاراً للنزاع الشديد ، وكان عرب الكوفة إذا قاتلوا عرب البصرة انحازت كل قبيلة ناحية وقاتلت

(٢٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٢ ص ٤٣١

مثيلتها في الجانب الآخر ، فيمن الكوفة يقاتلون يمن البصرة ، وربيعة الكوفة تقاتل ربيعة البصرة ، ومضر الكوفة تقاتل مضر البصرة .(٢٣)

هذا التصور القبلي جعل المهاجرين يحملون معهم إلى البصرة أسماء الدروب والحارات والبلاد التى نزحوا منها وكما حمل المهاجرون القدماء من أبناء عُمان اسم مدينة صور فأطلقوها على المدينة التى أسسوها على ساحل بحر الروم في بلاد الشام وسمّوها صور ، فقد حملوا كذلك اسم درب الجوف بين أسماء أخرى فأطلقوها على الأحياء المخصصة للأزد في دساكر البصرة وإذا كنا نجد هذه الألقاب جزءاً من اسم جابر بن زيد الأزدى الجوفي البصرى وهي تضم في وقت واحد اسم الأب واسم القبيلة واسم الحي واسم المدينة ، وإذا كان المؤرخون يختلفون في نسبة المنطقة هل هي منطقة الجوف بنزوى في عُمان أم منطقة جوف الخميلة في البصرة(٢٤) فإن هذا الفهم لطبيعة التجمع القبلي وخصائصة يعفينا من هذا الخلاف فالمولد كان كما تتبعناه في جوف عُمان، ولعل أبناء الجوف العُمانى ممن سبقوا إلى الهجرة إلى البصرة اختاروا منطقة لهم أطلقوا عليها اسم الجوف ، ومن الطبيعي أن تكون هذه المنطقة مقصد جابر في رحلته إلى البصرة فهي لا تخلو من أبناء العمومة أو أبناء الحي الذين يتجه إليهم المسافر الغريب أول ما يتجه .

كان كثير من العُمانيين إذن قد سبقوا جابر بن زيد إلى الاستقرار في البصرة في شكل موجات متتالية ، ولعل آخر تلك الموجات كان متمثلاً في نحو ثلاثة آلاف مقاتل من الأزد صحبوا عثمان بن أبي العاص في حملته المشهورة في بلاد فارس وكان أن هزم الفرس بقيادة شهرك الذى لقي مصرعه على يد بطل من مسلمي الأزد هو جابر بن حديد اليحمدى ولقد استقر المقاتلون بعد النصر في مكان قريب من البصرة التي لم تكن قد أنشئت بعد يقول الشيخ السالمي في تحفة الأعيان عند حديثه عن هذه الموقعة : " فلما ظفر أهل عُمان بشهرك . . ساروا حتى قدموا العراق فنزلوا توج وذلك بعد افتتاح الكوفة والمدائن بيسير ، وكان

---

(٢٣) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢٤) أنظر : الإمام جابر بن زيد وآثاره في الدعوة د/صالح الصوافي . وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عُمان سنة ١٩٨٢ ص ٣٠

قدومهم البصرة حين أمر عمر بن الخطاب أن تبصر البصرة ، وأمر أن يضرب بموضع البصرة خطط لمن كان هناك من العرب ، ويجعل في كل قبيلة محلة ، وأمرهم أن يبنوا لأنفسهم المنازل[٢٥] .

وكلام الشيخ السالمي يؤيد مجمل التصور الذى أوردناه عن تخطيط البصرة وشغل الأزد لنحو منتصفها ، لأنهم شغلوا ثلاث دساكر من سبع ، وأصبحت لهم مكانة متميزة فيها ، ويبدوا أن هذه المكانة لم تقتصر على كثرة عدد سكان البصرة منهم ، بل تعدتها إلى الاحتفاظ لهم بموضع متميز في صدر الحياة العلمية والدينية في المجتمع البصرى منذ بداية نشأته ، فلقد كان أول من تولى القضاء في البصرة بأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل من أهل عُمان هو " كعب بن سور من بني لقيط بن الحارث بن مالك بن فهم "[٢٦] ، ولا شك أن هناك مغزى لعمر رضي الله عنه وراء اختيار رجل من الأزد لتولى القضاء في مجتمع يضم تجمعات لقبائل عربية مختلفة ، وكلها حديثة عهد بالإسلام ، ومظنة إثارة العصبية والاختلاف بينها واردة دائماً كما سبقت الإشارة ، فمع أن الأزد لم يكونوا أسبق هؤلاء القبائل إلى الإسلام بحكم التسلسل التاريخي لسنوات الفتح الإسلامى والتى اقتضت أن تتسع دائرة الإسلام من نقطة انطلاق الدعوة في مكة المكرمة فتتسع شيئاً فشيئاً نحو الشمال والجنوب والشرق والغرب ويستغرق الاتساع زمناً حتى يصل إلى مواطن الأزد فى جنوب شرقى الجزيرة ، بالرغم من هذا كله فإن ثقة عمر فى السمعة الطيبة لهؤلاء القوم وفى حكمتهم وفى تأنيهم وحسن تأتيهم للأمور ، وما عرف عنهم أنهم سارعوا إلى الإسلام حين بلغتهم دعوة الرسول دون تردد ولا أعنات ولا حروب ولا مقاومة . كل ذلك يجعل عمر بن الخطاب يعين أول قاض للمسلمين على البصرة من بين رجال الأزد ، فيثبت ذلك قيمة هؤلاء الرجال في مجال العلم والفقه والرأى كما ثبتتها الأحداث في مجال الجهاد والحرب .

---

(٢٥) تحفة الأعيان للشيخ السالمي ج١ ص ٤٧ ـ ٤٨ ، وتوج المشار إليه مدينة قريبة من كازرون بين شيراز والخليج العربي .

(٢٦) انظر المرجع السابق .

لم تكن البصرة إذن غريبة على جابر بن زيد حين وفد إليها في شبابه ، كان الطريق معبداً ومأهولاً وكان المناخ مهيئاً ، والأهل حضّراً ، وكانت النماذج الطيبة في مجالي الجهاد في سبيل الله ، الحرب والعلم قد قدمها السابقون الأولون من رجال الأزد ، وإلى جانب ذلك كله كانت الهمة في نفس جابر قد تربت يوماً بعد يوم على طلب العلم وتحمل المشاق في سبيله ، وكان حب الهدف قد تشرب بكثرة القراءة والتدبر في كتاب الله وسماع أحاديث رسوله حتى بات كل شيء مهيئاً لكي يواصل في البصرة دوره في طلب المزيد من العلم ومحاولة استيعاب ما فى صدور الصحابة والتابعين منه وهو كثير ، ثم محاولة الأسهام في نشره بين المسلمين وإقامة الحق ما وسعه إلى ذلك السبيل .

× × × × ×

ولكن متى وصل جابر إلى البصرة ، وكيف وجد الحياة فيها وفي أى مناخ بدأ يشارك في العلم دارساً ومدرساً ؟ .

إن كل الروايات التاريخية لمن كتبوا عن جابر من القدماء أو المعاصرين لا تشير إلى العام الذى قدم فيه جابر إلى البصرة ولا إلى عمره وقت مجيئه ، وهذا مسلك مألوف في كتب التاريخ وخاصة في الفترة التي لم يكن التدوين فيها قد بدأ بعد ، حيث لا يجرى الاهتمام بالشخص إلا بعد أن يكون قد عرف وشهر ولعل ذلك هو السبب أيضاً في أن كثيراًمن المشاهير لا نقف على تواريخ مجيئهم إلى الدنيا في الوقت الذى نجد فيه تواريخ وفياتهم محددة ، مما دعا كثيراً من المؤرخين القدماء إلى أن يقيموا رصدهم لأحداث التاريخ الإسلامي من خلال معرفتهم بتواريخ " وفيات الأعيان " كما حدث مع ابن خلكان وابن شاكر وغيرهم ، من هذه الزاوية لا نجد الاهتمام محدداً بسنوات ما قبل الشهرة في حياة الأعلام .

ومع ذلك فلدينا في حالة جابر بن زيد شبه إجماع على شيئين يمكن أن يساعدا على معرفة الفترة التقريبية التى حلّ بها في مدينة البصرة . الشيء الأول ، هو سنة مولده وهي في كل المصادر لا تسبق العام الثامن عشر ولا تتأخر عن العام الثاني والعشرين للهجرة[٢٧] .

---

(٢٧) أنظر : نشأة الحركة الإباضية الدكتور عوض خليفات ص ٨٦ والمراجع المبينة به .

والشيء الثاني أنه قدم إلى البصرة في بداية شبابه أو في فترة مبكرة من عمره[٢٨] ، وإذا تصورنا أن فترة الشباب المبكر هذه يمكن أن تقع بين سن الخامسة عشرة والثامنة عشرة من عمره ، فإنه يكون في غالب الظن قد وصل إلى البصرة في نحو العام الخامس والثلاثين للهجرة ، أو حوله قبله بعام أو بعده بعام . ولعل مما يؤيد ذلك مسيرة الأحداث في حياته فيما بعد وظهور شخصيات أثرت في تكوينه وكان لها وجود بالبصرة في هذه الفترة .

والواقع أن هذه الفترة كانت من أكثر الفترات حساسية في تاريخ الدولة الإسلامية ، وكانت بداية الإتجاه نحو آراء ومذاهب ومعتقدات وجماعات سياسية وأخرى فكرية سوف يقدر لها أن تؤثر في تاريخ العالم الإسلامي لفترة طويلة من الزمن .

وكانت البصرة على نحو خاص في هذه الفترة مسرحاً لكثير من الأحداث والأفكار فمع أن مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان سنة ٣٥ هجرية وما تلاه من أحداث وقع بالمدينة إلا أن آثار الخلافات التي بدأت تدب بين الصحابة حول قضية الخلافة ظهرت في الأمصار على التو ، فلم يكد علي يبايع بالخلافة حتى خرج عليه طلحة والزبير وعائشة ، وتوجهوا جميعاً إلى البصرة في العام السادس والثلاثين واستولوا عليها بجيوشهم وحدثت بعض المعارك بين هذه الجيوش وبين أهل البصرة وقتل نفر من أهلها ولعل تلك كانت بداية لإسالة المسلمين لدمائهم على يد بعضهم البعض ، فها هم أهل البصرة والوافدوان عليها يشهدون دماء تستحل من غير ردة ولا كفر ولا كبيرة مما حددها القرآن ، وكلما كان المرء في مرحلة الطفولة أو قريباً منها في بواكير الشباب تركت هذه الدماء في نفسه آثاراً كبيرة وتمنى وهو قريب من مرحلة البراءة أن لو استطاع المسلمون تلافي اهدار الدماء ، وعلى كل حال فلم يطل الوقت حتى لحقت جيوش علي بن أبي طالب بجيوش طلحة والزبير وعائشة ، والتقت جميعاً على مشارف البصرة في موقعة الجمل المشهورة . ولا شك أن أهل البصرة في هذه المرة أحسوا زخم الموت في كل مكان وشمو رائحة الحرب قوية بين المسلمين وسمعوا أنين جرحى ليس بينهم إلا خلاف الرأى ودفنوا

(٢٨) أنظر : الدكتور الصوافي ص ٣٢ والمراجع المبينة به .

جثثاً لموتى يحارون على أيهم يطلقون الشهداء ، ولقد انتصرت في النهاية جيوش علي وانكسرت جيوش طلحة والزبير اللذين قتلا وعائشة التي عادت على "جملها" إلى المدينة .

أما علي فقد دخل البصرة وضمها إليه ولا شك أنه لم يكن راضياً عن أن أهلها ناصروا من حاربوه ولا شك كذلك أنه خطب فيهم موبخاً ، وتورد كتب القدماء روايات كثيرة في هذا الموقف قد تكون تفاصيلها موضع شك كبير ، ولكنها في جملتها تصور حالة الاضطراب والحرج والضيق التى وجد فيها أهل البصرة أنفسهم - ومن بينهم جابر بن زيد - قبل موقعة الجمل وبعدها : يقول ياقوت الحموى : " لما قدم أمير المؤمنين البصرة بعد موقعة الجمل ارتقى منبرها فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أهل البصرة يا بقايا ثمود يا أتباع البهيمة (يعني الجمل) يا جند المرأة (يعني عائشة) رغا فأتبعتم وعقر فأنهزمتم . . دينكم نفاق وأحلامكم دقاق وماؤكم زعاق . . الخ[٢٩] ثم تذكر الروايات كلاماً كثيراً يتوجه كله بالذم لأهل المدينة ، وتؤيد الذم أحاديث نبوية يمكن أن تكون صحتها موضع شك كبير .

والذى يعنينا هنا هو أن تساعدنا أمثال تلك الروايات على تصور الجو النفسي الواقع أو المحتمل لأهل البصرة في هذه الفترة في النصف الثاني من العقد الرابع للقرن الأول الهجرى ، وهي الفترة التى يرجح وصول جابر بن زيد فيها إلى هذه المدينة .

وهذا الجو هو الذي سيشكل كثيراً من الأسئلة والمناقشات وألوان الحوار التى كانت تدور في طرقات المدينة ومساجدها ومجالسها والتى مثلت في رؤوس الفقهاء والعلماء الملامح الرئيسية للهموم التى تشغل بال المسلمين والتى ينبغي على علمائهم أن يساعدوهم في البحث عن تصورات وحلول لها ، يقول الأستاذ أحمد أمين : " لعل العراق كان أكبر الأقاليم الإسلامية ميداناً للحروب والفتن في عهد الدولة الأموية فمنذ مقتل عثمان وهو مشتعل ، ذهبت عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة ، فذهب علي إلى الكوفة ، وكانت بين البصرة والكوفة وقعة الجمل ،

---

(٢٩) ياقوت الحموى معجم البلدان ج٢ ص ٤٣٦ .

وذهب الحسين إلى الكوفة فكان بها مقتله ، وخرج المختار الثقفي بالكوفة يطلب بثأر الحسين ، واستولى مصعب بن الزبير على البصرة وسار إلى الكوفة فقتل المختار ، وجهز عبد الملك جيشاً وسير إلى العراق مصعباً ، وتغلب عبد الرحمن بن الأشعث على الكوفة فسار إليه الحجاج وتغلب عليه ، كان من أثر ذلك بالطبع أن يتساءل الناس : من المخطيء ومن المصيب ؟ . . هل أخطأ قتلة عثمان أم أصابوا ؟ هل لعلي يد في دم عثمان ؟ هل لطلحة والزبير وعائشة حق في قتال علي ؟ هل أصاب علي في التحكيم ؟ هل يصح الخروج على عبدالملك لظلم واليه الحجاج وسفكه للدماء ؟ وهل أصاب من فعل ذلك وخرج مع ابن الأشعث ؟ كل هذه الأسئلة كانت تثار ، وكانت تثار بكثرة حتى في رؤوس الأساتذة بالمساجد ، وإذا كان العراق ميداناً لأكثر هذه الحروب وكان أهله أكثر الناس جدالاً في هذه فكان طبيعياً أن يكون منبعاً للكثير من المذاهب الدينية لأن كثيراً منها بني على هذا الأساس[٣٠] .

لكن حرب الجمل تنتهي لكي تخلف على البصرة حاكماً عالماً هو حبر الأمة عبدالله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ ، وعامل علي بن أبي طالب على البصرة وصاحب مجالس العلم المشهورة التي كانت تعقد كما يقول السيوطي في فناء الكعبة ويكتنف الناس فيها ابن عباس ويسألونه عن تفسير القرآن الكريم[٣١] .

ولا شك أن ابن عباس عندما استقر في البصرة حاكماً واصل سنته التى كان يقوم بها في مكة من إلقاء الدروس في المسجد حول تفسير كتاب الله وتدبر آياته ، وغالب الظن أن جابراً التقى بإبن عباس للمرة الأولى في مساجد البصرة واستمع إلى علمه وبهرته غزارة المعرفة وسعة العلم عنده ، حتى أنه لم يجد كلمة تعبر عن تقديره العظيم للصحابي الجليل وابن عم رسول الله ﷺ إلا بأن يصفه بأنه " البحر " ولعل ابن عباس بدوره لمح هذا الفتي النجيب القادم من بلاد عُمان للعلم راغباً فيه ساعياً إليه ، مستوعباً له وطالباً المزيد منه دائماً فتوسم فيه خيراً وتوقع له مكانة ومستقبلاً ، وسوف نرى كيف ستتوطد العلاقة بين الفتى

(٣٠) فجر الإسلام : أحمد أمين ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٣١) أنظر المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٣٢) أنظر : الدكتور الصوافي ص ٣٤ .

وأستاذه وكيف ستصل هذه العلاقة جابراً بمنابع العلم المستقاة من النبوة ، فيحس أنه كلما شرب رغب في المزيد وأن البحر بلا حدود حتى إنه ليقول عبارته الشهيرة " ادركت سبعين بدرياً فحويت ما عندهم إلا البحر " « ويعني ابن عباس » وحتى أن ابن عباس ليقول كلمته التى رددتها كل كتب الأقدمين على اختلاف نزعاتهم وعدت أفضل دليل على مكانة جابر عند كبار صحابة رسول الله ﷺ ، كان يقول إذا سأله أهل البصرة رأية في مسألة من مسائل الفقه والفتيا : " تسألوني وفيكم جابر بن زيد ؟ " وكان يقول فيما يرويه عنه عطاء : " لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علماً عما في كتاب الله[٣٣] .

على إنه من غير المستبعد كذلك أن يكون جابر قد التقى بعائشة رضي الله عنها في العام ذاته في البصرة حين جاءت مع جيوشها وجيوش طلحة والزبير واستولوا على البصرة ودانت لهم بالولاء قبل أن تقدم جيوش علي وتقع موقعة الجمل ، وإذا لم تكن معناً أدلة تاريخية تؤكد هذا اللقاء فليس معناً كذلك قرائن مؤكدة تنفي حدوثه .

فمن الجائز في لغة السياسة وكسب تأييد الناس لذلك العصر ، أن تلتقي أم المؤمنين بأهل البصرة وأن تدعوهم إلى رأيها وأن تجيب على تساؤلاتهم ولقد كان جابر لذلك العهد شديد الظمأ للمعرفة ، ولقد قطع من أجل التزود بها مسافات

---

(٣٣) ترد هذه العبارات في كثير من المراجع ويمكن الرجوع على سبيل الإشارة لا الحصر إلى :
- الطبقات الكبرى لابن سعد ج٧ ص ١٣١ .
- سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين الذهبي ج٤ ص ٤٨٢ .
: حلة الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ ابن نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني ج٣ ص ٨٥ .
: كتاب المعرفة والتاريخ لابي يوسف يعقوب بن سليمان البسوى ج٢ ص ١٢ .
: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ المزى ج٤ ص ٤٣٦ .
: تهذيب التهذيب ج٢ ص
: تذكرة الحفاظ للإمام شمس الدين الذهبي ج١ ص ٧٢ .
: البداية والنهاية لابن كثير (وقد تفرد بنسبة هذه العبارة إلى جابر بن عبدالله) ج٩ ص ٩٤ .
: التاريخ الكبير للبخارى قسم ٢ ج١ ص ٢٠٤ .

شاسعة ، وكانت معرفة حديث رسول الله ﷺ واحداً من المطالب الرئيسية التى يسعى إليها جابر ولسوف نرى فيما بعد كيف أثمرت هذه الرغبة مسنداً في الحديث رواه عن جابر الإمام الربيع بن حبيب وورد اسم السيدة عائشة في كثير من أسانيده ، ومن المعروف كذلك أن جابراً كان مقداماً ملحاً فيما يتعلق بالسؤال في العلم والدين وله مع السيدة عائشة رضي الله عنها مواقف مشهورة في ذلك(٣٤) ، فلا يبعد والأمر كذلك أن يكون هذا الفتى الشاب قد أتيحت له فرصة لقاء أم المؤمنين خلال فترة اقامتها القصيرة بالبصرة في أوائل عهد قدومه إليها . وأن يكون قد سعد بسماع بعض أحاديث الرسول ﷺ من أقرب الناس إليه وأن يكون قد دفعه ذلك إلى مزيد من العزم على المضي قدماً في سبيل تحقيق هدف نبيل . وهو جمع أحاديث رسول الله وتدوينها لكن معرفة عائشة به لن تتم إلا من خلال زيارته لها في المدينة .

رأى جابر إذن في سنواته الأولى في البصرة وجهين من أوجه الحياة في الإسلام ، وجه الحرب والصراع والفتن ووجه العلم وجمعه وتدوينه والتدبر من خلاله في كتاب الله وسنة رسوله ، وكره سفك الدماء إلا في حق ، وأحب أن يأخذ من العلم أكبر قدر مستطاع ، وكانت البصرة من هذه الناحية ملتقى للصحابة والتابعين والعلماء .

كانت البصرة قد أحسن تخطيطها ، وكثر خيرها وحسنت مناظرها وأصبحت مصراً عامراً يؤمه كثير من الصحابة والتابعين . كانت شوارع المدينة قد خططت لكي تقبل مزيداً من العمران ومزيداً من حركة الناس وسعيهم " فجعلوا عرض شارعها الأعظم أو محجتها العظمى ستين ذراعاً ، وجعلوا عرض ما سواه من الشوارع والمحاج عشرين ذراعاً ، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع ، وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة لمربط خيلهم وقبور موتاهم ، وتلاصقوا ، وتركت حرية تقسيم الخطط للقبائل التى اختطت وبنت منازلها وكانت المنازل من القصب الذى كانوا إذا غزوا نزعوه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو

---

(٣٤) أنظر الجامع الصحيح ، مسند الإمام الربيع بن حبيب بن عمر الأزدى البصرى ج١ ص ٣٧ وما بعدها .

فإذا رجعوا أعادوا بناءة ، وتطور بناء المدينة شيئاً فشيئاً فبدأ أبو موسى الأشعرى الذى تولى البصرة ما بين العامين السابع عشر والتاسع عشر الهجرى . ببناء المسجد ودار الإمارة باللبن والطوب وتبعه الناس ، وأتجه لحل مشكلة تزويد المدينة بالماء الصالح للشرب ، ولا سيما أن المياه التى تصل المدينة كانت مالحة ، فبدأ مشروع حفر نهر الأيلة الذى تم في عهد عبدالله بن عامر الذى تولى إمارة المدينة من سنة ٢٥هـ إلى ٣٦ هـ إلى جانب مجموعة أخرى من الأنهار ، أمدت المدينة بالماء اللازم ووصلتها تجارياً بالأقاليم المجاورة مما دفع بنمو المدينة وإزدهارها(٣٥) .

وعندما وصل جابر بن زيد إلى المدينة في مطلع خلافة علي بن أبي طالب كانت المدينة قد دخلت مراحل متقدمة من الإزدهار ، فقد كان عبدالله بن عامر قد شجع على منح الأقطاعات للأشخاص لزيادة الإنتاج ، واتخذ سوقاً جديدة بالمدينة إضافة إلى سوق المربد القديمة ، وزاد من هذا كله ارتباط البصرة بالبحرين والمناطق المفتوحة من بلاد فارس وقد جلب هذا التطور رخاء اقتصادياً متمثلاً في تزايد واردات البصرة من غنائم الفتح ، وشجع هذا كله على زيادة سكان المدينة زيادة ملحوظة ، وفي الفترة التى وصل فيها جابر إلى البصرة كان عدد مقاتلى المدينة نحو ستين ألفاً ، ويؤكد ذلك رواية الطبرى التى يذكر فيها " إن الإمام علياً بعث لأهل البصرة عبدالله بن عباس لحثهم على مساعدته ، وقال ابن عباس لأهل البصرة لائماً ، أنه لم يخرج منكم إلا ألف وخمسمائة رجل ، وأنتم ستون ألفاً سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم "(٣٦)

ولقد ازدادت المدينة اتساعاً وغني خلال إقامة جابر بها ، وسترى رد فعل ذلك الغنى على نفوس الصالحين أمثال جابر ، لكننا نشير هنا فقط في إطار التعرض لذلك التوسع إلى المدينة التجارية التى بناها زياد بن أبيه وسماها " مدينة الرزق " وهي عبارة عن سوق واسعة لها أربعة أبواب وتحتوى على

---

(٣٥) أنظر : المدينة الإسلامية تأليف د/محمد عبد الستار عثمان (سلسلة عالم المعرفة عن المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت) ص ٦٥ وما بعدها بتصرف .

(٣٦) المرجع السابق ص ٦٦ .

نشاطات اقتصادية مختلفة بالإضافة إلى توسعه في عمران المدينة وبناء المحلات والمربعات والحمامات .

ولقد أشار عبدالله بن زياد والي البصرة إلى عدد سكانها في عام ٦٤ في خطبة وجهها إليهم قائلاً : " لقد وليتكم وما أحصي ديوان مقاتليكم إلا سبعين ألف مقاتل ، وما أحصي ديوان عملكم إلا تسعين ألفاً " .

وقد كان عدد رجال الشرطة بالمدينة في ذلك الوقت أربعة آلاف شرطي(٣٧) .

هذه الخطوط والإحصاءات العامة تبين في أى لون من المدائن نزل جابر بن زيد وأى لون من المعيشة وجده فيها يختلف عن القرية الهادئة التى ولد فيها ، وما الذى حلاله أن يستغله من ألوان المعيشة الجديدة وكان أول ما استفاده جابر بن زيد من اتساع الحياة بالبصرة ما ترتب على ذلك من نزوح عدد كبير من الصحابة والتابعين إليها فعمروا المساجد وأشعلوا مصابيح العلم وعقدوا حلقات الدرس ، فكان في كل ذلك متسع للأخذ والفهم والقبول والرد والنقد وتبادل الأدلة والبراهين وما كان أكثر هؤلاء .

لقد خصّص محمد بن سعد الجزء السابع من طبقاته الكبرى للحديث عن " من نزل البصرة من أصحاب رسول الله ﷺ ومن كان بها بعدهم من التابعين وأهل العلم والفقه " فأحصى من الصحابة وحدهم مائة وخمسين صحابياً ، من بينهم أنس بن مالك وعبدالله بن عمرو والعباس بن مرداس والزبرقان بن بدر والأقرع بن حابس وعمرو بن الأهتم وصعصعة بن ناجية ، والنمر بن تولب ، وعثمان بن أبي العاص والحكم بن أبي العاص ومن موالي رسول الله أبو عسيب ، وزيد وأسير صحاب رسول الله ﷺ وصحار بن عياش العبدى .

أما أفراد طبقات التابعين الذين نزلوا البصرة ممن ذكرهم ابن سعد فقد بلغوا أربعمائة وأربعة وثلاثين تابعياً أدرجهم ابن سعد في ثماني طبقات حسب أعمارهم ومن بين هؤلاء أبو الأسود الدؤلي ، وأبو أمية مولى عمر بن الخطاب والأقرع مؤذن عمر ، وسيرين مولى أنس بن مالك والمهلب بن أبي صفرة وجابر بن زيد الأزدى وأبناء أنس بن مالك ، مالك والنضر وعبدالله وموسى ، وأبناء

(٣٧) المرجع السابق ص ٦٧ بتصرف .

سيرين محمد ومعبد ويحيى وأنس ومالك بن دينار وغيرهم من كرام التابعين .

ونستطيع أن نتصور مدى نشاط الحركة العلمية التى يمكن أن يعيشها نحو ستمائة من خيار الصحابة والتابعين يجتمعون في مدينة واحدة وكل واحد منهم يحمل جانباً من العلم أو بعضاً من الروايات أو جملة من الفتاوى ، وتجتمع الروايات فيعزز بعضها بعضاً ، ويعدل بعضها البعض الآخر ويكون جانب منها قابلاً للمناقشة والأخذ أو الرد ويزيد من أهمية هذا الحوار والنشاط العلمي أن أحداثاً جديدة تكاد تنشأ كل يوم في هذه الفترة ، والمسلمون يهرعون إلى هؤلاء الصحابة والتابعين يسألونهم الرأى والفتوى ويأخذ عنهم ما سمعوه من الرسول الكريم أو من صحابته .

ولقد استغل جابر هذه الفرصة المتاحة أفضل استغلال فأخذ العلم عن معظم الصحابة الذين وفدوا إلى البصرة وفيهم كثير من المسلمين الأوائل الذين صحبوا رسول الله فترة طويلة ، وإذا كان جابر يقول " أدركت سبعين بدرياً فحويت ما عندهم " فإنه لا يعني بالضرورة بالسبعين هذا الرقم المحدد الذى يتلو تسعة وستين ويسبق واحد وسبعين وإنما يعني به كما تعني اللغة العربية عادة عند استخدامها لذلك الرقم الإشارة إلى الكثرة والمبالغة في العشرات ، كما تعني السبعة المبالغة في الآحاد ، وعليه جاء قول الله سبحانه تعالى : " **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** "(٣٨) فالمراد الإشارة إلى الكثرة البالغة وليس إلى رقم محدد كما يقول المفسرون(٣٩) ، وقد كان هذا التعبير شائعاً عند معاصرى جابر بن زيد من العلماء الذين تلقوا العلم على يد كثير من الشيوخ أو الذين التقوا بعدد كبير من الصحابة ، وهناك رواية مشابهة تتصل بفضل الحسن البصرى معاصر جابر بن زيد وصديقه ونزيل البصرة معه : يقول عبدالله بن عامر الشعبي : " لما بعث ابن هبيرة إلى الحسن البصرى والى الشعبي قال فالتقيا فجعل عامر يعرف له فقال له ابنه : يا أبة إني

(٣٨) سورة التوبة ٨٠ .

(٣٩) انظر مثلاً : تيسير التفسير للقرآن الكريم للعلامة الفقيه محمد بن يوسف اطفيش ج٥ ص ١٠٩ .

اراك تفعل بهذا الشيخ فعالاً لم اراك تفعله بأحد قط ، فقال : يا بني أدركت سبعين من أصحاب النبي ﷺ فلم ار أحداً قط أشبه بهم من هذا الشيخ(٤٠) .

فالعلماء الذين أدركهم جابر وحفظ عنهم كثيرون وليس من الضروري أن يقف عددهم عند السبعين ، وإذا كانت البصرة وحدها كما رأينا قد حل بها نحو مائة وخمسين من الصحابة كثير منهم من السابقين إلى الإسلام ، وكان جابر قد رحل بدوره مرات عديدة إلى مواطن الصحابة في مكة والمدينة وكانت لديه هذه الرغبة العارمة في السؤال وطلب العلم والبحث عن الأحاديث والأحكام في مظانها فإن ذلك يؤكد كثرة المصادر الحية التى التقى بها في سبيل استيعاب علوم الدين والتثبت من صحة ما يحفظه وينقله منها .

كانت البصرة إذن بما أفاء الله عليها من الخير وبما توجه إليها من رجال الصدر الأول من الذين عبروا إلى فارس وما وراءها أو عادوا منها ملتقى لكثير من المسلمين وملتقى العلماء منهم وساحة طيبة لتبادل الآراء وتذاكر مسائل العلم وكان جابر قد نزل بها متعطشاً إلى المعرفة فأفاد من كل ما وجده وسعى إلى ما لم يجده ، ولم يلبث أن أسهم بدوره في العطاء وأصبح مع صديقيه ومعاصريه الحسن البصرى ومحمد بن سيرين مرجع الفتوى في أنحاء البصرة ومصدر التوجيه في كثير من المسائل التى تعرض للمسلمين في حياتهم ، ويمتد أثرها إلى مستقبلهم ومستقبل أجيال المسلمين بعدهم .

ولم تكن مهمة هؤلاء العلماء سهلة في رسم الطريق التى يرون انها يتحقق عليها التصور الصحيح للعقيدة ، فلقد كانت تعترض محاولاتهم كثير من العقبات الشديدة التى تحول بينهم وبين تحقيق كل ما يريدون والتي كانوا يضطرون بإزائها في كثير من الحالات إلى التدبر والتريث والترقب واصطناع بعض الحيل ، والصمت أحياناً انتظاراً لظهور فرص أفضل للكلام ، ولربما اظهر كل واحد من علماء العصر ما يهدف إليه على طريقة قد يختلف بها عن سواه ولكنهم كانوا يتفقون في الهدف الذى يسعون إليه ، وهو وضع التصورات السامية لهذا الدين موضع التطبيق في وسط مجتمع تكاد تعصف به كثير من المخاطر .

---

(٤٠) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٧ ص ١٦٢ .

ومن بين العقبات الكثيرة التى تعترض طريق العلماء تظهر عقبتان جديرتان بالاهتمام :

أولاهما :ـ غلبة الدنيا على الناس وانشغالهم بها وتفريطهم من ثم في بعض أمور دينهم ، وسنرى كيف كان جابر وأصحابه يواجهون هذه العقبة بالسلوك العملي الذى لا يشغل بالمتاع الزائل ، ويقابله بالزهد والتعفف .

ثانيتهما:ـ غلبة صوت العسف والظلم عند بعض حكام العصر على صوت العدل والحكمة والعلم وسرعة امتداد أيديهم إلى سيوفهم في مواجهة النصيحة أو الرأى ، وسنرى كيف واجه جابر وأصحابه هذا اللون من العسف وكيف استطاعوا أن يؤدوا رسالتهم وسط هذا الطريق الشائك .

لكننا قبل أن نقف وقفة مفصلة أمام هاتين العقبتين وطريقة مواجهتهما عند جابر ، نود أولًا أن نقف أمام قضية رئيسية في حياته وهي شعوره " بمسئولية العالم " وإحساسه بما ينبغي عليه أن يفعله ليبذل كل طاقته في سبيل جمع العلم وتوثيقه من ناحية ، ثم المحافظة عليه وحمل أمانته ومحاولة إيصالها للأجيال التى تأتي بعده من ناحية ثانية ، وسنرى كيف كان جابر بن زيد رائداً في مجال الإحساس بمسئولية العالم في تاريخ الفكر الإسلامي .



جابر وأصول تلقي العلم

"البحث عن المنابع"

يكاد العلم أن يشكل في درجة أو أخرى من درجاته مطلباً أساسياً من مطالب الإنسان منذ أن ميزه الله من بداية الخلق بنعمة العلم وقرنها بنعمة الخلق ذاتها : " **اقرأ باسم ربّك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم** "(٤١) .

والحياة نفسها تتسع درجاتها وآفاقها بسعة علم صاحبها فيستطيع أن يضع نفسه حيث يبلغ به علمه ، وقد يضيق أفق كثير من الناس نتيجة لقلة علمه فلا يرى أبعد من أرنبة أنفه ويكون مبلغ همه أن يرضى حاجات الغرائز الدنيا عنده كما تفعل السوائم ، وقد يتسع الأفق ببعض الناس كثيراً نتيجة لاتساع علمه فيتخطى بصره حواجز الأشياء وتتخطى حواسه الأسوار الدنيا ، ويعرف كيف يضع نفسه وجنسه في الموضع الذى أراده الله لنبي البشر ، وكيف يحاول أن يرقى بنفسه وبمن حوله ويصعد بها بعض درجات المجاهدة ، وكلما زادت المعرفة اتسع الأفق من حول صاحبها فيحس ببعد البون الذى عليه أن يبلغه وبضآلة ما استقر في يديه ، ويتجدد الظمأ لديه ، ومن هنا كان العلم مجاهدة ، وكان في تحصيله مشقة ومتعة معاً ، وكان الوصول إليه إدراكاً لخير ما يمكن أن يدركه المرء في حياته ، والحصول عليه كنزاً ثميناً ومن هنا كان تفسير ابن عباس ، أستاذ جابر بن زيد لقوله تعالى " **وكان تحته كنز لهما** " بأن الكنز هو " علم صحف " وكان تعقيب الحسن عليه بقوله : " وأى كنز أفضل من العلم "(٤٢) .

هذا الإدراك لقيمة العلم الذى توصل إليه علماء الإسلام السابقون ، كان نابعاً ولا شك من القيمة الكبرى التى أعطاها الإسلام للعلم وللجهاد في سبيله والسعي في طلبه ومن المنزلة التى أحلها للعلماء حتى إنه ليجعل الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً لما يطلب .(٤٣)

لكن العلماء أنفسهم تتفاوت درجاتهم في مدى أحساسهم بمسئولية العلم

---

(٤١) سورة العلق ١ ـ ٥ الآية .

(٤٢) أنظر تقييد العلم للخطيب البغدادى صدره وحققه وعلق عليه يوسف العش ، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ـ دمشق سنة ١٩٤٩ ص ١١٧ .

(٤٣) أنظر الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب ص ١٢ .

والتثبيت من دقة وصحة ما يجيء على ألسنتهم ، ومدى التحرز الذى ينبغي أن يراعوه قبل أن يصدر عنهم العلم الذى تلقوه .

ولقد بلغت تقاليد علماء الإسلام في ذلك شأواً بعيد الدقة حين وازنت بين خطرين في أداء العلم ينبغي التحرز منهما أولهما المبالغة في المنع لدرجة الكتمان وحرمان الناس من أن يصل إليهم علم استقر في قلب أحدهم ، وثاني الخطرين يكمن في المبالغة في العطاء دون تثبت لصحة ما يقول العالم ولقد قدمت أحاديث الرسول ﷺ صورة دقيقة وجميلة للتثبت العلمي ، حتى وجهت اللوم إلى من يقدم رأيه دون تثبت حتى ولو صادف في ذلك الرأى صواباً ففي الحديث الذى يرويه أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : " من أفتى مسألة أو فسر رؤياً بغير علم كان كمن وقع من السماء إلى الأرض فصادف بئراً لا قعر له ولو أنه أصاب الحق ."(٤٤)

ولقد تشرب جابر بن زيد هذه الآداب الراقية والتقاليد السامية للعلم وأخذ نفسه بها وعرف عنه معاصروه أنه رجل شديد التثبت حسن التريث وينسب أبو يوسف يعقوب بن سفيان البسوى ، من علماء القرن الثالث الهجرى في مؤلفه " كتاب المعرفة والتاريخ " رواية لصالح الدهان أحد معاصرى جابر بن زيد يقول فيها : " ماسمعت جابراً - يعني ابن زيد - قط ، يقول " قال رسول الله ﷺ " وصبيان ها هنا يقولون : " قال رسول الله ﷺ " في الساعة عشرين مرة ، وما علمت جابراً روى عن رسول الله ﷺ أكثر من خمسة عشرة أو ستة عشرة حديثاً أو نحو ذلك "(٤٥) .

ومع أن عدد الأحاديث التى رواها جابر تزيد عن ذلك بكثير(٤٦) فإن

---

(٤٤) الجامع الصحيح ، مسند الإمام الربيع بن حبيب ص ١٥ .

(٤٥) كتاب المعرفة والتاريخ تأليف أبي يوسف يعقوب بن سفيان البسوى (رواية عبدالله بن جعفر بن درستوية النحوى) تحقيق د / أكرم ضياء العمرى ، مؤسسة الرسالة ، المجلد الثاني ص ١٥ .

(٤٦) أنظر في تفصيل ذلك مسند الإمام الربيع بن حبيب ، حيث يشير إلى أن مراسيل جابر وحدها بلغت مائة وأربعة وثمانين حديثاً بالإضافة إلى رواياته الأخرى ولمزيد من التفصيل راجع الجامع الصحيح ج٢ ص ١٩٤ .

مدلول الرواية الواضح هو أن جابراً كان يتثبت وهو العالم الجليل ولا يستسهل الرواية والإفتاء وذلك لون من الإحساس بمسئولية العلم وتقدير خطرها .

ولقد امتد هذا التحرز زمناً إلى فكرة التدوين وهي مسألة كان لجابر بن زيد فيها دور رائد في تاريخ العلم عند المسلمين ، لكنه في البدء عندما كان يعلم أن طلاب المعرفة الذين يتحلقون حوله ويستمعون إليه وهو يتحدث في تفسير آية أو مسألة من مسائل الفقه أو رواية لحديث ، يكتبون عنه ما يقول ، أو يدونون ما يفتي به كان لا يرضى عن ذلك استعظاماً لمسئولية العلم ونقله واحتمال السهو أو الخطأ ، يروى ابن سعد في الطبقات عن عمرو بن دينار قال : قيل لجابر بن زيد يا أبا الشعثاء إنهم يكتبون عنك ، قال : إنا لله ، يكتبون عني رأياً أتحول عنه غداً .(٤٧)

لكننا سنرى كيف أن جابراً سيستقر على رأى آخر في مسألة التدوين وسيكون بهذا من أوائل السابقين إلى تدوين العلم في تاريخ الحضارة الإسلامية ، لكن التوثيق سوف يظل دافعاً له إلى مزيد من التحرى والتثبت يسعى إليه قبل أن يدلي بالرأى ، ولقد كان يتذكر دائماً ، ما حدثه به الصحابي الجليل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، حين التقى بجابر في الطواف ، فقال له : " يا جابر إنك ابن فقهاء البصرة ، وإنك ستستفتى ، فلا تفتي إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية ، فإنك أن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت "(٤٨)

وهي وصية تدل على الثقة ورسم الخطة التى يرضى عنها كبار الصحابة رضوان الله عليهم ويعتمدون على كبار فقهاء العصر ومحدثيه لبثها في الأمصار وتعويد الناس عليها ، فلا يكون من شأن أحد التجرؤ على كتاب الله وسنة رسوله ، دون قدر كاف من التـزود بالمعرفة .

وإذا كان جابر قد تزود في البصرة من علم كثير من الصحابة والتابعين الذين لقيهم ، فقد ظل قلبه معلقاً دائماً بمنزل الوحي ومهبط الرسالة في المدينة

---

(٤٧) أنظر الطبقات الكبرى لابن سعد ج٧ ص ١٣١ .

(٤٨) أنظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ ابن نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني ج٣ ص ٨٦ .

وأم القرى ، وظل كثير التردد والسفر إليهما على سعة المشقة وبعد السفر ، وكان موسم الحج فرصة يغتنمها فيزدوج عنده العلم والعبادة وقد رأينا في الرواية التى أوردناها عن لقاء ابن عمر به كيف إنه خلال الطواف يتبادل الحديث عن أسس العلم وطرق التثبت والفتوى ولعل من أجل هذا كان محباً للحج .

وإذا كان الحسن البصرى صديق جابر ومعاصره ونزيل البصرة معه يؤثر عنه أنه لم يحج إلا حجتين ، حجة في أول عمره وأخرى في آخر عمره "(٤٩) فإن جابر بلغ حبه للحج أن فضله على غيره من العبادات .

يقول ابن كثير في البداية والنهاية : قال أبو الشعثاء نظرت في أعمال البر فإذا الصلاة تجهد البدن ولا تجهد المال والصيام مثل ذلك ، والحج يجهد المال والبدن فرأيت أن الحج أفضل من ذلك كله "(٥٠)

ومن أجل هذا فقد اعتاد أن يحج كل سنة(٥١) ، سعياً وراء هذه الفائدة المزدوجة ويقال أنه حجّ أربعين حجة ولكي يضمن تحقيق ذلك الهدف فإن أحرص ما كان يحرص عليه من المتاع هو الراحلة القوية ، التى تساعده على الوصول إلى البقاع التي يحبها ، وعلى تحقيق الهدف الذى يسعى إليه ، ومن اللافت النظر، ألا تتحدث كتب التاريخ عن شيء من المتاع عند جابر بن زيد إلا عن حمار وناقة فها هو جابر يقول لصاحبه عمرو بن دينار ـ فيما يرويه الحافظ الذهبي :ـ " يا عمرو ما أملك من الدنيا إلا حماراً "(٥٢) وهو في مرة أخرى يحدث عمرو بن دينار أيضاً عن المتاع الوحيد الذى يتملكه ويعتز به فيقول : " إن لي ناقة أقف عليها بعرفة ، ما يسرني أن لي كل بعير بعرفة مكانها ، أعطيت بها مائتي دينار فلم أبعها "(٥٣) . ولنلاحظ أن اعتزازه بالناقة يأتي مرتبطاً بموسم الحج وبأنها تحمله إلى عرفة وبأنه يفضلها على كل بعير يقف بعرفة ، وأن الزهو كله يأتى من

(٤٩) طبقات ابن سعد ج٧ ص ١٧٥ .

(٥٠) البداية والنهاية لابن كثير ج٩ ص ٩٤ ، وانظر كذلك حلية الأولياء ج٣ ص ٨٧ .

(٥١) انظر إزالة الوعثاء عن أتباع أبي الشعثاء للشيخ سالم بن حمود السيابي ص ٢٢ وانظر العقود الفضية للشيخ سالم الحارثي ص ٩٩ .

(٥٢) حلية الأولياء ج٣ ص ٨٩ .

(٥٣) المرجع السابق ص ٨٧ .

أنها تعينه على تحقيق الهدف السامي الذى يسعى إليه ، وهو يشتهر بين حجيج البصرة بناقته ، فهي تسبق النياق الأخرى في رحلة الحج وتلفت النظر حتى يتناقل معاصروه ومن بعدهم في سلسلة أسناد متصلة موثقة ، رواية تتصل بسرعة هذه الناقة ، يروى الحافظ الأصفهاني في حلية الأولياء : " حدثنا أبو حامد بن جبلة ، قال حدثنا محمد بن اسحاق قال حدثنا الجوهرى ، قال حدثنا الفضل بن دكين ، قال حدثنا محمد بن برجان ، قال : رأيت أبا الشعثاء جابر بن زيد ، سابق الحجاج ، يسير إحدى عشرة اثنتى عشرة "(٥٤)

ولنلاحظ مرة أخرى أن سرعة الناقة التي اشتهرت على السنة الرواة كانت مرتبطة أيضاً باتجاهها نحو منزل الوحي في رحلة الحج وكأن كل شيء لدى جابر كانت تأخذه الحميا عندما يتجه إلى منبع العلم والدين ، ولقد قيل أن جابراً سافر على هذه الناقة حاجاً أو معامراً أربعاً وعشرين مرة(٥٥) ، وحج على غيرها شراء أو كراء بقية عمره ، حتى أنه أصبح من بين عاداته التي اشتهر بها أنه لا يماكس في ثلاث في الكراء إلى مكة ، وفي الرقبة يشتريها للعتق ، وفي الأضحية "(٥٦) .

وإذا كان كراء النوق لرحلة العلم والحج وسلوكه في ذلك الكراء أصبح عادة حسنة يشير إليها المؤرخون ، مع أنه استغنى عن ذلك الكراء أربعاً وعشرين مرة على الأقل هي تلك التى سافر فيها على ناقته التى كان يعتز بها والتى كان يسميها " جزة "(٥٧) ومع احتمال أن يكون قد سافر على نوق أخرى له ، فإن معنى ذلك أن صلته بمكة والمدينة لم تكن منقطعة أبداً طوال سنوات اقامته بالبصرة وضمن ذلك لعلمه أن يكون متجدداً دائماً ، ولرواياته أن تكون موثقة ولآرائه أن تكون موضع نقاش من الصحابة والتابعين فيبعد بها وبنفسه عن مهاوى الزلل .

ولقد عرف حكام البصرة في عصره أهمية هذه الرحلات الدائمة بالنسبة لجابر واحتمالات خطرها عليهم في الوقت ذاته ، ومن هنا فقد أدركوا أن أكثر

---

(٥٤) انظر حلية الأولياء ج٣ ص ٨٧ .

(٥٥) إزالة الوعثاء عن أتباع أبي الشعثاء ص ٢٣ .

(٥٦) البداية والنهاية ج٩ ص ٩٣ .

(٥٧) انظر كتاب المعرفة والتاريخ للبسوى ج٢ ص ١٥ .

ما يؤلمه ليس حبس العطاء ولا منع الهبات ولا تأخير الهدايا وإنما حبسه هو عن هذه الرحلة التى تترك دائماً آثارها الطيبة على روحه وعقله ، ولقد بلغت محاولات إيذائه في هذا الصدد أنه كان يطلب إليه ألا يذهب إلى الحج بحجة أن الناس يحتاجون إليه في البصرة فإذا رفض الانصياع للأمر حبس حتى تفوت عليه فرصة السفر ، يذكر الإمام أحمد بن سعيد الشماخي في كتاب السير أن " جابر بن زيد كان يحج كل سنة فلما كان ذات سنة بعث إليه عامل البصرة ألا تبرح العام فإن الناس يحتاجون إليك فقال : لا أفعل ، فسجنه فلما كان غرة ذى الحجة (أى قبل الوقوف بعرفة بتسعة أيام) رجاه الناس فقالوا : أصلحك الله قد هل هلال ذى الحجة ، قال : فأرسله فخرج من السجن فأتى منزله وناقته حوله في الدار قد كان هيأها للخروج ، فأخذ يشد عليها الرحل ويقول : " **مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها** " يا آمنة أعندك شيء ، قالت : نعم فهيأته في جرابين ، فقال : من سألك فلا تخبريه بمسيرى يومي هذا ، فخرج من ليلته وانتهى بعرفة والناس بالموقف ، فضربت بجرانها الأرض وتجلجلت فقال الناس ذكها ذكها[٥٨] قال حقيق لناقة رأت هلال ذى الحجة بالبصرة ألا يفعل بها هذا ثم سلمها الله تعالى "[٥٩] .

وعلى هذا النحو قدر له أن يدرك موسم الحج وأن يقطع هذا الطريق الطويل في تسعة أيام فقط وهو طريق يستغرق أكثر من ذلك في الأحوال العادية فلقد سلك غالباً الطريق الذى يسمى " بالنجدية " وهو الذى عرف فيما بعد باسم طريق " زبيدة " عندما تعهدته زبيدة زوجة هارون الرشيد بالرعاية فأقامت على جانبيه الآبار والأشجار وهذا الطريق يمتد من الأيلة القديمة بجوار البصرة إلى مكة ويخترق من ثم عرض الجزيرة العربية من أقصى شمالها الشرقي في البصرة إلى أقصى غربها الأوسط في مكة مروراً بديار بني تميم وديار بكر وربيعة في النباح وطخفة وجديلة وضربة ثم صعوداً إلى عوالي نجد ووجرة وغمر ذى كندة وجنة

---

(٥٨) اى اذبحها .

(٥٩) كتاب السير تأليف الإمام أحمد بن سعيد بن عبدالواحد الشماخي تحقيق أحمد بن سعود السيابي (سلطنة عُمان وزارة التراث القومي والثقافة) ج١ ص ٦٨ .

وذى المجاز وصولاً إلى مكة[٦٠] ، وهو طريق لا شك في أنه طويل وشاق وقد زاد من طوله ومشقته أنه كان على جابر أن يقطعه وحده تقريباً فمن سيسافر على هذا الطريق لآداء فريضة الحج بعد أن يرى هلال ذى الحجة في البصرة والحجيج في مثل هذا الوقت مشغولون بأداء المناسك في مكة أو المدينة ؟ من الناس سوف يحبسه وال أو أمير عن السفر إلا أن يكون في سفره من الأهمية ومظنة جلب مزيد من المتاعب للولاة كما كان الشأن في سفر جابر ؟ ولم يكن أمثال جابر بكثيرين ولا كانت كل العزائم تتحمل ما تحملته عزيمته .

[كانت شهرة " جزة " ناقة جابر ، ومن قبلها وبعدها ، شهرة نوقه الأخرى المشتراه أو المكتراه وشهرة تسامحه فى الكراء إلى مكة ثم أشارته إلى حماره الذى لم يكن يملك غيره في إحدى الفترات ، وتسجيل ذلك للرواة والتاريخ كان ذلك كله دليلاً على أنه كان رجلاً يحب الحركة والانتقال وكان حرصه على طريق معين يقطعه عشرات المرات في غمرة ما بين البصرة ومكة والمدينة دليلاً آخر على أن هدفه من الحركة والانتقال لم يكن إلا العبادة والعلم يسعى من أجلهما ، ويجهد في سبيل ذلك الراحلة والمال والبدن وينفق الوقت لكنه يعود في كل مرة غانماً ثمار العلم والعبادة] .

وأن الحجيج ليعرفون عنه امتزاج العبادة والعلم فيه ، فهم يسألونه في الحج وهو يفتيهم ويدل الناس بعضهم بعضاً عليه وها هو الإمام ابن حزم يروى في المحلى أن رجلاً سأل علي بن عبدالله وحليم بن الدريم في موسم الحج عن شيء وقع له وهو محرم فقالا له مالنا بهذا علم فمضى إلى جابر بن زيد أبي الشعثاء فسأله ثم رجع إلينا يعرف البشر في وجهه . . "

هذا الرجل المحب للرحلة والحركة والذى لا يكاد يفتر عن القيام برحلاته إلى مكة والمدينة على أبله المشتراه أو المكتراه ، حاجاً أو طالباً للعلم أو هما معاً ، لا يهدف من وراء رحلاته إلى الترويح عن البدن والتقلب في النعماء المختلفة ، وإصابة كسب مادى من وراء أمير أو حاكم يقصد وإنما يبدو الأمر وكأنه يتمتع

---

(٦٠) انظر خريطة الطرق التجارية في الجزيرة العربية في أطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس ص ٥٩ ، وانظر كذلك ص ٩٩ .

(٦١) انظر فقه الإمام جابر بن زيد تقديم وجمع وتحقيق يحيى محمد البكوش ص ٧٢ .

بالأجهاد في الرحلة ويتأذى من الراحة والنعيم الذى يسعى إليه سواه ، وها هو التمتع بالأجهاد يبدو لنا في السر الذى قدمه لتفضيل عبادة الحج على غيره من العبادات فعنده أن العبادة إما أن تجهد البدن كالصيام أو تجهد المال كالزكاة أو أن تجهدهما معاً كالحج وهو من أجل هذا يفضله أى أنه إذا اشتد الجهد والتعب في سبيل العبادة والعلم خلص الأجر عند الله الأعظم وها هو يحرص على أن يقوم برحلته المجهدة معظم سنوات عمره ويمارس العبادة والعلم من خلال المشقة .

وفي واحدة من المرات القليلة التى يتخلف فيها عن هذه الرحلة المجهدة الممتعة تذهب زوجته آمنة لكي تؤدى فريضة الحج ولا شك أنه زودها بنصائحه من أنه كلما زاد الجهد كثر الأجر وإنها رحلة يعفو فيها المرء عن من أساء إليه وإنها رحلة ينبغي أن تخلو من الجدال **فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج** .

وكم كان شوقه عندما عادت القافلة الصغيرة التى رافقتها زوجته وأوصلتها إلى بيتها ، كان شوقه بعد أن اطمأن عليها أن يسألها : " كيف كانت الرحلة ؟ وهو يود أن يعرف كيف استوعبت الدرس الذى مرّ به هو مراراً من التدرب على تحمل مشقة الطريق وما قد يعرض للإنسان من أذى الرفاق وكيف كانت معاملة صاحب البعير الذى أكترته للحج ؟ هل هو مريح ينزل بهم حيث مواطن الراحة والظل ويرحل بهم دون اجهاد ويوفر لهم الماء ويساعدهم على أن يتحفظوا من بعض مشقات السفر ويحسن الرد إذا سئل ويتسع صدره إذا طلب منه شيء ؟ وتتابعت أسئلة كثيرة من جابر على هذا النحو وصاحب الكراء ما زال ينيخ راحلته بالباب .

وجاءت إجابة آمنة زفرة واحتجاجاً : إنه لرجل سيء الصحبة ما أحسن معاملتنا وما خفف عنا بعض مشاق سفرنا وكان كثير التبرم ضائق الصدر ، ولقد شكا منه كل من كان معنا في الرحلة . وسكتت آمنة وتوقعت أن يخرج جابر فينهر الرجل ويوبخه ، أو على الأقل يصرفه وقد أخذ أجره المتفق عليه وبالفعل خرج جابر ، وإذا بآمنة تسمعه يبش للرجل ويقول له : يا أخا الإسلام أدخل إبلك في فناء الدار فأرحها فلا شك إنها مجهدة من عناء السفر وتسمع آمنة صوت رغاء الإبل وهي تنيخ في ساحة الدار وتسمع جابر يقول لبعض من في الدار : اذهبوا فاشتروا علفاً لهذه الإبل فهي جائعة ، وقدموا لها الماء البارد فلا شك أن السفر

أجهدها ويتعجب الرجل الأعرابي ويقوم وكأنه يحدث نفسه : " ماكنت أتوقع هذا الاستقبال الكريم من ذلك الرجل . . أى نوع من الرجال هو ؟ "

ويدلف جابر إلى داخل الدار ويجد آمنة تتعجب بدورها وتهم بالحديث فيقول لها : ليس الآن أعدوا للرجل طعاماً فهو جائع وتهمهم آمنة غاضبة، لكن الطعام يُعَد ويأكل الرجل وهو يزداد عجباً وخجلاً من نفسه ، وخلال ذلك يهمس جابر لأحد أبنائه ويدس في يده بعض الدنانير ويخرج الابن بعض ساعة ثم يعود ومعه ثوبان جديدان يضعهما جابر إلى جواره ويتعلق بصر الأعرابي بهما دهشاً ، وما أن ينتهي من طعامه ويغسل يديه ويشكر جابراً على حسن الصنيع الذى قدمه له حتى يقول له جابر وهذان الثوبان الجديدان ما رأيك فيهما ؟ ويقول الأعرابي : أهما لي ؟ إنني لا استحق كل ذلك ، ويقول جابر بدماثة خلقه : لا تقل هذا يا أخا الإسلام فيكفى أنك خلقت ثيابك في سبيل الرحلة إلى الأرض المحبوبة والعودة منها ولكن أغبطكم لأنكم تمتعتم دوني هذا العام .

ويدخل جابر على آمنة التي لم ينقض عجبها بعد من حسن معاملة جابر للرجل ، ويقول لها يا آمنة : هل أنت محتاجة إلى قربة الماء التى كانت معك ؟ فتقول : نعم . . تصلح لرحلة العام القادم . . فيقول : للعام القادم رزقه المدخر عند واهب الأرزاق ، أعطني القربة وأعطني أدوات الرحلة الأخرى التى حملتها معك ، فالرجل كثير الأسفار وربما كان أكثر حاجة إليها منا الآن .

ويقدم جابر لصاحب الإبل هذا كله ، وينصرف الرجل شاكراً غير مصدق وقد بدأت كثير من مظاهر الجفوة والغلظة تتنزع من نفسه ، وهو يقول ما أكثر الرجال الطيبين في أمة الإسلام وما أجمل أن يتلقى الإنسان المعاملة الطيبة ثم يضيف وكأنه يستدرك . . وأن يقدمها للناس أيضاً " .

وعندما يدخل جابر على آمنة بعد انصراف الرجل . . تقول له متسائلة " أخبرتك بسوء الصحبة ففعلت ما أرى ؟ قال جابر " أفنكافئه بمثل فعله فنكون مثله ؟ . . لا . . بل نكافئه بالإساءة احساناً . . والسوء خيراً "(٦٢)

---

(٦٢) انظر كتاب السير . . لأحمد بن سعيد الشماخي ج١ ص ٧٠ بتصرف وتفصيل .

هكذا كان يتمتع جابر بفرصة هذه الرحلة المحببة إلى النفس ، ويجدها فرصة له ولمن يحيط به لكي يدرب النفس على التخلص مما يعلق بها من شوائب الحياة اليومية ويحاول السمو بها نحو آفاق الخير والعلم وتطبيق المبادىء السامية التى دعا إليها الدين الحنيف .

وعلى العكس من ذلك كان شعوره حيال الرحلات الأخرى التى يرتاح إليها غيره من أعلام العصر والتى قد يجدون فيها فرصاً سانحة لكثير من الطيبات المباحة أو العطايا والهدايا ولقاء الولاة والأمراء ، كان جابر على العكس يرى في هذا النوع من الرحلات عبئاً ثقيلاً لا يلجأ إليه إلا إذا اضطرته ظروف أداء واجب أو مجاملة صديق يركن له ويستريح إليه أو يعينه فيما يهدف إليه من التستر لنشر مبادىء الحق ، فإذا ما علق به من خلال الرحلة شيء من النعيم يقدم إليه أو بعض من الهدايا والعطايا فهو يحاول جاهداً أن يتخلص منه قبل أن يعود إلى بيته وكأنه عبء يزيحه عن كاهله .

ولقد وقعت له واحدة من هذه الرحلات قصد فيها مدينة واسط لزيارة يزيد بن أبي مسلم وهو رجل كان يحب جابراً كثيراً ويسعى لتقديم الخدمة إليه وحمايته وكان في الوقت ذاته يشغل مكانة هامة فقد كان كاتباً للحجاج بن يوسف الثقفي المشهور بعسفه وجوره في ذلك العصر وكان ليزيد دور في حماية جابر من بطشه ـ كما سنرى ـ والمهم أن يزيداً دعا جابراً لكي يزوره ويصلي الجمعة معه في مدينة " واسط " التي بناها الحجاج بين البصرة والكوفة ولبى جابر الدعوة وكان معه صديقه عمارة بن حيان وسرّ يزيد بتلبية دعوته كثيراً ، وأراد أن يكرم جابراً وأن يبالغ في إكرامه وقد كان . جيء بعد الصلاة بطيب الطعام فأكلوا ثم جاءت جارية بنوع من العطور " الغالية " فعطر شعر رأس الشيخ وعطرت لحيته ، وهو يكاد يتأفف ، فهو لم يتعود ولا يريد أن يتعود على هذا النوع من الترف ، ثم تأتي ساعة الخروج إلى المسجد لصلاة العصر ، وينادى يزيد على غلامه يا غلام : أسرج البرذون لأبي الشعثاء ، ويقول جابر على الفور " أعفني من البرذون " فهو لايريد أن يمتطي البرذون المسرج وهو أحد مظاهر الخيلاء التى قد تتسرب إلى بعض النفوس ، ويكفيه أنه لم يستطع أن يمنع تسرب " الغالية " إلى شعر رأسه

ولحيته مؤقتاً ، وإن كان ذلك شيئاً يمكنه التخلص منه فليمتنع إذن من أن يسير في شوارع " واسط " ممتطياً برذوناً ، ويستجيب يزيد ويأمر الغلام أن يسرج البغلة وينطلق إلى المسجد على البغلة والغلام معه ، وهو يفكر كيف يمكنه أن يتخلص من بقايا زينة الدنيا في رأسه ولحيته قبل أن يلج إلى المسجد ويقف بين يدى الله ، ويبلغان شاطيء دجلة حيث يقع مسجد " واسط " ويقول جابر في نفسه الحمد للّه أن قد بلغنا النهر قبل المسجد . . وترجل جابر من على البغلة وقال جابر للغلام : أسبقني يا بني إلى المسجد وانتظرني على بابه فسوف ألحق بك ، وما أن يختفى الغلام في الشارع المجاور حتى ينزل جابر إلى شاطيء النهر ، فيأخذ من مائه ويدلك رأسه ولحيته تدليكاً شديداً يحاول أن يزيل كل أثر للطيب وهو يردد خلال ذلك كله : اللّهم لا تجعل حظي منك منزلتي عند هؤلاء القوم " .

وعندما يدخل جابر إلى المسجد يدخله وقد تخلص مما يحرص سواه على التحلي به ، ويصلي للّه مستريح النفس .

وتنتهي زيارة جابر ليزيد وعندما تجيء ساعة الرحيل ، تتنافس زوجتا يزيد في تزويد الضيف الراحل بأنواع الطعام والهدايا وتحمل جميعها إلى السفينة التي سوف تقل جابراً من " واسط " إلى البصرة والرجل في حياء من أن يرفض ما تقدمه أسرة صديق له يحرص على مودته ، لكنه كما تخلص من بقايا الطيب قبل أن يدخل إلى المسجد ، لا يريد أن يعود إلى بيته بشيء من ذلك المتاع الزائل ، ويهتدى إلى فكرة طيبة فما أن يستقر على ظهر السفينة ويطلق الملاحون أشرعتها في اتجاه البصرة حتى يقول لرفيقه عمارة بن حيان " لا تدع أحداً من أهل الركب يفتح زاده . وينادى على أهل الركب أن احفظوا ما معكم من زاد فخير الله هنا وفير، وتفتح الأطعمة المهداة إلى جابر جراباً بعد جراب طوال فترة الرحلة على مياه دجلة ما بين واسط والبصرة ، ويطعم منها ركاب المركب أجمعون ، وعندما تقترب المركب من البصرة يسأل جابر عمارة بن حيان : هل وفى الطعام بحاجة المسافرين ؟ ويجيب عمارة : الحمد للّه لقد طعموا جميعاً وبقي جرابان . . ويتساءل جابر : ما نصنع بهما ويجيب عمارة هما لك ، أحملهما إلى الصبيان في البيت لئلا تدخل عليهم بدون شيء . . ويقول جابر : " لا صبهما على ظهر المركب وأطعم

الملاحين . . وادع المساكين . . وادفع إليهم مابقي "[٦٣]

وعلى هذا النحو تعيد سيرة جابر تأكيد ما قلناه ، من أن الرحلة والحركة على كثرتها في حياته ، لم يكن يقصد بها جمع المتاع ولا إدخار الأموال ولا تلقي الهدايا ولا لقاء الأمراء ، وإنما كان هدفه من الرحلة هو العلم والعبادة ولهذا حدد المسار المحبب لديه ، أن يكون الإتجاه دائماً إلى مكة والمدينة حيث يجتمع الهدفان ، ولهذا أيضاً لم يكن يستريح إلى الخيول فهي وسيلة زهو وخيلاء ووسيلة رحلة لأصحاب الطراد والقنص ، ولم يكن هو من المنتمين إلى هؤلاء ، أو هى وسيلة من وسائل الحرب والجهاد في سبيل الله وقد اختار هو للجهاد طريقاً آخر ، هو طريق العلم .

ولم يكن كذلك يحب " البغال " ولم يرد في سيرته ذكر لها إلا من خلال هذه البغلة التى ركبها وربما كان ذلك على مضـض من بيت يزيد بن أبي مسلم مضيفة إلى مسجد " واسط " .

لكنه كان يملك من وسائل الرحلة شيئين هما :ـ

ذلك الحمار الذى أشار مرة إلى أنه لا يملك من الدنيا سواه ولعلّه كان يستخدمه في التنقل بين طرقات البصرة وأحيائها ، وهو دابة لا تبعث على الزهو والخيلاء ، ولا تؤدى إلا مهمة الحركة من مكان إلى مكان .

ثم هذه الناقة أو تلك النوق التي كان يعتز بامتلاكها ولا يفرط في الجيد منها مهما قدم له من أموال ويسابق الرفاق من على ظهرها في طريق الحج فيسبقهم ويفاخر بذلك ، ويعتد بأنها تقطع المسافة بين البصرة ومكة في تسعة أيام لا تزيد فتدرك هلال ذى الحجة في البصرة ثم تدرك الناس وقد وقفوا بعرفة ، فإذا ما غابت الناقة المشتراه ـ فهي المكتراه بسماح نفس لا جدال ولا مماكسة ولا مناقشة لصاحبها بل سماحة وإكرام حتى لو أساء ذلك الصاحب لأنها تحمله إلى خير البقاع ويؤدى من خلالها أكثر الأهداف نبلاً : العلم والعبادة ، بل إنه ليعد " الراحلة الصالحة " واحدة من أمنيات ثلاث تمناها على الله يقول " سألت ربي

---

(٦٣) انظر كتاب السير لأحمد بن سعيد الشماخي ص ٧١ بتصرف وتفصيل .

عن ثلاث فأعطانيهن ، سألت زوجة مؤمنة ، وراحلة صالحة ، ورزقاً كفافاً يوماً بيوم " .

إن هذا الحرص على الناقة دون سواها من الدواب وهذا الحب لهذا الطريق الممتد بين البصرة ومكة والمدينة أكثر من غيره من الطرق ، لم يكن في الواقع إلا واحداً من الدلائل على النهج العملي الذى استنه جابر في " تاريخ العلم " عند المسلمين من الحرص على بذل المشقة من أجل التثبت من المسائل المتصلة بالدين وأخذها من مصادرها الأولى مهما تكلف من مشاق وهي سنة سار عليها كثير من علماء الصدر الأول للإسلام ومن تبعهم وكان جابر واحداً من روادها الأوائل دون شك ، وتركت آثارها العميقة فيما بعد ، لا على توثيق علوم الدين فحسب ولكن على تثبيت " آداب طلب العلم " بصفة عامة في تاريخ الحضارة الإسلامية .

وإذا كان جابر قد أحب في سبيل ذلك الهدف الطريق المؤدى إلى مكة والمدينة فأى مناخ علمي كان يجده هناك ؟

★ ★ ★

الفترة التي كان يتردد فيها جابر بن زيد على الحجاز للعبادة كانت فترة نشاط علمي مزدهر تشهده الحاضرتان الكبيرتان " مكة والمدينة " .

كان المركز السياسي للخلافة قد انتقل بعد مقتل عثمان سنة ٣٥ هـ من المدينة فاستقر بالكوفة حيناً في عهد علي وبدمشق في عهد معاوية وأبنائه وإن كان الحجاز لم يخل من نشاط سياسى وخاصة في عهد عبدالله بن الزبير ، لكن انتقال مركز النشاط السياسي من عواصم الحجاز لم يضعف من قوة النشاط العلمي بها بل ربما زاده ، فقد استمرت مجالس العلم تعقد في المدينة ومكة يتحدث فيها كبار الصحابة من أمثال زيد بن ثابت وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر إلى جانب عائشة أم المؤمنين .

وكانت تفد الوفود من أرجاء العالم الإسلامي ، تتحلق حول هؤلاء الأعلام **" ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم "** .

كان أشهر علماء مدرسة المدينة زيد بن ثابت وعبدالله بن عمر وكانا يمثلان اتجاهين متكاملين ، فزيد صاحب تكوين ثقافي وعلمي خاص فهو أنصارى صحب النبي منذ صباه وتعلم السريانية والعبرية ـ في وقت وجيز ـ وكان ضليعاً في فهم الإسلام وله القدرة على استخراج الأحكام من الكتاب والسنة ، ومن الرأى إذا لم يكن كتاب ولا سنة ، حتى قال سليمان بن يسار ما كان عمر ولا عثمان يقدمان على زيد أحداً في القضاء والفتوى والفرائض والقراءة ، وقال القاسم : كان عمر يستخلف زيد بن ثابت في كل سفر يسافره وكان يفرق الناس في البلدان ، ويطلب إليه الرجال المسمَّوْن (النابهون) فيقال له زيد بن ثابت فيقول " إن أهل البلد يحتاجون إلى زيد فيما يجدون عنده فيما يحدث لهم ما لا يجدون عند غيره " وكان ابن عباس يأخذ بركابه ويقول " هكذا يفعل بالعلماء والكبراء وكان قادراً على استنباط المعاني ، ذا رأى فيما لم يرد فيه أثر "(٦٥) وقد ظل بالمدينة حتى توفى بها في عام ٤٥ هـ في زمن معاوية .

ولا شك أن جابراً كان قد بدأ تردده على المدينة قبل هذا التاريخ ، ذلك أن جابراً وفد إلى البصرة في غالب الظن في أوائل خلافة علي بن أبي طالب في نحو عام ٣٥ هـ أو حولها ، اعتماداً على ما تجمع عليه المصادر التاريخية ، من إنه ارتحل من عُمان في شبابه المبكر وهو قد ولد في نحو عام ٢٠ هـ قبله بقليل أو بعد قليل ، وإذا صحّ ذلك فإنه لا بد أن يكون خلال عشر سنوات أو نحوها من اقامته بالبصرة قد حجّ وزار المدينة مرات عديدة وكان جابر ممن شغفوا بالعلم منذ صباهم المبكر ، وكان مشهوراً له بشدة الذكاء ، فها هو أحد معاصريه من العلماء يسأل عنه بعد وفاته ، فيقال له : هل رأيت جابر بن زيد ؟ فيقول : نعم كان لبيباً لبيباً لبيباً وجعل يعجب من فقهه "(٦٦) . ولا شك أن ذلك كله جعل جابر بن زيد يسمع في شبابه المبكر عن عالم المدينة الكبير زيد بن ثابت ، وإذا لم يكن قد أتيح لجابر أن يتتلمذ مباشرة عليه ، فقد تتلمذ على صديق زيد وتلميذه عبدالله بن عباس .

---

(٦٤) انظر طبقات المشايخ بالمغرب لابن عباس الدرجيني ج٢ ص ٢١٣ .

(٦٥) انظر فجر الإسلام لأحمد أمين ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٦٦) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص ٧٢ .

وإلى جانب زيد بن ثابت كان يوجد في المدينة عبدالله بن عمر وهو يمثل منزعاً مكملاً لمنزع الرأى عند زيد بن ثابت ، فابن عمر فيما يقول مؤرخو التشريع - كان أميل إلى الرواية منه إلى الدراية فكان يحفظ الكثير من أحاديث الرسول ﷺ ويرويها ، ويسأل فيفتي بما رأى وبما سمع ولكنه كان يتحرج من استنباط الأحكام والتوسع في الرأى ، وقد عرف جابر ابن عمر معرفة طيبة روى عنه كثير من الأحاديث التى دونها الإمام الربيع بن حبيب في مسنده " الجامع الصحيح " وعرف ابن عمر بدوره جابراً وعرف قدره وأيقن أنه من فقهاء المسلمين ، وأوصاه ابن عمر عندما قابله في الطواف بطريقة الفتوى المثلى كما كان يراها ابن عمر : " يا جابر إنك من فقهاء البصرة وإنك ستستفتى فلا تفتين إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية ، فإنك إن فعلت غير ذلك هلكت وأهلكت "[٦٧]

ومن خلال رحلة العلم المتجددة إلى مكة والمدينة كانت اللقاءات الكثيرة والمثمرة في حياة جابر مع " البحر " وهو اللقب الذى كان يطلقه جابر على " عبدالله بن عباس " رضي الله عنهما وكانت مجالس ابن عباس الزاخرة بالعلم قد عقدت في كثير من الأمصار الإسلامية ، فقد علم بالبصرة وعلم بالمدينة ثم لما كان الخلاف بين عبدالملك بن مروان وعبدالله بن الزبير ذهب إلى مكة وعلم بها ، فكان يجلس في البيت الحرام ويعلم التفسير والحديث والأدب[٦٨] وقد سبق أن قلنا أن جابراً يمكن أن يكون قد التقى بعبدالله بن عباس في فترة ولاية ابن عباس للبصرة من قِبَل علي عام ٣٦ هجرية ، لكن هذا اللقاء إذا كان قد تم فإنه قد زاد من رغبة جابر في تلقي العلم على هذا البحر الفياض ، فقد كان جابر ما يزال في بداية الشباب خلال هذه الأعوام لكن اللقاءات الحقيقية والمؤثرة هي التى تمت خلال رحلات جابر المتتالية إلى الحجاز ، أو خلال المدة التى أقامها في المدينة ، " وقد اثبتت كتب السنة أن أبا الشعثاء خصّص عاماً من حياته مهاجراً ومجاوراً للقبر الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام وقد اتصل خلال ذلك بالعلماء من

---

(٦٧) حلية الأولياء للحافظ الأصفهاني ج٣ ص ٨٦ .

(٦٨) انظر : أحمد أمين فجر الإسلام ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

أهل الحديث والرواية . . واعتبر أسناده من أصح الأسانيد . . وأجمع العلماء على ضبطه وعدالته ، وإنه من أئمة السنة في البصرة "(٦٩)

هذه الرحلات الكثيرة إلى الحجاز وفترات الإقامة الطويلة بها هي التى جعلت جابراً يزداد اقتراباً من ترجمان القرآن عبدالله بن عباس " الذى قال فيه النبي ﷺ : اللّهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل ، والذى كان أكثر الصحابة فتياً على الإطلاق ، حتى أن رواياته بلغت أكثر من ألف وستمائة حديث وكان أوسع الصحابة علماً في فهم القرآن الكريم "(٧٠)

تتلمذ زيد على ابن عباس فأحسن التلمذة واستوعب المعرفة ، وحاز الثقة وأصبح يعد من " أصحاب ابن عباس " يفاخر به ويحيل إليه ويقول : " لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لوسعهم علماً عما في كتاب الله عزوجل "(٧١) .

ويستغرب ابن عباس أحياناً أن يأتيه نفر من البصرة ليستفتوه في بعض الأحكام فيحيلهم إلى الفقيـه الثقة جابر بن زيد ، وفي هذا المجال تشيع رواية عمرو بن علي عن عرعرة بن اليزيد ، عن تميم بن جرير السلمي عن الرباب أنه قال : " سألت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن شيء فقال تسألوني وفيكم جابر بن زيد "(٧٢) ؟

وهي إحالة لها ما لها من الدلالة على ثقة الصحابي الكبير في علم جابر وأهليته للتصدى للفتوى ، وكأن جابراً قد أخذ بذلك الإذن الصراح بالتصدى

---

(٦٩) انظر : مدرسة جابر بن زيد وأثرها في الفقه الإسلامى (بحث مقدم إلى ندوة الفقه الإسلامى بجامعة السلطان قابوس ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م د/يحيى محمد البكوش ص ٢١ .

(٧٠) المرجع السابق ص ٢٠ .

(٧١) ترد هذه الرواية في كثير من المراجع التاريخية ، مثل : حلية الأولياء للحافظ الأصفهاني ج٣ ص ٨٥ وكتاب المعرفة والتاريخ لأبي يوسف البسوى ج٢ ص ٧٢ . وقد وردت فيه العبارة (لو ترك أهل البصرة على قول جابر بن زيد) وواضح أنها تحريف مطبعي وصحتها " لو نزل " .

(٧٢) انظر : الإمام شمس الدين الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٤ ص ٤٨٢ .

للفتيا والشهادة بالتضلع في " الرأى " من كبير أئمة الرأى ، كما أخذ من قبل إذناً صراحاً من كبير أئمة الحديث عبدالله بن عمر فجمع ثقة الشيخين الجليلين رضي الله عنهم أجمعين .

ولم يكن جابر بالنسبة لابن عباس مجرد فقيه عالم متمكن مما يعرض له ، وإنما كان جابر عنده فقيهاً " متميزاً " له منحى في التفكير يعرف به ، وكما يحدث أن نعرف كاتباً متمكناً من خلال أسلوبه وطريقته في الأداء فنقول حين نقرأ جزءاً من أعماله ، هذا الكلام لفلان وإن خلا من التوقيع أو نعرف منحى مفكر معين نميل إليه ، ويحدث أن نسمع فكرة طريفة فيقول أهل المعرفة هذه الفكرة لا بد أن تكون لفلان حتى ولو كانت غفلاً من رسم صاحبها ، حدث شيء قريب من هذا بين ابن عباس وجابر بن زيد .

فقد دخل جابر إلى الكعبة مرة ، فوجد رجلاً يصلي على ظهر الكعبة فصاح هذا المصلي لا قبلة له فلما سمع ابن عباس هذا الرأى ، قال : إن كان جابر بن زيد في شيء من البلد فهذا رأيه "[٧٣]. والدلالة الواضحة لهذا التعليق من ابن عباس أن جابراً عنده بات مألوف الرأى متميز الطريقة في التفكير وإنه أصبح من أصحابه ولعله من أجل هذا صارت صفة "صحبة ابن عباس" من أهم الصفات التى تميز جابراً عند أصحاب دوائر المعارف وكتب التعريفات الموجزة بالرجال فهذه الكتب التى تلجأ إلى التعريف بالعلم في سطور قليلة ، تلجأ عادة إلى أكثر صفات العلم التصاقاً به فتذكرها للدلالة عليه اكتفاء بذكرها عما سواها .

فها هو البستاني في دائرة معارفه يعرف بجابر بن زيد فيقول بعد ذكر نسبه " كان فقيهاً عالماً يفتي أهل البصرة في غيبة الحسن البصرى وفي حضوره وكان من أئمة السنة من أصحاب عبدالله بن عباس "[٧٤]

وها هو خيرالدين الزركلي في كتابه " الأعلام " ينهج نفس المنهج عند التعريف بجابر فيقول بعد ذكر نسبه : " تابعي فقيه من الأئمة من أهل البصرة

---

(٧٣) انظر السير للشماخي ج١ ص ٦٩ .

(٧٤) دائرة معارف البساني ج٢ ص ١٨٨ .

عُمان صحب ابن عباس وكان من بحور العلم "[٧٥] .

على هذا النحو تبدو صحبة ابن عباس أكثر المواطن تألقاً فى رحلة جابر التوثيقية. وعندما توفى ابن عباس في العام الثامن والستين للهجرة كان جابر شيخاً جليلاً في الخمسين أو على مشارفها وكانت شهرته قد ملأت الآفاق واطمأن ابن عباس إلى أنه قد ترك رجلاً لو نزل الناس عند رأيه لأوسعهم علماً ولقد مضت خمس سنوات أخرى قبل أن يرحل عن الدنيا الشيخ الثاني عبدالله بن عمر في العام الثالث والسبعين للهجرة وجابر قد استوى شيخاً جليلاً جمع ثمار مدرسة الرأى ومدرسة الحديث .

وكان لقاء أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها واحداً من أهم اللقاءات التى كان يسعى إليها جابر من خلال رحلاته الحجازية ، فلقد كانت عائشة كنزاً من كنوز الحديث ، تروى الكثير مما حفظته في بيت النبوة وتتحدث عما رأت النبي يفعله ، وكانت تملك بحكم موقعها من رسول الله معرفة دقائق لا يعرفها سواها وخاصة عن الجانب التشريعي المتعلق بالمرأة وبعض دقائق هذا الجانب قد لا يكون من السهل أن تبدأ المرأة بالحديث فيه ، وقد يكون على الفقهاء أن يوجهواهم من الأسئلة ما يرون أن بيان التشريع للناس يحتاج إلى إجابات عليها . وهذا هو ما كان يفعله جابر مع السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، فقد كان يوجه إليها بعض أسئلة فقهية عن حياة الرسول الخاصة في بيته ، بهدف الوصول إلى استخلاص أحكام تتعلق بالطهارة والاستعداد للصلاة وجواز قراءة القرآن وغير ذلك مما تتضمنه أحكام الوضوء والغسل في كتب الفقه ، وكانت رضي الله عنها تتقبل أسئلته وتقول له سل يا بني وإن جبينها يتصبب عرقاً ثم تسأله ممن أنت ؟ فيقول : من أهل المشرق من عُمان ، فتذكر له ثناء الرسول عليهم .

وهو لا يتردد في اللقاء كما تشير بعض المصادر ـ أن يتطرق لموضوع حرب المسلمين بعضهم لبعض ومشاركتها فيه في يوم الجمل ، يقول صاحب كتاب السير

---

(٧٥) الأعلام .. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء تأليف خير الدين الزركلي ج٢ ص ٩١ .

أحمد بن سعيد الشماخي : " دخل جابر وأبو بلال على عائشة فعاتباها على ما كان منها يوم الجمل ، فاستغفرت وتابت ، قال : ودخل جابر عليها فأقبل يسألها عن مسائل لم يسألها أحد عنها . . وإن جبينها ليتصبب عرقاً وهي تقول سل يا بني "[(٧٦)] .

★ ★ ★ ★

كانت الرحلات الحجازية لجابر إذن في جوهرها منهجاً من مناهج طلب العلم عند الأوائل وما تقتضيه المعرفة الدقيقة من الرحلة إلى المنابع أخذاً للأشياء من مصادرها وأصولها حتى لو تطلب ذلك عناء السفر وتحمل المشقة وإنفاق الوقت والجهد والمال .

وكان جابر في ذلك كله رائداً من رواد الصدر الأول؛ حمله الشوق للعلم إلى أن يرحل من عُمان في أقصى شرق الجزيرة إلى البصرة ملتقى العلماء لذلك العصر وها هو يحمله التثبت والاستقصاء إلى أن لا يكف عن الحركة بين البصرة مستقره الجديد ومكة والمدينة منبع العلم ومستقر الصفوة المختارة الباقية من أصحاب رسول الله ﷺ .

وهو يقدم من خلال ذلك نموذجاً لشخصية " العالم " في الصدر الأول ومدى حرصه على " التثبت " في جمع تراث تتناقله الألسن والشفاه في صورة روايات تتسع رقعة الأرض التى تتحرك عليها وتتعرض دائماً خلال هذه الحركة الواسعة لأن يدس عليها ما ليس منها ، ويتطلب هذا التراث مزيداً من يقظة العلماء وفطنتهم وتثبتهم بأنفسهم من صحة ما يحملون ، وأصالة ما ينقلون .

ولقد كان هذا النموذج الذى قدمه جابر بن زيد مع غيره من علماء عصره في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام ، مثلاً احتذى به من جمعوا ذلك التراث حين بدأ العهد يبعد بهم شيئاً فشيئاً عن العصر الأول فظهر التدقيق في " سلاسل الأسناد " التى حملته روايات الحديث على نحو خاص وظهر علم الجرح والتعديل لكي يختبر صدق وصلابة عقيدة من يحمل عنهم الحديث النبوى ، وظهر التمييز

(٧٦) كتاب السير للشماخي ج١ ص ٦٩ .

في سلاسل الأسناد بين الجيد منها والمتوسط والضعيف ، وسميت بعض السلاسل بالسلاسل الذهبية ، ومنها السلسلة التى كان ينتمي إليها جابر بن زيد .[٧٧]

بل إن هذا النهج في التثبت والاستقصاء سرى إلى بقية العلوم التى تدون الثقافة العربية فإذا بالكتب التى تدون المعاجم العربية وتجمع غريب الكلمات وصحيحها من القبائل المتفرقة يعتمد أصحابها على منهج التثبت فيرحلون بأنفسهم إلى البوادى يجمعون الكلمات من أفواه قائليها ثم يصوغونها في روايات تتناقلها الأسانيد جيلاً بعد جيل وتتفاوت بدورها قوة وضعفاً .

وكذلك كان الشأن في جمع كتب الأدب وكتابة طبقات الشعراء وروايات دواوين المتقدمين كانت بدورها تعتمد الطريقة ذاتها من اللجوء إلى التثبت وجمع القصائد في شكل أسانيد ومحاولة اختبار ما يمكن أن يدخل على هذه الأسانيد من وهن أو ضعف أو انتحال .

وكانت كتب التاريخ كذلك معتمدة في رواياتها على السلاسل والأسناد ، وكان مؤلفوها يرحلون لكي يجمعوا الروايات من أفواه من شهد الأحداث أو عاصرها .

وهذا النهج عند جابر بن زيد ومن عاصره ومن أتى بعده ، قد أعطى " للعلم الإسلامي " سمعة رفيعة فهو يفاخر الآن بأن مصادره الأولى كانت على أعلى قدر من " التوثيق ، وإن رواياته صُفِّيَت أولا بأول ، وإن من جمعوه قبل عصر التدوين كانوا يحرصون على انتقاء الكلمات ويرحلون وراءها مهما كلفهم ذلك من مشقة .

وإذا كان جابر قد أسهم في هذه المرحلة من " التوثيق " إسهاماً رائداً فإن هناك مشكلة أخرى كانت تواجه علماء عصره وهي : كيف يطمئنون إلى أن العلم سينتقل منهم إلى الأجيال التالية دون أن يضيع منه شيء ؟ وإذا كانوا هم قد تعبوا حتى جمعوا ما جمعوا ، فكيف يوصلون هذه " الأمانة " إلى من يأتى بعدهم ؟ .

---

(٧٧) انظر : الإمام جابر بن زيد : د/صالح الصوافي ص ٥٤ .

هل سيظل الرواة يتناقلون العلم على اتساعه أذناً عن شفة ؟

- وهل يمكن لذاكرة الرجال أن تحفظ هذا الطوفان من المعرفة ؟ . وإذا حفظته فهل يمكن أن تصل به الألسنة والروايات إلى كل محتاج له في البقاع المختلفة من بلاد الإسلام ؟

وظل السؤال الملح : كيف يمكن أن " نقيد " العلم فلا يضيع . وكان لجابر بن زيد في الإجابة دور رئيسي وفعال ، سوف نعرض له في الصفحات القادمة بإذن الله .

★ ★ ★

جابر وضوابط

تقييد العلم

" التدوين "

عُرف العرب قبل الإسلام بأنهم " أمة أُمية " أى لا تعرف القراءة والكتابة في مجملها وإن كان نفر غير قليل من أفرادها يعرفونها .

وذلك حكم حقيقى على مرحلة تاريخية تركت آثارها على كثير من مظاهر الحضارة العربية بل وما زالت بعض هذه الآثار باقية حتى اليوم .

وليس من الضرورى أن يكون هذا الحكم سلبياً حين تعد قيم الحضارة العربية قبل الإسلام ، ولكنه على أى حال حكم وصفي أكثر منه حكماً تقييمياً، فالكتابة والقراءة في ذاتها وسيلة من وسائل الاتصال البشرى تلجأ إليهما اليد والعين لكي توصل جانباً من الأحاسيس أو المشاعر أو الأفكار لإنسان لا يقع في دائرة عمل وسيلة أخرى من وسائل الاتصال وهي وسيلة الكلام القائمة على الشفة والأذن .

ولا شك أن تاريخ الحضارة يؤكد الأهمية القصوى لطريقتي الاتصال البشرى ، طريقة المشافهة وطريقة المكاتبة أو بما يمكن أن يسمى " الطريقة المباشرة " و "الطريقة غير المباشرة " لكن تاريخ الحضارة في الوقت ذاته يؤكد تعاقب هاتين الطريقتين في الظهور ، تبعاً لحاجة الإنسان في التوصيل والاتساع أو ضيق الدائرة التي يتوجه إليها معبراً عما يجول في عقله أو قلبه من أفكار ومشاعر .

ففي المراحل المبكرة من تطور أى مجتمع تكون حاجاته أكثر محدودية وأقل اتساعاً ومن ثم يكتفي بالتواصل مع الدائرة المحيطة حوله في زمان ومكان معينين ، ويستخدم في سبيل ذلك لغة الإشارة ممزوجة بلغة العبارة ، وهذه المرحلة في الواقع تعد مرحلة وسطاً بين طرائق التعبير عند الكائنات الأخرى التى رزقت وسائل اتصال أقل تنوعاً ، وبين الإنسان الذى يحاول فى مراحل أكثر رقياً أن يحدث التواصل بينه وبين جنسه حتى ولو اختلف المكان أو الزمان ، أى أنه يحاول أن تتسع دائرة التوصيل ، ومن خلالها يتم تبادل الخبرات والقدرات والمعارف والأفكار من أفراد لأفراد آخرين ينتمون إلى جيل واحد أو زمان واحد ولكن تفرقهم أماكن متباعدة ، ويتم كذلك الاتصال بين أفراد ينتمون إلى أجيال متتالية ويتكون من خلال ذلك كله " تراث " ثقافة معينة ولغة معينة وعلى المدى البعيد يتكون

" تراث الإنسانية " والوسيلة التي تضمن قيام هذه المرحلة هي وسيلة " الكتابة والقراءة " .

ولقد عرفت كثير من لغات العالم هذه الوسيلة في التوصيل ولكنها تفاوتت في معرفتها زمنياً فبعضها سبق إليها منذ عصور تاريخية سحيقة وبعضها تأخر في الوصول إليها وبعضها لم يصل إليها بعد .

واللغة العربية تعد وسطاً من هذه الناحية فهي تنتمي في عالم اللغات إلى الأسـرة التي تعرف بأسرة اللغات السامية وإليها تنتمي لغات ولهجات مثل الأكادية والأمهرية والآرامية والعبرية وبعض هذه اللغات قد سبق العربية بزمن طويل إلى معرفة الكتابة " فاللغة الأكادية في أرض النهرين قد دونت منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد وهي بهذا من أقدم اللغات المدونة "(٧٨)

وأخوات العربية في عائلة اللغات السامية ، سجلن سبقاً زمنياً في هذه الناحية عليها ، حيث ترجع آثار العبرية إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، والفينيقية إلى القرن العاشر قبل الميلاد ، والآرامية إلى القرن التاسع قبل الميلاد على حين تتأخر العربية كثيراً فيظهر قسم من نقوشها فيما يسمى الآن بالعربية البائدة أو عربية النقوش في القرن الأول قبل الميلاد وهي عربية كانت تتكلم بها عشائر تسكن شمال الحجاز على مقربة من حدود الآراميين وفي داخل هذه الحدود ولتطرف هذه اللهجات في الشمال وشدة احتكاكها باللغات الآرامية ، وبعدها عن المراكز الأصلية بنجد والحجاز، فقدت كثيراً من مقوماتها وصبغت بالصبغة الآرامية ، وقد بادت هذه اللهجات قبل الإسلام ولم يصل إلينا منها إلا بعض نقوش عثر عليها أخيراً ومن أجل هذا تسمى أحياناً " عربية النقوش "(٧٩)

أما العربية الباقية ، فإن أقدم نصوصها يرجع إلى القرن الخامس الميلادى قبل الإسلام بقليل ، فيما عرف من نصوص النثر والشعر الجاهلي ، التي مثلت شكلاً ناضجاً من أشكال اللغة وصل مشافهة في معظمه ولم يتم تدوينه إلا بعد

---

(٧٨) انظر : مدخل إلى علم اللغة د/محمود فهمي حجازي ص ٨٣ (دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة الطبعة الثانية ١٩٧٨م) .

(٧٩) فقه اللغة : د/علي عبدالواحد وافي (دار نهضة مصر للطبع والنشر) ص ٩٧ ، ٩٨ .

ظهور الإسلام وانتشاره ، على أنه إذا صحّ ذلك بالنسبة لكتابة " الفكر والعلم " الذى لم يصلنا منه شيء مدون عن العرب قبل هذا التاريخ ، فإنه قد يخفف من وقع هذا الحكم قليلاً إثبات حقيقة أخرى . تتصل بالكتابة العربية ، وهي أن الكتابة المتصلة " بالنشاط التجارى " عرفت منذ عهود سحيقة في الجزيرة العربية ووجدت آثار منها على طرق القوافل الشهيرة في الجزيرة العربية حاملة معها آثار نظم الكتابة في اللغات المجاورة وممتزجة سعها لكي تشكل من " حروف الكتابة العربية ، حلقة هامة في تاريخ الكتابة القديمة " .

يقول الأستاذ العقاد عند حديثه عن قدم الثقافة العربية بالقياس إلى الثقافتين اليونانية والعبرية : "ولم يكن من المصادفة المجهولة أن تظهر في لغة العرب خطوط الحرف المسمارى وخطوط الحرف المسند ، وخطوط الحرف النبطي بين شمال الحجاز وجنوب فلسطين ، فإن التجارة التي تحتاج إلى المعاملة الكتابية تجرى على خط المواصلات من خليج العرب إلى عدن إلى العقبة إلى ما جاورها من بلاد الانباط والكنعانيين وهذه هي على التوالي مواطن الخط المسماري والخط المسند النبطي ، وما تفرع عليه " .

وينتهي الأستاذ العقاد بعد سرد طرق المواصلات القديمة البرية والبحرية في جزيرة العرب إلى قوله :

" فإذا استخدم الناس الكتابة في معاملاتهم التجارية فليس في العالم المعمور يومئذ موقع أولى باستخدامها من البلاد العربية "(٨٠) .

وطبيعي أن يقود هذا النوع من استخدام الكتابة في الأزمنة السحيقة إلى أن تنتقل الحروف العربية لتشكل أساساً من أسس الكتابة القديمة وأن تنتقل معها كلمة "الألفبائية " وهي مشتقة من الحرفين الأول والثاني في الكتابة العربية ، لتصبح علماً على كلمة الأبجدية في معظم اللغات وهي كذلك حتى اليوم ، وإذا كانت الكتابة اليونانية هي أقدم الكتابات في لغات أوروبا فإن ابجديتها تسمى حتى اليوم " ألفابيتا " .

---

(٨٠) الثقافة العربية ، للعقاد ، المجموعة الكاملة للعقاد ، دار الكتاب اللبناني ص ١٥٥ .

وذلك يرجح ما يذهب إليه بعض الباحثين من وجود صلة حميمة بين الكتابتين العربية واليونانية وهو ما يلخصه العقاد بقوله : " وكيفما اختلفت الأقوال عن مصادر النقل والاقتباس فلا خلاف في أمرين أحدهما أن الأبجدية اليونانية منقولة عن أبجدية سبقتها وأن هذه الأبجدية السابقة هي الأبجدية العربية التي تدل عليها ألفاظ حروفها وأشكالها ومعانيها "(٨١)

على أن هذا النوع من المعرفة البعيدة لحروف الكتابة لم يترك آثاره التدوينية في مجال الفكر والأدب والعلم عند العرب ـ فيما وصل إلينا ـ حتى مشارف الإسلام فلم يترك لنا العرب آثاراً علمية أو أدبية عن طريق التدوين وإنما كل ما تركوه كان عن طريق المشافهة ولم تتناقل الأخبار عن وجود مكتبه في الجزيرة العربية في فترة ما قبل البعثة المحمدية على النحو الذى تناقلته عن مكتبة الاسكندرية أو عن غيرها من مكتبات العالم القديم .

وفيما عدا مشاهير قصائد الشعر الجاهلي وبعض الخطب والأمثال والحكم لم يوجد " كتاب مؤلف " في العصر الجاهلي تناقلته الأجيال من بعد أو أشارت إليه ، وكل ما كان يوجد من كتب كان في الغالب نسخ من الإنجيل أو التوراة ، توجد عند نصارى الجزيرة أو يهودها أو كتب قليلة في الطب والحكمة عند المشتغلين بها أو كتب خاصة يرجع إليها الكهنة والمنجمون .

وينبغي التأكيد على أن عدم وجود الكتاب لا يعني عدم وجود المعرفة في ذاتها ، وبل لا يعني عدم وجود الكتابة في درجة من درجاتها ، فلقد كانت هناك معرفة دون شك تتناسب مع العصر ولكنها كانت تعتمد على طريقة المشافهة والرواية غالباً وكانت هناك كتابة في درجة من درجاتها ولكنها كانت أكثر استخداماً في مجال التجارة والمصالح السائرة منها في مجال العلوم ونقل المعرفة .

عندما جاء الإسلام إذن كان العرب قليلي الألفة بالكتابة وقليلي الاعتماد عليها كوسيلة من وسائل المعرفة ومن هنا فقد كان جل اعتمادهم على الوسيلة الأخرى من وسائل التوصيل وهي وسيلة " المشافهة " ينقلون من خلالها النشاط

(٨١) انظر فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٧١ نقلاً عن أحمد أمين . فجر الإسلام ص ١٤١ .

الكلامي العادى للحياة ثم وسيلة " الذاكرة " يدونون عليها الآثار التى يراد منها أن تتخطى حاجز المكان أو الزمان فتنتقل من بيئة إلى بيئة أخرى أو تنتقل من جيل إلى جيل ، ولقد كان ذلك يحدث مع الشعر على نحو خاص ، وفي غياب " الصحيفة " وسيلة التدوين في عالم الكتابة كان يوجد " الراوى " ذاكرة الشاعر والقبيلة يحفظ القصائد وقد يتخصص في شاعر معين أو شعراء قبيلة بعينها وهو من خلال ذاكرته تلك يوسع دائرة الاتصال الشفوى فينتقل بالقصيدة من مكان إلى مكان أو يوسع الدائرة الزمانية فيحفظ القصيدة آخرون على يديه .

كانت وسيلة الصوت والأذن هي الوسيلة الغالبة أو المثلى التى يمكن من خلالها أن تنتقل أشياء ذات قيمة من مكان إلى مكان ، ومن زمان إلى زمان أو كانت هي وسيلة " التدوين " السائدة قبل الإسلام ولنلاحظ أن شعر الجاهلية نفسه لم يدون كتابياً في مجمله إلا بعد الإسلام، على أن هناك ملاحظة أخرى تستحق الاهتمام في هذا المجال ، وهي أنه رغم ظهور " الكتابة " العربية في القرن الخامس الميلادى فإنها لم تتحول سريعاً إلى وسيلة " مستقلة " للتوصيل ، بمعنى أن تصبح الحروف والرموز الكتابية معبرة تعبيراً مباشر عن الرموز الصوتية التى تشتمل عليها اللغة ، دون لبس أو إبهام ودون حاجة إلى معونة الوسيلة القديمة للتوصيل التي كانت سائدة قبل التوصل إلى الكتابة وهي وسيلة " الصوت الشفوى " .

ولتوضيح ذلك ، لا بد أن نتذكر أن الكتابة العربية بدأت ـ وظلت حتى عهد جابر بن زيد موضع حديثنا ـ خالية من رموز أساسية في الكتابة ـ اهتدى إليها العلماء العرب فيما بعد مثل وضع النقط مع الحروف واستخدام الحركات الطويلة مثل الألف والواو والياء ، ومعنى ذلك أنه عندما كان يكتب العربي حتى بعد التوصل إلى الكتابة كلمة مثل (كتب) فإنه كان يكتب كافاً (دون أن يضع عليها أن نوع من الحركات الطويلة والقصيرة) وتاء (دون أن يضع عليها أى نقط) وباء (دون أن يضع عليها أى نقط) فإذا ما نظر الإنسان إلى هذه الحروف الثلاثة وقد وضعت إلى جوار بعضها البعض على رقعة أو قرطاس ، فإنه لا يستطيع أن يدرك منها مباشرة المعنى المقصود إلا إذا استعان بالوسيلة الأولى وهي الصوت ،

أى إلا إذا قرأ له كاتب الكلمة أو فاهمها ما يراد بها ، أو قاده السياق إليها لأن الحروف الثلاثة بهذه الطريقة تحمل إمكانيات كثيرة للنطق ، فالكاف في هذا النظام يحتمل أن تنطق مفتوحة أو مكسورة أو مضمومة ، مقترنة بألف ، أو بياء ، أو بواو ، أما التاء والباء فمشكلتهما أكبر فإلى جانب احتمال قبول كل منهما للنطق بالحركات الست التى أشرنا إليها فإن كل حرف منهما من خلال خلوه من النقط يحتمل أن ينطق باء أو ياء أو تاء أو ثاء أو نوناً ، ومعنى هذا أن كل حرف منهما يحمل خمس إمكانيات عقلية من حيث النقط وست إمكانيات من حيث الحركات أى أنه يحمل ثلاثين إمكانية للنطق ، فإذا تصورنا الآن أنه حسب نظام الكتابة القديمة التى سادت حتى عصر جابر ، كانت كلمة (كىب) تحمل ست إمكانيات لنطق الكاف وثلاثين لنطق الحرف الثاني ، وثلاثين لنطق الحرف الثالث أى أن الحروف الثلاثة للكلمة تحمل ستاً وستين إمكانية صوتية حتى وإن كان بعضها غير وارد لغوياً ، إذا تصورنا هذا أدركنا معنى أن الكتابة كانت ما تزال حتى ذلك العصر " طريقة حديثة " وأيضاً " غير مستقلة " عن طريق الصوت ، فالصوت وحده هو الذى يحدد إذا كان المقصود كاتب (فعل ماضي بفتح الباء ، أو اسم فاعل بكسر التاء وضم الباء) أو " كوتب " مبنى للمجهول أو كُتِب مبني للمعلوم ، أو كتب مبنى للمجهول ، أو كتاب اسم مفرد أو كتب جمع لكتاب أو كاتب فعل أمر من المكاتبة وكذلك الأمر لو تصورنا أن الحرف الثاني والثالث هو الباء وتحدثنا عن كثب . . الخ .

هذا النوع من الاحتمالات والارتباكات ربما يفسر لنا سر التردد الذى جابه العرب الكتابة به عندما جاءهم الإسلام وسر وجود قلة منهم كانت تعرف القراءة والكتابة أو تعرف القراءة دون الكتابة سواء في الجاهلية كما كان المؤرخون يقولون[٨٢] : " وكانت الكتابة في العرب قليلة " أو في الإسلام فقد جاء في الآثار أنه لما جاء الإسلام كان في قريش سبعة عشر رجلاً يكتبون وهم : عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح وطلحة بن عبيدالله، ويزيد بن أبي سفيان وأبو حذيفة بن عتبة بن أبي ربيعة وحاطب

(٨٢) انظر فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٧١ نقلاً عن احمد امين . فجر الإسلام ص ١٤١ .

بن عمرو وأبو سلمة بن عبدالله المخزومي وابان بن سعيد بن العاص ابن أمية ، وأخوه خالد بن سعيد ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح العامرى وحويطب بن عبد العزى العامرى وأبو سفيان بن حرب ، ومعاوية بن أبي سفيان وجهيم بن الصلت والعلاء بن الحضرمي "(٨٣) .

وكان بعض النساء يكتبن كحفصة وأم كلثوم من زوجات النبي ﷺ وكانت عائشة وأم سلمة تقرآن ولا تكتبان(٨٤) ولم يكن كل من يكتب يحسن الكتابة بل كان يبذل وقتاً طويلاً في عدد من الأسطر ينكب عليها فلا يفرغ منها إلا وقد أفرغ جهده معها "(٨٥) .

لكن الإسلام حرص على أن يحول الكتابة من عادة يتردد العرب في قبولها ولا يحكمون رموزها، إلى وسيلة حضارية لنقل العلم والارتقاء ببني البشر ، وغني عن القول الإشارة إلى الأثر الكبير لكون أول آية نزلت في القرآن الكريم هي " **اقرأ باسم ربك الذى خلق** " وإلى أن يكون من أوائل ما نزل كذلك القسم بالقلم : " **ن والقلم وما يسطرون** " وأن يساوى الرسول ﷺ بين حرية الإنسان من أسر الحرب وحريته من أسر الجهل فيجعل من فدية أسارى قريش في غزوة بدر أن يعلم الأسير عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة فَيُفَكّ من أسره كما فكهم من أسر الأمية .

وأن يخصص القرآن واحدة من أطول آياته للحديث عن أهمية تدوين وكتابة المعاملات الهامة في قوله تعالى : " **يا أيها الذين ءامنوا إذا تداينتم بدَين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأْب كاتب أن يكتب كما علّمه الله فليكتب ولْيُملل الذى عليه الحق ولْيتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا** " .

وقوله تعالى فى الآية نفسها " **ولا تسئموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى**

---

(٨٣) المرجع السابق .

(٨٤) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ج٦ ص ٢٦ .

(٨٥) انظر : يوسف العشى : مقدمة كتاب تقييد العلم للخطيب البغدادى (دمشق ١٩٤٩ م ص ١٨) .

أجله ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يُضار كاتب ولا شهيد "[86]

وترديد مادة الكتابة تسع مرات في آية واحدة له دلالة واضحة في سلم الانتقال من عادة المشافهة وحدها إلى عادة التثبيت بالكتابة التى كان من الضرورى التأهب لها والتعود عليها قبل حمل المسلمين لمسئوليتهم الكبرى في نقل العلم والهداية إلى العالم .

لكن صراعاً كبيراً جرى في نفوس المسلمين خلال القرن الأول الهجرى قبل أن يقدم أحدهم (وهو جابر بن زيد في غالب الظن) على تدوين أول كتاب في تاريخ العلم عند المسلمين ولقد كان لهذا الصراع أسبابه القوية ودوافعه التى كانت تهدف إلى المحافظة على قيم أخرى ثمينة في مقدمتها المحافظة على القرآن الكريم ويمكن أن تقسم درجات الصراع ومن ثم درجات تطور الكتابة إلى ثلاث مراحل رئيسية في هذا العصر :

المرحلة الأولى : مرحلة التقييد .
المرحلة الثانية : مرحلة التدوين .
المرحلة الثالثة : مرحلة التأليف .

وستتبع خطوات هذه المراحل لنرى أهمية الدور الذى قام به جابر بن زيد في المرحلة الثانية على نحو خاص .

المرحلة الأولى : التقييد :

وهي مرحلة برزت في خدمة القرآن الكريم أولاً حيث كان الحرص على أن يقوم " كتبة الوحي بتقييد ما يسمعونه من رسول الله ﷺ أولاً بأول إلى جانب حفظه في صدور الرجال وإلى جانب عرضه على الرسول وتذاكره مع المسلمين ، وقد بلغ المسلمون الأوائل مبلغاً من الدقة الفائقة في تقييد القرآن لم تبلغه أى ديانة

---

(٨٦) البقـرة آية ٢٨٢ .

أخرى في تاريخ الديانات(٨٧) . وشهدت الدراسات العلمية الحديثة المجردة في هذا الشأن بأن توثيق القرآن لا نظير له في كل الكتب المقدسة ولا يتطرق إليه الشك من أى زاوية من زواياه في نظر هذه الدراسات .

ولكي تبلغ دقة التقييد للقرآن هذه الدرجة التى بلغتها كان حرص المسلمين الأوائل على ألا يقيدوا معه شيئاً آخر كانوا يريدون أن تنصرف الجهود التقيدية كلها لهذا الهدف النبيل وحده وألا يكتب إلى جانبه شيء قد يظن في أى مرحلة من المراحل أنه منه وهو ليس منه .

وكانت القضية التى واجهتهم في هذا الصدد هي قضية " الحديث النبوي " فهم يعلمون جيداً مكانة الحديث من التشريع ويقبلون في اصغاء على أقوال صاحب الدعوة ﷺ وأفعاله وتقريراته ، فيعونها ويتناقلونها ويفسرو بها ما غمض عليهم ويسترشدون بها في سائر أمورهم ويحرصون على التواصل بينهم في هذا الشأن فمن بلغه حديث أو هدى حمله إلى من لم يبلغه ، ومن الطبيعي أن تعرض لهم في هذه الظروف فكرة " تقييـد " الحديث لئلا ينسوه ، فيطرحون السؤال على النبي ﷺ وتكون الإجابة فيما يروى عن أبي هريرة قال : " بلغ رسول الله أن ناساً قد كتبوا حديثه فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما هذه الكتب التي بلغني أنكم قد كتبتم إنما أنابشر،من كان عنده منها شيء فليأت به فجمعناها فأخرجت، ، فقلنا يا رسول الله نتحدث عنك ؟ قال تحدثوا عني ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوا مقعده من النار "(٨٨)

ومن هذا المنطلق شاعت عبارة شهيرة عند بعض الصحابة رضوان الله عليهم حين كانوا يقولون : " نحن لا نكتب ولا نكتم " . وكان من شأن هذا المبدأ أن يمنع أن تخط الأيدى أى شيء غير كتاب الله لئلا تتسرب صحيفة هنا أو هناك

(٨٧) انظر على سبيل المثال الفصل الذى عقده الإمام ابن حزم الظاهرى بعنوان " كيف تم نقل القرآن وأمور الدين " في كتابه ، الفصل في الملل والأهواء والنحل (تحقيق الدكتور محمد ابراهيم نصر والدكتور عبدالرحمن عميره) " دار عكا للنشر والتوزيع ج٢ ص ٢١٩ وما بعدها .

(٨٨) انظر حول هذا الحديث وأسانيده المختلفة : كتاب تقييد العلم للخطيب البغدادى ، تحقيق يوسف العشى (دمشق ١٩٤٩م ص ٣٢ وما بعدها) .

فيظن مع طول العهد أنها من القرآن وليست منه ، لكن الرسول الله ﷺ كان يسمح في حالات الضرورة أو في اللبس بكتابة أحاديثه وها هي رواية أبي هريرة أيضاً :
" إن رجلاً من الأنصار كان يجلس إلى رسول الله (ص) فيسمع منه الحديث يعجبه ولا يقدر على حفظه فشكا ذلك إلى النبي (ص) فقال " استعن بيمينك "(٨٩) . وإذا كانت رخصة ضعف الذاكرة هي التى دفعت الأنصارى إلى طلب الكتابة فإن كثيراً من أبناء العصر بدأوا يرون أن ذاكرتهم لا يمكن أن تقوى على حفظ فيض العلم الذى جاء مع الإسلام والذى لا يكتفى فيه بالمعرفة التقريبية وإنما لا بد من الضبط والتدقيق وهم يعتقدون أن " الكتابة " كفيلة بأن تحقق لهم ذلك لكنهم يخافون من محاذير أخرى مثل ضياع ملكة الحفظ وهي الملكة التى تمتعت بها العقلية العربية خلال قرون طويلة ، ونقلت من خلالها تراث الأدب القديم ولم تكن هذه الملكة بالتأكيد متاحة لكل الناس وإنما كانت تظهر في أعيان ، الحفظة والرواة ويدربون أنفسهم عليها حتى تستقيم لهم ، وهي لا شك بالنسبة لهم موضع اعتزاز وتميز فإذا ما حلت الكتابة محل الحفظ وأصبح العلم يستودع في القراطيس والصحف فإن ذلك يهدد بمخاطر خاف منها الحفظة والعلماء لذلك العصر ، : منها أن تعتمد الذاكرة على القرطاس فيتسرب إليها الضعف شيئاً فشيئاً ومعلوم أن المواهب البشرية حين تهمل تضيع ، وإذا ضاعت ملكة الحفظ العربية فقد ضاع شيء ثمين يتعلق بعلم القلوب وهو مقدم عندهم على علم القراطيس ولقد عبر عن هذه الحقيقة فيما بعد الخطيب البغدادى حين قال :
" إن الله سبحانه جعل للعلوم محلين أحدهما القلوب والآخر الكتب المدونة فمن أوتي سمعاً واعياً ، وقلباً حافظاً فذاك الذى علت درجته وعظمت في العلم منزلته ، وعلى حفظه معوله ومن عجز عن الحفظ قلبه فخط علمه وكتبه كان ذلك تقييد أمنه إذ كتابه أمن عنده من قلبه لما يعرض للقلوب من النسيان وتتقسم الأفكار من طوارق الحدثان "(٩٠)

---

(٨٩) المرجع السابق ص ٦٧ .
(٩٠) تقييد العلم ص ٢٨ .

ومن هنا فقد شاعت في ذلك العصر المبكر عبارات مثل تلك التى تنسب إلى سفيان الثورى " بئس المستودع العلم القراطيس " وشاع التقليل من شأن الصحف والصحافي الذى يكون كل اعتماده على أوراق يرجع إليها وينبغي أن نتذكر أن الكتابة في ذلك العصر لم يكن قد اكتمل نظامها بالنقط والشكل فكانت القراطيس في ذاتها مدعاة للاضطراب إذا خلت من ذاكرة تساندها .

ولعل ذلك هو الذى دفع بعض الصحابة والتابعين ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ إلى اللجوء إلى حل وسط يجمع بين الذاكرة والكتابة وذلك بلجوئهم إلى كتابة ما يريدون حفظه عند سماعه من مصدره والرجوع إلى ما كتبوه وتكراره حتى يحفظوه فإذا ما حفظوه محوه من الصحف اعتماداً على أنه تعلق بالذاكرة فلا ينسى. وفي هذا الإطار نستطيع أن نفسر الروايات التى يوردها الخطيب البغدادى في هذا لشأن كتلك التى يوردها عن عكرمة في وصف طريقة تلقي العلم في المجالس الأولى : قال عكرمة " كنا نأتي الأعرج ويأتيه ابن شهاب قال فنكتب ولا يكتب ابن شهاب قال فربما كان الحديث فيه طول قال فيأخذ ابن شهاب ورقة من ورق الأعرج ـ وكان الأعرج يكتب المصاحف ـ فيكتب ابن شهاب ذلك الحديث في تلك القطعة ثم يقرأه ثم يمحوه مكانه وربما قام بها معه فيقرأها ثم يمحوها "[٩١]

وكانت تلك مرحلة وسطاً للاستفادة من مزايا الذاكرة والكتابة في آن واحد وهي في الوقت نفسه تمثل حلقة من حلقات الصراع الذى اعتمل في النفس العربية في صدر الإسلام بين اللجوء إلى الكتابة أو إمكانية الاستغناء عنها ، لكن ذلك الحل لم يدم طويلاً لأن الجيل الذى لجأ إليه اكتشف أن الذاكرة تقوى على استيعاب ما محته زمناً فإذا جاءت الشيخوخة فإن الذاكرة تفرط في كثير مما كانت قد احتفظت به وهنا يندم بعض الذين محوا ويتمنون أن لو كانوا احتفظوا بما كتبوا ولم يفرطوا فيه بالمحو "[٩٢]

---

(٩١) تقييد العلم ص ٥٩ .

(٩٢) انظر المرجع السابق ص ٦٠

ودفعت هذه العوامل التابعين إلى الاقتراب شيئاً فشيئاً من الكتابة والاعتماد عليها في تقييد العلم وعدم إفلاته من الذاكرة وشجعهم على ذلك دون شك زوال المخاوف الكبرى من اللبس بجمع القرآن في عهد أبي بكر ، وتوحيد المصحف في عهد عثمان وهذه المرحلة الثانية تمت في طفولة جابر بن زيد كما أشرنا من قبل وبهذا فقد أمن اللبس وأصبح المصحف المطروح في كل الأمصار موحداً ووعته آلاف الصدور وتردده ملايين الألسنة كل يوم وذلك الإطمئنان نفسه قاد إلى الحرص على المصدر الثاني للتشريع وهو السنة ومحاولة تقييدها خاصة بعد أن كثرت الروايات عن صحابة أجلاء كانت لهم صحف مكتوبة في السنة مثل رواية بعض التابعين " كنا إذا أتينا أنس بن مالك وكثرنا أخرج إليا مجال[٩٣] من كتب فقال هذه كتب سمعتها من رسول الله (ص) وقرأناها عليه "[٩٤] .

وأنس نفسه هو الذى ينسب إليه قوله " كنا لا نعد علم من لم يكتب علمه علماً " . ولعل ذلك يفسر موجة التطور الذى حدثت عند التابعين ومهدت للانتقال من مرحلة التقييد إلى مرحلة التدوين التى كان جابر ممثلاً لها . وقد تمثلت هذه الموجه في الحرص على التقييد رغم قلة الوسائل المتاحة فلم يكن ما يقيد عليه متوافراً دائماً ولم تكن الأوراق والأفلام في متناول أيدى العلماء دون مشقة لكنه الحرص على العلم وتزايد الاعتقاد بجدوى النقييد وابتعاد مخاوف المخاطر التى تترتب عليه .

والذى ينظر في وسائل التقييد التى لجأ إليها المسلمون في ذلك العصر يدرك إلى أى مدى وصل حرصهم على أن لا يفلت منهم أى قدر من العلم الذى أفاء الله به عليهم فها هو الشعبي يوصي من يتلون عنه العلم فيقول : " إذا سمعتم شيئاً مني فاكتبوه ولو في حائط " وها هو سعيد بن جبير يقول : " كان ابن عباس يملي علي في الصحيفة حتى أملأها وأكتب في نعلي حتى أملأها ثم أكتب في كفي. وهو الدى يقول في رواية أخرى كنت أسمع من ابن عمر وابن عباس الحديث بالليل فأكتبه في واسطة رحلي حتى أصبح وأنسخه "[٩٥]

---

(٩٣) جمع مجلة وهي الصحيفة .

(٩٤) تقييد العلم ص ٩٥ .

(٩٥) المرجع السابق ص ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، وصفحات أخرى متفرقة .

فالكتابة على الحائط والنعل والكف وواسطة الرحل[٩٦] تسجل تطور هاماً في النظر إلى التقييد وفائدته ومدى مساعدته للذاكرة الوسيلة العربية الرئيسية في فترة ما قبل شيوع الكتابة أو حلوله محلها شيئاً فشيئاً . لكن التقييد إذا كان يساعد الذاكرة أو يحل محلها فإنه يصنع ذلك حتى هذه الفترة ـ ف إطار خدمة صاحب العلم نفسه وليس ف إطار توصيل العلم إلى الآخرين فما تزال الوسيلة الرئيسية في نقل العلم للآخرين هي أن يتم تلقي العلم أذناً عن فم ، وأن تتصل الرواية فيأخذ الرجل عن رحل لا عن قرطاس .

ولقد كانت مخاوف كثير من العلماء في ذلك الوقت تكمن في الخشية من أن يؤدى شيوع الكتابة ، كوسيلة في تلقي العلم تحل محل التلقي المباشر ، إلى مخاطر كثيرة ؛ منها أن يظن بعض الناس أنه يكفي لتلقي العلم أن ينظر الإنسان في صحيفة مكتوبة دون أن يجلس إلى عالم ، ومن ثم يعرض نفسه لمخاطر التحريف والتصحيف وهي كثيرة احتمال الورود في طريقة الكتابة القديمة الخالية من النقط والشكل وقد سبق أن قلنا أن كلمة مكتوبة واحدة مكونة من ثلاثة أحرف يمكن أن تحمل أكثر من ستين إمكانية للنطق على أن المخاطر المتخوف منها لا تقف عند حد التحريف والتصحيف فحسب وإنما تمتد إلى تأويل المعنى المطلوب وراء المصطلحات والعبارات ، وهو تأويل لا يدركه إلا من تمرس بالعلم سماعاً ومناقشة وتعمقاً وإدراكاً وهي كلها حوانب لم يكن من المتصور أن بكون في قدرة الصحيفة المكتوبة حملها إلى قارئها يومئذ .

ويمكن أن تمتد المخاطر في نفوس العلماء لذلك العصر إلى الخوف من أن يتصدى للعلم والفتيا من ليس أهلاً له ، انطلاقاً من قراءة بعض الصحف والظن بتحصيل العلم ، وهذا التخوف في مجمله هو ما أطلق عليه الأوائل عبارة " الخوف من صيران العلم إلى غير أهله " ومن أجل هذا كان فريق منهم يلجأ إلى وسائل يمكن أن نفهمها في إطار هذا التخوف ، فقد كان بعضهم إذا حضرته الوفاة

---

(٩٦) يبالغ بعض الشعراء في الحرص على الكتابة بأية وسيلة عندما يطالب بأن يكتب الإنسان ولو بخنجر على حدقه فيقول :

يـا طـالب العلم إذا	سمـعتـه مـن الثقـة
فـاكتبـه محـتاطاً ولـو	بخنجـر في حـدقـة

يأمر بإحراق كتبه وكان بعضهم يأمر بمحوها ويعبر عن مخاوفة التى دعته إلى ذلك كما جاء في رواية النعمان بن قيس قال : " دعا عبيدة بكتبه عند موته فمحاها ، وقال : أخشى أن يليها أحد بعدى فيضعوها في غير مواضعها " .

وبعض منهم كان يرى أن يبقى ما كتبه بعد موته إن وجد من يعرف قيمة هذا العلم ، وإلا فلتمح كما كانت وصية أبي قلابة عند موته : " ادفعوا كتبى إلى أيوب إن كان حياً وإلا فاحرقوها " .

وآخرون كانوا يرون أن تدفن كتبهم بعد موتهم كما روى عن شعبة أنه قال في وصية لابنه : " يا بني إذا أنا مت فاغسل كتبي وأدفنها ، قال الابن فلما مات غسلت كتبه ، ودفنتها "(٩٧)

ان كل هذا التحوط كان يدفع اليه ما قلناه من الخوف من صيرورة العلم إلى غير اهله ليس ضنا عليهم به وليس كتمانا للعلم، فكل تلك مبادىء سبقت فيها توجيهات الإسلام بشأن العلم وحفظه ونشره ولا مجال للمخالفة فيها وانما كان ذلك كله خوفا على العلم من ان يساء فهمه ونقله، وعدم ثقة في ان تؤدى وسيلة نقل المعرفة الجديدة وهي الكتابة ماكانت تؤدى الوسيلة القديمة وهي المشافهة على ما بالكتابة من نقص في النقط والتشكيل كان لايزال سائداً .

وكتب الادب العربى تروى طرائف كثيرة عن اللبس الذى كان يقود اليه خلو الحروف من النقط والتشكيل والتباس بعضها ببعض في هذه الفترة ومن امثلة ذلك ان عجوزا جاءت الـــى الشاعر الفرزدق وقالت له : اني استجرت بقبر أبيك. فقال لها : ما شأنك ؟ قالت ان تميم بن زيد خرج بابني ولاقرة لعيني ولاكاسب علي سواه، فقال : وما اسم ابنك ؟ قالت : خنيس . فكتب الفرزدق الى تميم :

تميم بن زيـد لاتكونن حـاجتي بظهـر فلا يعيـا علـي جـوابهـا
وهب لي "خنيساً" واحتسب فيه منة لـعبـرة أم لايســوغ شرابـهـا

فقرأ تميم الرقعة لكنه لم يستطع ان يميز اسم الفتي المطلوب لان اسمه مكتوب

---

(٩٧) انظر الفصل الثالث من القسم الثاني في كتاب الخطيب البغدادى الذى سبقت الإشارة إليه .

بدون نقط، وتساءل هل هو : حنبش أو حبيش، او خنيس، او خبيش أو حبيس او جنيش، واخيرا انتقى كل من يمكن ان يطلق اسمه على واحدة من هذه الصيغ فكانوا ستة رجال، فأطلقهم جميعا استجابة لرقعة الشاعر الاموى " الفرزدق "(٩٨).

ولقد مات الفرزدق بالبصرة في عام ١١٠ هـ وقد شارف المائة، اى انه كان معاصرا لجابر بن زيد الذى توفي عام ٩٣ هـ في ارجح الاقوال، ومعنى ذلك ان مشكلة اللبس في حروف الكتابة العربية وما يؤدى اليه هذااللبس من تقليل الاعتماد عليها كانت شاغل هذا الجيل ومصدر قلق علمائه على نحو خاص .

لكن من الانصاف ان يقال كذلك ان علماء هذا الجيل ـ ومن بينهم جابر ـ هم الذين حسموا هذه المشكلة ونجحوا في نقل الفكر العربي من مرحلة المشافهة إلى مرحلة التدوين، وتلك نقله حضارية هائلة في تاريخ العلم العربي يمكن ان ندرك ابعادها اذا تتبعنا مايقال حولنا في عالم اليوم من الانتقال من عصر التدوين التقليدى الى عصر التدوين بالكمبيوتر .

ولقد تمت مجهودات علماء عصر جابر بن زيد في حل مشكلة " التدوين " من زواياها اللغوية والدينيه في اوقات متقاربة واماكن متقاربة ولعل معظمها تم قريبا من سمع جابر وبصره مما مهد له بأن يتخذ الخطوة الحاسمة التي اتخذها بأن يكون اول من دونا ديوانا في تاريخ العلم العربي على ما تذهب اليه معظم الاراء .

كانت مجهودات أبي الاسود الدؤلي المتوفي عام ٦٩هـ الخطوة الاولى والتي تمثلت في تشكيل الحروف، ولكن ليس من خلال وضع الكسرة والضمة والفتحة كما نعهد اليوم وانما من خلال النقط وكانت وسيلة أبي الاسود التي لجأ إليها هي ان يقرأ وأمامه غلامة وفي يده القلم ويقول له : اذا فتحت فمي بالحرف

---

(٩٨) انظر : تاريخ الأدب العربي : أحمد حسن الزيات ص ٢٠٧ ، وانظر في صيغ الأعلام الجاهلية واحتمالاتها " كتاب " الأعلام الجاهلية : دراسة في البنية اللغوية ، د/عاطف مدكور .

فضع نقطة فوقه، فاذا كسرت فمي بالحرف فضع نقطة أسفله، فاذا ضممتها بالحرف فضع نقطة مما يليه [٩٩] .

وكان السبب الدافع الى ذلك ـ كما هو معروف ـ فزع علماء العصر وحكامه من سريان بعض اللحن في القرآن على ألسنة بعض العامة أو المستعربين مما دفع ابا الاسود الى التفكير في ضبط نطق الحروف عن طريق النقط، وهي طريقة في الضبط سوف تغير فيما بعد على يد الخليل بن أحمد الفراهيدى الازدى (الذى يمر بنفس التجربة العلمية التي مر بها جابر في انتقاله من عمان الى البصرة) وسوف يضع الخليل الفتحة والكسرة والضمة كما تعهدها الكتابة العربية اليوم .

أما الخطوة الثانية والتي تمت في حياة جابر ايضا في سبيل تذليل عقبات الكتابة، فقد تمت على يد نصر بن عاصم المتوفي عام ٨٩هـ قبل وفاة جابر بقليل وفي العراق حيث كان يعيش جابر، فقد حاول نصر ان يفرق بين الحروف المتشابهة كالباء والتاء والثاء والنون والياء والتي كانت تخلو جميعها من الحروف، بوضع الحروف المميزة التي ادى غيابها الى غموض شعر الفرزدق كما رأينا ـ ولقد أحدث وجود النقط المميزة للحروف الى جانب النقط المميزة للتشكيل والتي كان قد وضعها أبو الاسود الدؤلي احدث هذا في البداية نوعا من الصعوبة في التمييز، لأنك لو وضعت فوق الفاء المفتوحة نقطة للفتحة ونقطة للحرف لاصبحت الفاء قافا ومن اجل هذا أوصى نصر بن عاصم بان يستخدم لونان من المداد احدهما لنقط الشكل والاخر لنقط الاعجام ، ولكن الخليل بن احمد فك هذا الاشتباك كما أشرنا بتحويل نقط الشكل الى الفتحة والكسرة والضمة .

كان مجهود هذين العالمين، أبي الاسود الدؤلي ونصر بن عاصم ذا اثر بالغ في دفع كثير من دواعي الالتباس التي كانت تحيط بالحروف العربية وتدفع على الخوف من اتخاذها وسيلة لتوصيل المعرفة دون خطأ أو خلط ولاشك ان ذلك كله ساعد جابر بن زيد على ان ينتقل بالكتابة في تاريخ العلم من مرحلة " التقييد " الى مرحلة التدوين . فكيف سارت خطواته في هذا الطريق ؟

---

(٩٩) انظر : علم اللغة العام ـ الأصوات ـ د . كمال محمد بشر . دار المعارف . القاهرة . ١٩٧٣ ، ص ١٤٥ .

مرحلة التدوين :ـ

الطريق الذى سارت فيه رحلة الكتابة حتى بلغت مرحلة التقييد تركت آثارها في المناقشات المستفيضة بين جماعة المسلمين وبين العلماء منهم خاصة، واصبح الناس في بعض المراحل فرقا بعضها ينتصر للكتابة وبعضها ينتصر ضدها، واذا كنا قد راينا كيف كانت فرق من العلماء تذم علم القراطيس وفرق اخرى تدعو للكتابة على الحوائط والنعال والاكف، فلقد تابع هؤلاء اناس وتابع اولئك اناس آخرون .

ومن المعروف في تاريخ الفكر العربي الاسلامي لتلك الفترة ان كثيرا من اوجه التحزب والتعصب قد تجمعت في المدينتين المتجاورتين البصرة والكوفة، فأصبح البصريون يتعصبون لشيء ويتعصب الكوفيون لما يقابله، وما تزال كتب النحاه على سبيل المثال ممتلئة بآراء البصرين التي تقابل آراء الكوفيين في كثير من مسائل اللغة وتأويلاتها .

ولم تكن خلافات البصريين والكوفيين في النحو الا مظهراً لخلافات أخرى في فروع شتى للمعرفة، وهي خلافات أثرت جو النقاش العلمي ونشطت روح البحث عن الحجة والحجة المقابلة، وان كان بعض هذه الخلافات قد أخذ مظهر المماحكة والخلافات العنادية . ويبدوا ان الخلاف بدوره قد امتد الى هذه المسأله من مسائل العلم، وهي مسألة الكتابة، ومدى افضليتها على حفظ الذاكرة او امكانياتها في الحلول مكان هذه الملكة القديمة، او افضلية هذه الملكة بالقياس الى الكتابة، ومن ثم العزوف عن هذه الوسيلة المستحدثة .

وينقل لنا الخطيب البغدادى في كتابه تقييد العلم، نصا بالغ الاهمية في هذا الصدد وان كانت العبارات الدالة في كلامه بالنسبة لنا قد اتت عرضا اثناء سياق الحديث يقول :ـ " قال عبدالله، قال ابي : " كان ابن علية يذهب مذهب البصريين، قلت، يعني أبو عبدالله، امتناعهم من الكتابة وكراهتهم لها، وليس يجوز لمن يذهب مذهبا ان يرد ماخالفه ويقضي ببطوله الا بحجة قاطعة وبينة ثابته "(٩٩) .

والنص يصور موقف البصريين ـ وهم الذين نزل بينهم جابر بن زيد واصبح منهم ـ من الكتابة ويوضح مدى عدم ميلهم اليها ويبدو ان هذا الموقف كان من الشيوع بحيث لم يحتج ابو عبد الله راوى النص الاصلي ان يحدده فلقد كان يكفي ان يقول لمعاصريه ان فلانا يذهب مذهب البصريين لكى يعلم انه يشير

الى انه لايميل الى الكتابة وكما نرى فان الذى وضح هذه الاشارة هو الخطيب البغدادى ناقل الرواية وليس ابا عبدالله راويها، ثم ان ناقل النص اضاف قيدا اخر حين وضح ان ذلك كان عرفا سائدا في البصرة ومن الصعب الخروج عليه " وليس يجوز لمن يذهب مذهبا ان يرد ما خلفه ويقضي ببطوله الا بحجة قاطعة " .

ولنا ان نتصور المناخ المحيط بجابر بن زيد وهو يفكر في التدوين في وسط مجتمع لا يميل الى الكتابة او على الاقل لايسلم بالميل اليها، واننا لنجد لونا من هذا التردد في الأخبار التي تنسب الى صديق جابر ومعاصره الكبير الحسن البصرى فابن سعد يروى في الطبقات : " حدثنا سهل بن حصين بن مسلم الباهلى، قال بعثت إلى عبدالله بن الحسن أن أبعث لي بكتب أبيك ، فبعث إلى أنه لما ثقل قال : اجمعها لي فجمعتها له وماندرى ما يصنع بها، فقال للخادم : استجرىّ التنور ثم امر بها فأحرقت غير صحيفة واحدة فبعث بها إلىّ ثم لقيته بعد ذلك فأخبرني مشافهة بمثل الذى اخبرني الرسول "(١٠٠) .

ولئن صح ان عالما كبيرا كالحسن البصرى مات بعد جابر بن زيد قال هذا او فعله عندما حضرته الوفاة فان معني ذلك ان عادة الكتابة والتدوين لم تكن قد استقرت حتى وفاة جابر نفسه .

لكن اخبارا اخرى تنسب إلى الحسن البصرى تدل على سريان عادة " التقييد " عن بعض من يتلقون العلم في البصرة، فها هو الواقدى يخبر " ان رجلا سأل الحسن فقال ياأبا سعيد : ان منزلي نشيء، والاختلاف يشق عليّ، ومعي احاديث فان لم تكن ترى بالقراءة بأسا قرأت عليك، فقال : ما ابالي قرأت علي فأخبرتك انه حدثني او حدثتك به قلت يا أبا سعيد : فأقول حدثـني الحسن ؟ قال نعم : قل حدثني الحســـن، وقال يحيى بن أبي بكير، قال : حدثنا حماد بن سلمة عن جميد انه اخذ كتب الحسن فنسخها ثم ردها عليه " (١٠١) .

ومجمل الروايات يقودنا الى ان الحسن كان " يقيد " وكان يسمح لمن شاء من تلامذته ان يقيدوا لكنه احرق صحفه عند الوفاة، وينبغي ان نتحوط ونحن نفهم كلمة كتب الحسن فكلمة " الكتاب " لذلك العهد، لاتعني الكتاب المؤلف الذى تعهده اليوم، وانما كانت تعني ما يكتب وما يقيد وهي مرحلة سابقة على مرحلة التدوين بمعنى جمع المسائل المتشابهة في ديوان واحد، ثم مرحلة التأليف بمعنى النظر في هذه المسائل واحكام الفكر فيها، وابداء الرأى حولها .

(١٠٠) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٧ ص ١٧٤ .

(١٠١) المرجع السابق ص ١٧٣ .

ولقد كان جابر وهو الذى سعى الى توثيق المعرفة من مصادرها وقضى معظم سني عمره بين الرحلة والاستقرار في سبيل اداء هذا الهدف، كان على وعي بأن الكتابة عمل جيد وعمل خير، وانها تساعد على حفظ كتاب الله واصول الدين، ويبدوا ان كتابة المصحف الشريف على نحو خاص كانت قد بدأت تتحول الى حرفة عند بعض الناس، ونستطيع الان تخيل مدى الحاجة الى هذه الحرفة بعد خطوة عثمان بتوحيد المصحف، وارسال اربع نسخ الى الامصار والامر باحراق ما عداها ولقد وصلت نسخ منها الى البصرة ومن الطبيعي ان يقبل الناس على استنساخها ليكون للقادرين منهم نسخهم الخاصة وان يلجأوا الى النساخين الذى يعكفون على الكتابة لكسب العيش وان بعض هؤلاء ليتحرج من عمله وهو يسأل جابر بن زيد عن رأيه في هذا العمل. يروى ابن كثير والحافظ الاصفهاني رواية عن احمد بن حنبل انه قال حدثنا ابو عبد الصمد العمى، قال حدثنا مالك بن دينار قال : دخل جابر بن زيد وانا أكتب المصحف فقلت له : كيف ترى صنعتي هذه يا ابا الشعثاء؟ قال نعم الصنعة صنعتك، مااحسن هذا تنقل كتاب الله عز وجل من ورقة الى ورقة وأية الى آية وكلمة الى كلمة هذا الحلال لابأس به"(١٠٢) .

لكنه في الوقت نفسه كان يقدر عظم المسؤلية عندما يعلم ان بعضهم يكتب عنه اراءه، وفي هذا الصدد، فان كتب القدماء تجمع على رواية منسوبة الى جابر بن زيد في شأن رايه في الكتابة عنه، يقول ابو يعقوب البسوى : قيل لجابر بن زيد : يا أبا الشعثاء أنهم يكتبون عنك فقال : انا لله، يكتبون عني رأيا أرجع عنه غدا؟ "(١٠٣) .

والصيغة التي وردت بها الرواية ذات اهمية خاصة في تحليلها، فجابر يقال له " انهم " يكتبون عنك، فهو لم ير الذين يكتبون وانما قيل له ذلك ومعنى هذا ان الذى يكتب لم يفعل ذلك في حضرته وعند سماع الرأى منه، والا لكان جابر قد رأه وابدى له رأية موافقة او مخالفة فيما يفعل والظن اذن ان من يكتب، كان يكتب بعد انتهاء الدرس او عندما يبلغه راى، معين منسوب الى جابر فيقرر ان يكتبه وتلك نقطة ضعف أولى في هذه الكتابة التي لا تأخذ الشيء من مصادره ثم ان الذى قيل لجابر : " انهم يكتبون " دون تخصيص لطبيعة من يكتب ان كان من التلاميذ النجباء او من عامة من تبلغهم الانباء، وقد رأينا من قبل كيف كان تحوط العلماء

---

(١٠٢) انظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ الأصفهاني ج٣ ص ٨٨ ، وانظر كذلك ، البداية والنهاية لابن الأثير ، ج٩ ص ٩٤ .

(١٠٣) كتاب المعرفة والتاريخ ج٢ ص ١٤ وانظر كذلك تقييد العلم للبغدادى ص ٢٠ .

بالغا في هذه الناحية وحرصهم على ان يحمل العلم اهله، وربما لو قيل لجابر ان فلانا يكتب عنك لاختلفت الاجابة او لو انه راى من يكتبون لكان له ارشاد آخر ثم ان هناك نقطة ثالثة في النص تتصل بطبيعة ما يكتب وهو " الرأى " والعلماء يرون ان الرأى قد يمر بمراحل من الاقتراض والبحث والمناقشة والاستدلال قبل ان يدون، وربما يتعرض الرأى في بعض هذه المراحل للتغيير ومن ثم فان العالم وحده الذى يملك تحديد الوقت المناسب لتدوين رأيه سواء من خلال تدوينه بنفسه أو الموافقة على أن يدونه سواه ممن يثق بعلمهم وهى كلها شروط لم تتوافر فيما ينسب إلى جابر فى هذه الرواية من انه " قيل له . . انهم يكتبون عنك " ومن هنا فإن هذه الرواية لا ينبغي أن يعمم مفهومها ويستخلص منها أحكام في الكتابة والتدوين تنسب إلى جابر .

وانما تؤخذ هذه الاحكام من سلوكه العملي الذى ركن اليه حين اطمأن هو الى ان ما يكتب عنه او منه، انما يمثل رايه الحقيقي فعمد الى كتابة " ديوان جابر " .

والقول بوجود ديوان لجابر بن زيد، قول متواتر في كل المراجع التاريخية من مختلف الاتجاهات، عند حديث هذه المراجع عن تاريخ العلم والتدوين في القرن الاول الهجرى او عن نشأة تدوين الحديث النبوى الشريف، او تدوين ما تناثر من اراء الصحابة في تفسير بعض آيات القرآن الكريم او تدوين الاراء الفقهية الاولى قبل نشأة المذاهب المتعارف عليها في الفقه الاسلامي ما قدر له منها الشيوع والتفاف الانصار والاتباع حوله ومابقي منها في اطار الكتب المدونه او المؤلفة .

يتواتر الاجماع في هذه المراجع على وجود " ديوان جابر بن زيد " ويتحول هذا التواتر الى حقيقة مسلم بها في الكتب التي تعنى بأسامي الكتب أو كتب البيليوجرافيا فهذا هو صاحب كتاب " كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون " يشير عند التعرض للكتب التي تحمل عنوان " ديوان " الى " ديوان جابر بن زيد "(١٠٤) وصحيح أنه لم يعط أية تفاصيل حول " الديوان " وانه ذكر مجرد عنوانه في وسط كتب أخرى تحمل عنوان " ديوان " ومنها دواوين شعر فارسية أو تركية أو عربية كديوان ثبوتي التركي أو ديوان جامي الفارسي أو ديوان حجطة البرمكي مما قد يوهم للوهلة الأولى أن " ديوان جلبر بن زيد " أيضا

---

(١٠٤) كشف الظنون عن اسامي الكتب الفنون تأليف مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة طبع وكالة المعارف ١٩٤٦ م المجلد الأول ص ٧٨١ .

ديوان شعر ولكن عذر صاحب كشف الظنون أن ديوان جابر بن زيد غير مطبوع ولم يصل الباحثون بعد إلى يقين بوجود نسخ(١٠٥) خطية منه وأن كان الإجماع ينعقد كما أشرنا على أنه كان موجودا .

وتتحدث المراجع عن ضخامة حجم الكتاب وأنه كان يقع في عشرة أجزاء كبيرة، ويقال كان يعجز عن حمله البعير، وقد كانت توجد منه نسخة في إحدى مكتبات بغداد الكبرى في عهد الخليفة هارون الرشيد وكانت توجد نسخة أخرى في البصرة في حوزة تلميذه أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ووجدت نسخة أخرى بمكة ثم أنتقلت نسخة إلى منطقة جبل نفوسه في ليبيا لدى النفاث فرج بن نصر أحد علماء الإباضية ويقال أنه خاف على هذه النسخة وخشي أن تنتقل إلى يد مناوئية فدمرها "(١٠٦) .

وهذا التواتر في الحديث عن نسخ الديوان في البصرة وبغداد ومكة وشمال أفريقيا يؤكد أولاً حقيقة وجوده ويقوى أمل بعض الباحثين في أمكان العثور عليه وتحقيقه وهو أمل لا يبدو مستحيلا من الناحية العلمية .

وأذا لم يكن نص الديوان بين أيدينا فان الموضوعات التي تطرق إليها ودونها تكاد تعلن عن نفسها من خلال تتبع حياة جابر وسيرته العلمية وأثره في تلاميذه من بعده وهي تدوين :ـ

ـ الأحاديث الشريفة ، ـ بعض الاراء في التفسير القرآني .

ـ بعض الفتاوى والاراء الفقهية .

ولابد ان نتذكر بأن ذلك كله تم على طريقة التدوين لاعلى طريقة التأليف والتصنيف التي تطورت اليها الكتابة العلمية فيما بعد ومعني ذلك اننا نتوقع ان توجد فيه الاراء موثقة بإسانيدها دون ان يكون هناك بالضرورة تبويب وترتيب او ان يتضمن ابداء الرأى المفصل والتعليق .

واذا تتبعنا التدوين في المسائل التي كان يهتم بها جابر بن زيد لوجدناه قد سبق العلماء إلى التدوين فيها؛ فالسنة بدأت حركة التدوين الكبرى فيها مع الامر الذى اصدره الخليفة عمر بن عبد العزيز الى ابي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم

---

(١٠٥) انظر خيرى على ابراهيم : " هل تجدد الأمل في العثور على ديوان جابر " مقال منشور بجريدة عُمان ٧ رمضان ١٤٠٨ هـ ٢٤/٤/١٩٨٨ م .

(١٠٦) انظر المرجع السابق وانظر كذلك د/عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية ص ٨٨ ود/صالح الصوافي: الإمام جابر بن زيد ص ٥٠ ـ والعقود الفضية ص ٩٣ .

والى المدينة :"انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ او سنة ماضية او حديث عمرة فاكتبه فاني قد خفت درس العلم وذهاب اهله "[١٠٧] .

وشرع عامل المدينة في تنفيذ امر عمر بن عبد العزيز من خلال علماء الحديث في عصره في المدينة المنورة فكان مسند محمد بن شهاب الزهرى المتوفى عام ١٢٤هـ[١٠٨] اى بعد وفاة جابر بن زيد بنحو ثلاثين عاما وهو تدوين لاحق بالتاكيد للجهد الاول الذى سبق به جابر بن زيد في " الديوان " وتابعه فيه تلميذه الامام الربيع بن حبيب في مسنده " الجامع الصحيح " .

ولايختلف الامر عن ذلك في تدوين تفسير القرآن الكريم الذى كان في ترتيب التدوين والاستقلال تابعاً للحديث النبوى لإن الحديث يصعد الى الرسول قولا او فعلا او تقريرا لكن التفسير قد يكون منه ماينسب الى الرسول أو ما ينسب الى الصحابة والتابعين ممن يتدبرون كتاب الله ويعلمون تأويله ، ودون الدخول فى تفاصيل البدء فى كتب التفسير فإن هذا العلم ينتسب الى القرن الثانى الهجرى مع محمد بن جرير الطبرى وعبد الرحمن بن رستم، وكثير من الاراء التي تنأثرت في كتب المفسرين كانت تعود الى كبار الصحابة ممن اشتغلوا بتفسير القرآن الكريم وفي مقدمتهم عبدالله بن عباس رضي الله عنه استاذ جابر بن زيد والمؤثر فيه والذى لاشك انه دون له كثيرا من آرائه في كتابه " الديوان " المفقود .

اما التدوين في الفقه وهو الفرع الثالث المحتمل في " ديوان جابر " فانه يكفي لادراك السبق الزمني في قضية التدوين، ان نتبع تاريخ وفيات[١٠٩] اعلام الفقهاء الذى نسبت اليه مذاهب الفقه الاسلامية الشهيرة وهي على النحو التالي :ـ

الامام جابر بن زيد	ت ٩٣ هـ
الامام زيد بن علي	ت ١٢٢ هـ
الامام جعفر الصادق	ت ١٤٨ هـ
الامام ابو حنيفة	ت ١٥٠ هـ
الامام مالك بن أنس	ت ١٧٩ هـ

(١٠٧) انظر نشأة التدوين في الفقه واستمراره عبر القرون ، للشيخ مبارك بن عبدالله الراشد (بحث ألقي في ندوة الفقه الإسلامي بجامعة السلطان قابوس ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .)

(١٠٨) انظر ضحى الإسلام لأحمد أمين ، فصل القرآن وتفسيره ص ١٣٧ وما بعدها .

(١٠٩) لمزيد من التفصيل انظر نشأة التدوين في الفقه واستمراره عبر القرون للشيخ مبارك الراشدى .

الامام الشافعي	ت ٢٠٥ هـ
الامام احمد بن حنبل	ت ٢٤١ هـ

وعلى هذا النحو يتبين ان تتبع تاريخ التدوين في فروع الحديث والتفسير والفقه وهي الفروع التى كان يعنى بها جابر في المرتبة الأولى ، يقودنا إلى معرفة أهمية ما صنعه جابر في تاريخ التدوين عند علماء المسلمين .

وهذا الحكم لايتوقف على هذه الفروع الشرعية فحسب وانما ينسحب ايضا على فروع المعرفة الاخرى في الادب والتاريخ وغيرهما وهي الفروع التي لحقت فروع الدراسات الدينية الخالصة في تدوين مسائلها .

★ ★ ★ ★

ان ذلك يقودنا الى النتيجة الحضارية التي تمخض عنها " ديوان جابر " وهى تأصيله لمبدأ " العلم " وتوثيقه وتدوينه في تاريخ العربية ولايقلل من هذه النتيجة ان الكتاب ليس بين ايدينا ففحوى الكتاب دون شك تشربه تلامذته وقراؤه طوال القرون الطويلة التي بقي فيها الكتاب في مكتبات البصرة وبغداد ومكة وشمال افريقيا ولاشك ايضا ان كثيرا مما ورد فيه تناقلته كتب الفقه والتفسير والحديث فيما بعد سواء من خلال نسبة المنقول الى جابر ام لا .

اما الذى يبقى دائما رغم غياب الكتاب فهو ان هذا العالم الجليل ادرك في لحظة مبكرة ومن خلال حرصة على العلم وتعلقه به ان العلم ليس مجهود فرد ينقضي بانقضاء حياته، ولكنه كنز ثمين على الامة جميعا ان تتعاون في حمله ونقله وعدم التفريط فيه او اضاعة اى قدر منه بمختلف الوسائل المتاحة .

واذا كان في البدء قد حرص على " نقاء الكنز " من خلال نهجه الدؤوب في البحث والاستقصاء والرحلة وراء العلم والعلماء والذين تلقوا الدين من منابعه وهو الحرص الذى دفعه كما رأينا من قبل الى ان يقضي معظم سني عمره متنقلا على ناقته الفتيه بين البصرة ومكة والمدينة وان يجاور في الاراضي المقدسة زمنا ليستوثق ويستزيد من مسائل العلم .

اذا كان هذا دأبه في جمع الكنز العلمي فان منهجه في حفظه وتدوينه كان على نفس القدر من الدقة والحرص ومن اجل هذا فقد لجأ الى وسيلة المشافهه المتبعه في عصره وعن طريقها يتكون " التلاميذ المباشرون " ويستوثق من مقدرة اولئك الذين سيكونون من بعد " حملة العلم " .

ثم هو بالاضافة الى هذه الوسيلة يرى ببصيرته النافذة، ان العالم الاسلامي يتسع ومسائل العلم تتكاثر والراغبين في التعلم يزدادون والذاكرة الحافظة لايؤمن ان يتطرق اليها بعض النسيان او الوهن فتفرط في جزء من الاداء، وقد يتعلق هذا الجزء بشيء دقيق فيقع ما لاتحمد عقباه.كل ذلك يدفع جابرا الى ان يقدم على الوسيلة التي كان يتردد حولها بعض علماء عصره ويحجم عنها الكثيرون وهي وسيلة " التدوين " فيكون عمله الرائد هذا مشجعا لما سواه، يؤيده في ذلك طيب سمعته وغزارة علمه وتقواه، وشيئا فشيئا يصبح التدوين في مسائل العلم الاسلامي شيئا مألوفا محمود العواقب وينتقل العلماء من " التدوين " الى التصنيف والتأليف فتصدر الكتب مدونة فيها أراء السابقين مشفوعة بتحليلات من نقلها واضافة ما يشابهها من الآراء اليها ومناقشتها على ضوء المبادىء المقررة ومناقشة المسائل الطارئة وكيف يمكن ان تعالج على ضوء ما دون وألف .

وتستمر مسيرة " العلم ". واذا كنا نرى اليوم الكتاب وسيلة من وسائل المعرفة في اللغة العربية في كل مستويات العمر ودرجات الثقافة وحاجات الانسان فإننا مدينون في ترسيخ هذه العادة الى آلاف من العلماء في مختلف التخصصات وفي مختلف القرون السابقة في الحضارة الاسلامية دونوا آراءهم فحافظوا على الكنز وزادو فيه .

وفي مقدمة هؤلاء يأتي الرجل الذي اتخذ الخطوة الاولى نحو تدوين العلم " جابر بن زيد " رضي الله عنه .



العلم
وطغيان العصر

١) عالم الفقراء والضعفاء



لم يكن " العلم " بالنسبة لجابر بن زيد والصفوة من علماء عصره مجرد بحث جاد واستقصاء متصل ورحلة الى المنابع وبحث عن افضل الوسائل لبث العلم وتوصيلة الى المسلمين جيلا بعد جيل وانما كان العلم سلوكا وترجمة واقعة لمبادىء سامية ومحاولة لإقامة مجتمع إسلامي حقيقي .

ولم يكن تحقيق هذا الامر سهلا ولا ميسورا كان المجتمع نفسه قريب عهد بجاهلية ولايحسب الانسان ان خمسين عاما او تزيد قليلا مضت بعد الهجرة كانت كافية لأن تغسل من نفوس عامة الناس اثار عادات ترسبت خلال آلاف السنين من غياب الدين ونماذج المثل العليا وكان على الصفوة ممن عمر الدين قلوبهم واشرب نفوسهم، وذاقو حلاوة أن تنفض النفس عنها الى غير رجعة ميراث الجاهلية نفضاً حقيقياً، كان على هؤلاء ان يضاعفوا الجهد سلوكا وتوضيحا ليبينوا للناس مانزل اليهم .

ولم يكن الامر يتوقف عند العادات القديمة التي ينبغي ان تستأصل من النفوس وانما امتد الامر الى ظهور بواعث جديدة في بعض المجتمعات الإسلامية جدت مع اتساع الفتوح الإسلامية واتساع الخيرات واقبال الدنيا على الناس ودقة الاختبار المطروح في كيفية المواجهة والموازنة ومن من الناس سوف تطويه الدنيا ومن منهم سوف يطويها .

وكانت العراق ـ حيث عاش جابر ـ واحدة من اوضح النماذج التي هبت الدنيا فيها على الناس: كانت ارض الخصب التي دعاها العرب ارض السواء لخصوبة تربتها وكثرة الخير فيها وخلوها من اللون الاصفر الذى يميز مناطق الصحراء الجدباء وكانت ارض المياه العذبة في الرافدين دجلة والفرات تزيد من النماء والخير وتنشر النخيل والزروع في كل مكان يضاف الى ذلك ما كان ما يجلب الى العراق والبصرة على نحو خاص من ارض فارس وما والاها .

ولقد تحولت البصرة من جراء ذلك كله الى مدينة ثرية يزهو اهلها بتراثها على اهل المدن الأخرى ويعتزون: ويسوق ياقوت الحموى قصة مناظرة تجرى بين وفود مختلفة من المدن الإسلامية التقت في بلاط عبد الملك بن مروان وناظر كل وفد بخيرات المدينة التي ينتمي اليها فيقول : " وفد خالد بن صفوان على عبد الملك بن مروان فوافق عند وفود جميع الامصار وقد اتخذ مسلمة مصانع له فسأل عبد الملك بن مروان ان يأذن للوفود في الخروج معه الى تلك المصانع فأذن لهم فلما نظر اليها مسلمة اعجب بها فأقبل على وفد اهل مكة فقال : ياأهل مكة : هل فيكم مثل هذه المصانع؟ فقالوا لا إلا ان فينا بيت الله المستقبل ثم اقبل على وفد اهل المدينة

فقال : يا اهل المدينة هل فيكم مثل هذه المصانع؟ قالوا : لا إلا ان فينا قبر نبي الله المرسل، ثم اقبل على وفد اهل الكوفة فقال : ياأهل الكوفة هل فيكم مثل هذه المصانع؟ قالوا: لا . . الا ان فينا تلاوة كتاب الله المرسل، ثم اقبل على وفد اهل البصرة فقال : هل فيكم مثل هذه المصانع؟ فتكلم خالد بن صفوان فقال : اصف لك بلادنا قال : هات قال : يغدو قانصنا فيجيء هذا بالشبوط والشيم، ويجيء هذا بالظبي والظليم، ونحن أكثر الناس عاجا وساجا وخزا وديباجا . . بيوتنا الذهب . . ونهرنا العجب أوله الرطب واوسطه العنب وآخره القصب . . واما نهرنا العجب فان الماء يقبل عنقا فيفيض مندفقا، يأتينا في اوان عطشنا ويذهب في زمان ريّنا، فنأخذ منه حاجتنا ونحن نيام على فرشنا . . الخ "(١١٠) .

وبما تكون الصورة التي يرسمها خالد بن صفوان للبصرة ممزوجة ببعض مبالغات الفخر ولكن لاتخلو من الصدق في التعبير عن صورة البصرة في عيون المسلمين في القرن الاول للهجرة وهي الصورة التي دفعت كثيرا من المسلمين الى الهجرة اليها والاستقرار بها وقد رأينا من قبل كيف أمها من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم نحو خمسمائة على عهد جابر بن زيد وكيف قصدتها افواج من الازد القادمين من جنوب شرقي الجزيرة العربية فعمروا ثلاثة دساكر من دساكرها السبعة .

كثرت الثروة في البصرة ـ على عهد جابر ـ وتكدست الخيرات ولكنها لم تكن في ايدى كل الناس على السواء كان هنالك من يتجمع عندهم الآلاف وكان هنالك من يقنعون بالكفاف، ولم تكن مصادر الثروة كلها قادمة من التجارة او الزراعة او مصادر الكسب المألوف وانما تجمع بعضها من استغلال المكانة او الهيمنة .
يروى ابن خلكان ان محمد بن المنتشر بن الاجدع الهمداني قال : " دفع الحجاج اليّ ازار مرد بن الهريذ وامرني ان استخرج منه واغلظ عليه فلما انطلقت به قال لي : يامحمد ان لك شرفا ودينا واني لا اعطي على القسر شيئا فارفق بي قال فعلت، فأدى الي في اسبوع خمسمائة الف، قال فبلغ ذلك الحجاج فأغضبه فأنتزعه من يدى ودفعه الى رجل كان يتولى له العذاب فدق يديه ورجليه فلم يعطهم شيئا "(١١١) .

---

(١١٠) انظر : ياقوت الحموى معجم البلدان ج٢ ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩ .
(١١١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج٢ ص ٤٣ .

وإذا كان أحد رجال الحجاج ـ حاكم البصرة في عهد جابر ـ يأخذ من خلال الابتزاز من رجل واحد في اسبوع واحد خمسمائة الف، فكيف تكون جملة امواله وأموال من هو ارسخ منه قدما في بلاط الحجاج، وكيف تكون حياة الحجاج نفسه؟ ومن هنا فليس مستغربا ان نجد في كتب القدماء عن حياة اغنياء البصرة لذلك العصر امثال هذه الرواية : " كان الحجاج يطعم كل يوم على الف مائدة على كل مائدة ثريد وطرف من شواء وسمكة طرية ويطاف به في محفة على تلك الموائد ليتفقد امور الناس وعلى كل مائدة عشرة وكان له ساقيان احدهما يسقي الماء والعسل والآخر يسقي اللبن "(١١٢) .

ولاشك ان في صياغة الخبر على هذا النحو قدرا من المبالغه اذا اخذنا في الاعتبار مايحمله رقم الالف من الدلالة على الكثرة غير المحددة وما تحلمه طاقة الإنسان من لمس ألف مائدة في يوم واحد ولكن ذلك التحرز لايجرد الخبر من دلالته الهامة وهي تصوير مدى ما وصل اليه الثراء والترف في البصرة لذلك العصر في بيوت الاغنياء وتصور الاثر الذى يمكن ان يحدثة ذلك على نفوس الفقراء يسيل لعاب البعض فتهتز عنده القيم، ويقع البعض الاخر ضحية تحت الاقدام .

كانت احدى الوسائل الشائعة في البصرة في ذلك العصر للحصول على الثراء السريع وسيلة " تزييف الدراهم " وكان الحجاج قد ضربها في عام ٧٥هـ بعد ان ضرب عبد الملك الدنانير الذهبية في ٧٤هـ وكان التزييف وسيلة يستكثر بها ضعاف النفوس اموالهم ويشيعون تداولها بين الناس حتى ان كثيرا من هذه الدراهم ليقع في ايدى الورعين من امثال جابر بن زيد والحسن البصرى ومحمد بن سيرين فيحتجزونها عندهم لكي لا تشيع بين الناس ويرضون بالخسارة لانفسهم " وكان ابن سيرين اذا وقع عنده درهم زائف او ستوق لم يشتر به ، فمات وعنده خمسمائة ستوقة وزيوف "(١١٣) وابن سيرين نفسه هو الذى يقول عن جابر فيما يرويه ابن الاثير وغيره : " كان أبو الشعثاء مسلما عند الدينار والدرهم "(١١٤) واذا كان ابن سيرين يحتفظ بالدرهم المزيف لئلا يشيع في الناس فأن جابر بن زيد كان اذا وقع في يده درسم ستوق (اى مزيف) كسره ورمى به يعني لئلا يغر به مسلما "(١١٥) .

(١١٢) المرجع السابق ص ٤٤ .

(١١٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٧ ص ٢٠٢ .

(١١٤) انظر البداية والنهاية ج٩ ص ٩٣ .

(١١٥) حلية الأولياء ج٣ ص ٨٨ .

طغى العصر بماله على الناس، واختار جابر بن زيد وهو رجل العلم ان يقف ضد طغيان المال فاختار ان يكون فقيرا وان يساند الفقراء .

ولم يكن فقره قدرا رضي به وانما كان امنية سعى اليها ودعا الله ان يحققها له وهو الذى يقول : " سألت ربي عن ثلاث فأعطانيهن، سألت زوجة مؤمنة وراحلة صالحة، ورزقا حلالا كفافا يوما بيوم، وقال لاصحابه ليس منكم رجل اغني منى ليس عندى درهم ولا علي دّين "(١١٦) .

ذلك اذن هو الكفاف المطلوب وليس الكفاف المفروض وهو عندما يقول لاصحابه ان ذلك هو " الغنى " الكامل فقد اراد ان يلفت نظرهم الى مرض العصر الذى بدأ يأخذ على الناس انفسهم وقيمهم وان يبين كيف يمكن ان يكون الإنسان مسلما عند الدينار على حد تعبير معاصرى جابر عنه .

فإذا ما جاء الخير والمال فإنه كان يفكر في كيف يتخلص منه على اسرع ما يكون وكان حرصه على التخلص مما آل اليه يفوق حرص غيره على ان يجمع ما ليس في يديه وقد رأينا في موقف سابق كيف كان تصرفه في الطعام الذى آل اليه عندما زار واسط وتنافست زوجتا يزيد بن ابي مسلم في وضعه في رحله وكيف انه عندما ركب السفينة من واسط الى البصرة امر ففتح الطعام ونادى في الناس ان يطعموا جميعا وعندما بقي شيء من الطعام في نهاية الرحلة امر به فوزع على الملاحين وربما كان صبيانه في البيت في حاجة الى شيء منه .

وهو على النحو ايضا يتصرف عندما تبعث اليه هند بنت المهلب جزورا فينحرها ويعالج للناس طعاما في زمضان فيكون حريصا على ان يأكلوا اطيب ما في الجزور لا ان يدخر له هو ذلك الطيب وتبلغ به الرقة في هؤلاء الفقراء الطاعمين حدا يدعو معه مؤذنه وقد اذن لصلاة المغرب وحان وقت الافطار ان ينزل فيشارك القوم طعامهم ويمهلهم حتى يشبعوا قبل ان ينهضوا للصلاة وهو يقول له : " يا ابا هارون ارى ان تهبط فتأكل معهم ولاتعجلهم الاقامة حتى يفرغوا من طعامهم "(١١٧) .

انه يحب الفقراء ويميل اليهم ويساندهم في مواجهة وجه من اوجه طغيان العصر وهو طغيان المال والغنى والمظهر وهو في مساندته لهم يقدم لهم مثلا من

---

(١١٦) طبقات المشايخ بالمغرب لابن العباس الدرجيني ج٢ ص ٢١٣ .

(١١٧) المرجع السابق ص ٢١١ والعقود الفضية في أصول الإباضية للشيخ سالم الحارثي ص ٩٦ .

نفسه فيتواضع لله في مظهره تواضعا يبعد عنه خيلاء الدنيا وزهوها حتى ان مظهره العام لاينسبه الى اولئك الذين يفرحون بما اوتوا وانما ينسبه الى البسطاء المتواضعين يقول ابو يوسف يعقوب بن سفيان البسوى في " كتاب المعرفة والتاريخ " في الرويات التي ينقلها عن معاصرى جابر : " قال عمرو : وكنت اذا رأيته قلت لايحسن شيئا، لم تكن له تلك الهئية "(١١٨) .

وهذه الرواية على ايجازها تشف عن اشياء كثيرة في شخصية هذا العالم الجليل الذى كان يحيل اليه بحر الامة عبدالله بن عباس ويقول عنه معاصروه من العلماء انه كان اعلم العرب، فهو الى جانب اختياره أن يكون نصيبه من الدنيا رزق الكفاف يدرك ايضا ان للعلم زهوا في النفوس وان كثيرا من العلماء وقد ابتعدوا عن عالم الغنى او ابتعد عنهم يشعرون بقيمة ما في انفسهم من علم وهو شعور تعادلي مشروع .
لكنه يدفع اصحابه في بعض الاحايين الى ان يبدو ذلك الاعتزاز على هيئتهم ومظهرهم وسلوكهم وطريقة حديثهم، وتاريخ العلم العربي والإسلامي يعرف عشرات من هؤلاء الشعراء والادباء الذين سارت شهرة علمهم موازية لشهرة اعتزازهم بانفسهم وزهوهم، لكن جابرا وقد حدد " العلم " محورا لحياته جهد في ان يخلص هذا المحور من اى شائبة حتى يلقى به وجه الله خالصا، ومن هنا كان هذا التواضع الذى يذهب الى حد يظن فيه من لايعرفه انه لايحسن شيئا كما كان يقول عمرو بن دينار : " وكنت اذا رأيته قلت لايحسن شيئا لم تكن له تلك الهئية " .

فأى هيئة كانت له اذن؟

لقد كانت دون شك هيئة الفقراء البسطاء واذا غابت عنا التفاصيل فإن شواهد الاحداث يمكن ان تردنا الى بعضها، كان ممتعاً بإحدى عينيه اما الاخرى فقد ضعف نورها او زال فكثير من المراجع القديمة تشير الى انه كان " اعور " والدرجيني في طبقاته يورد رواية عن عاتكة بنت ابي صفرة تصف فيها جابر بأنه " احول " ويعلق عليها الشيخ بقوله : " وكان جابر يغمز بإحدى عينيه من غير علة "(١١٩) ، ويوفق صاحب فقه الامام جابر بن زيد بين الروايات فيقول " ولعله كان احول اول امره ولما كبرت سنه ضعفت احدى عينيه او زالت "(١٢٠) .

---

(١١٨) كتاب المعرفة والتاريخ المجلد الثاني ص ١٤ .

(١١٩) طبقات الدرجيني ج٢ ص ٢٥٥ .

(١٢٠) فقه الإمام جابر بن زيد تقديم وجمع وتخريج : يحيى محمد البكوش ص ٢١ .

وكان ذا لحية بيضاء ولكنه على عادة علماء عصره كان يصفرها، وهي عادة ينسبها ابن سعد في الطبقات الكبرى الى كل من جابر بن زيد والحسن البصرى وابن سيرين في مواضع متفرقة "(١٢١) .

ولكنه كان يكره ان يمسها الطيب وقد رأينا ما حدث له عندما امر مضيفه يزيد بن ابي مسلم احدى جواريه ان تضمخ بالغالية والطيب شعر راس جابر ولحيته، ولم يستطع الرجل حياء ان يرفض كرم المضيف وتقاليد العصر ولكنه ما ان غادر المكان متوجها الى الصلاة في مسجد واسط حتى دلف اولا الى شاطيء النهر فغسل شعر رأسه ولحيته واخذ يحكمها حكا عنيفا حتى يزول منهما اثر الطيب، ويعود الى ما تعود عليه من بساطة المظهر .

ولإنه كان كذلك فلقد كان يميل اليه الفقراء والضعفاء ويشكون اليه حاجتهم ويجدون فيه نصيرا لهم، ومن هنا ترد في الاخبار القليلة التى رواها القدماء عن سيرته نتف متفرقة تدل على هذه النزعة في حياته فها هو ذا مرة يلقي في الدرب الذى يعيش فيه عاملا بسيطا من الاكارين كان يحمل على حماره بعض التمر عائدا به الى صاحب الارض، ويتعرض له بعض فتيان الدرب الطائشين عبثا أو اغتصابا فيخطفون ما معه من التمر ويختفون، ويحار الرجل الضعيف كيف يصنع وكيف يعود الى صاحب الارض ولاتمر معه ومن اين له ان يصدقه بأنه خطف؟ ولايجد الرجل امامه الا البكاء والصياح ويجيئه جابر على حالته تلك ويشكو اليه الرجل ماوجد من فتيان الدرب فيطمئنه جابر ويجد لمشكلته حلا، قال ابو سفيان بن الرحيل : " اطلع ابو الشعثاء يوما فإذا برجل من الاكارين يبكي ويصيح، فقال مالك ويحك؟ قال : ان فتيان دربكم هذا نزعوا مني قِنْوَيْ نخل جئت بهما الى صاحب الارض، فأخاف الا يصدقني قال فبعث جابر الى رجل من اصحابه له نخل فأخذ قنوين فدفعهما اليه "(١٢٢) .

وعلى هذا النحو يدفع جابر عن هذا الرجل الضعيف الفقير اذى محتملا من صاحب ارضه ويجفف دموع عينيه " .

وهو في الوقت الذى يدعو فيه إلى التصدق ويحث عليه ويعطي من نفسه وهو الفقير مثلا في التصدق بما ملكت يده ويقول فيما يروى عنه : " لأَنْ أَتَصدق بدرهم على يتيم او مسكين احب الى من حجة بعد حجة الإسلام(١٢٣) رغم حبه

---

(١٢١) انظر الطبقات الكبرى ج٧ ص ١١٢ ، ١٦٠ ، ٢٠٤ .

(١٢٢) طبقات المشايخ للدرجيني ج٢ ص ٢١١ .

(١٢٣) حلية الأولياء ج٣ ص ٨٨ .

الشديد للحج، في نفس الوقت نراه يدعو الى الترفع عما في يد الآخرين وعدم المساس بأموالهم ويضرب مثلا لذلك في سلوكه الذى قد يبلغ حد التطرف حتى في نظر اهل بيته فها هو مرة يسير مع بعض اهله خارج الحي فتهب عليه الكلاب فينتزع عصا من سورحديقة،ويدفع بها عن نفسه وعنهم الكلاب حتى يبلغ مأمنه " فلما اتى البيت وضعها في المسجد فقال لاهله احتفظوا بهذه القصبة فإني مررت بحائط قوم فانتزعتها منه، قالوا : سبحان الله يا أبا الشعثاء ما بلغ بقصبة؟ فقال : لو كان كل من مر بهذا الحائط اخذ منه قصبة لم يبق منه شيء فلما اصبح ردها "(١٢٤) .

ولم يكن ذلك تطرفا ولا تصنعا بقدر ماكان نموذجا يحاول " العلم " أن يقدمه في ذلك العصر لكيفية تدريب النفس على مقاومة اغراء المال مال الغير حتى لو كان شيئا بسيطا قد لايلتفت اليه وكانت امثال هذه التدريبات مقصودة من العلماء في ذلك العصر فلقد كان عصر المواجهة بين تيارين جديدين على العرب في هذه البقعة من الارض، تيار " الدين " الجديد وتيار " الغنى " الجديد ولم يكن العلماء يصرفون الناس عن الغنى وانما كانت دعوتهم الا يدعوا الدنيا تطويهم وانما عليهم ان يحاولوا هم طيها، وكان ذلك يقتضي درية عالية للنفوس على مواطن الاخذ ومواطن العطاء وعلى التفريق بين المال العام والمال الخاص، وبين الكسب المباح والكسب المكروه والكسب الحرام، وهي درجات تفاوتت الانفس في استيعابها وقبولها وتفاوت العلماء انفسهم درجات في الدعوة اليها والتمسك بها وكان جابر بن زيد ممن اختار طريق التدقيق والتحرز في مواجهة المال الى ابعد مدى .

كانت مغريات العصر كثيرة لكن ضحاياه كانوا اكثر واذا كان التاريخ قد كتب عن الاغنياء وثرواتهم ومجالسهم وموائدهم وقيانهم ومتعهم ورأينا من خلال ذلك انهار الثروة تتدفق فانه لم يهتم كثيرا بتفاصيل حياة الفقراء والضحايا والكوارث التي المت بهم .

ولقـــد عانت مدينة البصرة في الفترة التي عاش فيها جابر بن زيد خلال النصف الثاني من القرن الاول الهجرى من كثير من الآلام وعصفت بها كوارث الامراض الى حد بعيد واذا تصورنا الآن كيف يمكن ان يؤثر الطاعون "الجارف" عندما يحل بمدينة ما فيحصد الارواح ويخطف الابناء وينشر الذعر، ويحاول ان يفر اناس من امامه يمنة ويسرة وتصورنا كم من الزمن تظل آثار

(١٢٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ الأصفهاني ص ٨٧ .

الطاعون جراحا في النفوس وحديثاً حزينا على الألسنة والقلوب ؟ واذا تصورنا أن هذه الآثار لاتنسى عادة قبل مرور عقد من الزمان عشر سنوات أو نحوها تنسى فيه البيوت والأسر والدروب والأحيا موتاها، إذا تصورنا هذا كله فلنا ان نتصور مدى الحزن والآلام التي احاطت بمعظم الناس في البصرة عندما نعلم ان هذه المدينة قد ألم بها الطاعون الجارف ست مرات في النصف الثاني من القرن الاول الهجرى .

كان الطاعون الجارف قد الم بالبصرة في العام الرابع والستين للهجرة واستمر يحصد في الارواح فامتد إلى العام الخامس والستين وكان جابر يعيش في هذه الاثناء في البصرة عالما جليلا جاوز الاربعين، وشهد هذا الطاعون وكان له فيه موقف اشار اليه ابن سعد في طبقاته الكبرى عندما نقل رواية عن حجاج بن ابي عيينه عن هند قالت : " خرجنا من الطاعون فرارا الى العراق، فكان جابر بن زيد يأتينا على حمار فيقول : ماأقربكم ممن أرادكم "(١٢٥) .

لكن الطاعون عاد يلم البصرة فلم تنقض أربع سنوات على الطاعون الاول حتى حل بها طاعون جارف في العام التاسع والستين وترك من الاثار المدمرة ماترك، ثم امهلها قليلا نحو عقد من الزمان لكي يعود اليها الطاعون الفاتك في العام الثمانين للهجرة ولايكاد يكتمل العقد حتى يعود الطاعون الى العراق كله في العام السادس والثمانين ثم يخص البصرة في العام السابع والثمانين ولاتكاد تمر دورة عقد آخر حتى ينزل بالبصرة طاعون جارف آخر في العام السادس والتسعين(١٢٦) بعد قليل من وفاة جابر في ارجح الاقوال او خلال سنوات عمره في راى مرجوح .

ان هذه الطواعين المتتالية كانت جزءا من طغيان العصر الذى اصاب مدينة البصرة في الفترة التي عاشها جابر بها وكان من شأنه ان يترك طابع الحزن على هذه المدينة اغلب سنوات هذه الفترة وان يزيد من عدد الضعفاء والمقهورين فيها وان يزيد ايضا من عدد الفقراء والمحتاجين من الاسر التي فقدت من يعولها او يكسب من اجلها في هذه الموجات المتتالية من الطاعون .

وكان من الاهمية بمكان ان يوجد بين هؤلاء الفقراء عالم كجابر بن زيد ينتمي اليهم ويكون منهم ويواسي جراحهم ويؤكد لهم بسلوكه واقواله معا ان القيمة الكبرى للفرد المؤمن انما تكمن في قوة نفسه على تحمل القضاء اذا حل به

---

(١٢٥) طبقات الكبرى لابن سعد ج٧ ص ١٣١ .

(١٢٦) انظر كتاب : أزمنة التاريخ الإسلامي تأليف الدكتور عبدالسلام الترمانيني (المجلس الأعلى للثقافة والآداب والفنون بالكويت) ج١ في مواطن متفرقة . منه .

وأن ذلك ليزيد من رصيده يوم الجزاء، وتكمن في عدم الاستسلام للمتاع الزائل اذا لاح له والا يأخذ منه الا بحقه وبقدره .

على ان جابرا كان يعالج هذه الكوارث في نفوس الناس من ناحية اخرى كان يراها تذكيرا باننا لسنا بعيدين عن لحظة الحساب وانها ينبغي ان تردنا الى انفسنا ولافائدة من الإتعاظ بها اذا نحن عدنا بعدها الى ما كنا عليه قبلها .

ويبدو ان نصيب البصرة من الكوارث في ذلك العصر لم يتوقف عند الطاعون المتكرر وانما امتد الى الكوارث الطبيعية او مقدماتها التي كانت تحل بالمدينة حينا بعد حين ومن ذلك مايرويه ابو سفيان بن الرحيل قال : اصاب الناس على عهد جابر بن زيد ظلمة وريح ورعد ففزعوا الى المساجد قال فخرج ابو الشعثاء الى بعض المساجد فجلس فيه يذكر الله والناس في تضرع وضجة قال : فلما انجلت تلك الريح وتلك الظلمة اخذ الناس ينصرفون الى اسواقهم ومنازلهم قال : فدعا قوما كانوا قريبا منه فقال لهم ما كنتم تظنون هذا الامر ؟ قالوا : خفنا ان تكون القيامة قد قامت قال : انما خفتم على الدنيا والافضاء الى الآخرة قالوا : نعم، قال : لقد خفتم امرا عظيما فحق عليكم ان تخافوه ثم قال : اين تذهبون الآن ؟ قالوا : الى منازلنا قال : لقد خفتم امرا عظيما ففرغتم الى الدعاء ولو جاء ما خفتم لم يغن عنكم ما كنتم فيه شيئا فالآن اذ رد الله عليكم دنياكم فاعملوا حين قبول العمل واما ماكنتم فيه فلو كان الامر ما خفتموه لم يغن عنكم دعاؤكم من الله شيئا "(١٢٧) .

على هذا النحو كانت بعض مواعظ جابر بن زيد حول كوارث العصر ولحظات الألم الكبرى فيه مواساة ومعالجة واستخلاصا للدروس الكبرى التي يمكن ان تساعد المؤمن في بناء نفسه بالعلم في مواجهة طغيان العصر .

كما امتد طغيان العصر الى الفقر والمرض ووقف العلم سلاحا في مواجهتهما وكان لجابر دور فعال في هذا المضمار فقد امتد طغيان العصر الى المعرفة فالناس تزداد حاجتهم اليها يوما بعد يوم وعلى العلم ان يكون سلاحا ضد " الجهل " ولقد كان الناس يودون ان يعرفوا الكثير عن امور دينهم ومعالجته لمعاشهم ومعادهم والتكليف بالمعرفة يمتد الى كل المؤمنين لافرق فيه بين الرجال والنساء والاباء والابناء والاغنياء والفقراء ومن هم على القرب او على البعد من العلماء ولكن ربما كان الحصول على المعرفة لبعض هذه الطوائف ايسر من بعضها الآخر .

ومن هنا فإن جانبا مما فرضته مهمة " العلم " على عالم مثل جابر بن زيد كان يدفعه الى محاولة محاربة طغيان عدم المعرفة من خلال العمل على توصيل

(١٢٧) انظر طبقات المشايخ للدرجيني ج٢ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

المعرفة والعلم ما استطاع لكل هذه الطوائف .

ولم يأل في سبيل ذلك جهدا وقد رأينا كيف كان جهده الكبير في سبيل التوثيق والتدوين للمحافظة على العلم في ذاته محافظة مطلقة تجعله صالحا للورود لمن شاء .

ولقد اتبع رضي الله عنه مختلف الوسائل في سبيل بث العلم وتعميم الفائدة منه إلى جانب " التدوين " الذى كان فيه سباقا كما رأينا كان هناك تكوين التلاميذ من " حملة العلم " وكان هناك تبادل الرسائل مع العلماء واهل الرأى وكذلك كان هناك الاتصال المباشر بعامة الناس يعلمهم امور دينهم ويفتيهم فيما يعنّ لهم .

اما حملة العلم من تلاميذه فهم كثيرون(١٢٨) منهم ابو عبيدة مسلم بن ابي كريمة وكان من كبار تلاميذ جابر واتباعه وقد توفي عام ١٥٠هـ وحبيب بن عمر وابنه الامام الربيع بن حبيب الذى ادرك الامام جابر في اخريات ايامه فروى عنه القليل لكنه تابع الرواية بعد وفاة جابر عن ابي عبيدة وغيره ممن عاصروا جابرا حتى استقام له مسنده في الحديث الشريف الذى يسمى " الجامع الصحيح - مسند الامام الربيع بن حبيب ابن عمر الأزدى البصرى"وهو مسند يعده علماءالحديث في طبقة عالية من طبقات الاسناد "(١٢٩) .

ومن حملة العلم هؤلاء عمرو بن دينار المكى، وعمرو بن هرم الأزدى البصرى وعبدالله بن أباض ومالك بن دينار السلمي ومطر بن طهمان الوراق وهند بنت المهلب والمثنى بن سعيد وقتادة بن دعامة السدوسي شيخ البخارى - وعاتكة بنت ابي صفرة وضمام بن السائب العنبرى العماني وصالح بن ابراهيم الدهان وثابت بن اسلم البناني وامية بن زيد الازدى البصرى الذى روى عن جابر حديث ترتيب نزول سور القرآن وغيرهم كثيرون ممن حملوا العلم عن جابر بن زيد وقد احصى الاستاذ يحيى محمد البكوش من هؤلاء الحملة نحو مائة تتبع ثلاثة وسبعين منهم في كتب الرواة والجرح والتعديل واورد اسماء بقية الحملة .(١٣٠) .

---

(١٢٨) انظر الفصل الهام الذى عقده الأستاذ يحيى البكوش في كتابه " فقه الإمام جابر بن زيد " تحت عنوان " حملة العلم الذى رووا عن جابر ين زيد " ص ٤٤ وما بعدها .

(١٢٩) انظر مسند الإمام الربيع طبعة مكتبة الاستقامة بعُمان سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٦ م تصويراً عن طبعة المطبعة العلمية بدمشق سنة ١٣٨٨هـ .

(١٣٠) انظر كذلك فيمن رووا عن جابر ، تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ المزى ، تحقيق د/بشار عواد معروف (مؤسـسة الرسالة) ج٤ ص ٤٣٥ .

واتساع الدائرة التي حملت العلم عن جابر بن زيد على هذا النحو حقق هدفا رئيسيا من اهداف العلم وهو توسيع دائرة النور التي يتحرك على هدى منها ابناء الامة وهي مهمة دقيقة يصبر عليها العلماء وحملة العلم فتقشع من خلال الصبر والمثابرة بقع الظلمة شيئا فشيئا من امام العيون .

على ان العلم والرأى عند جابر كما كان بنتقل من خلال تدوين العلم للأجيال القادمة من بعده وتلقين العلم لتلامذته ومن يروون عنه، كان ينتقل كذلك لمعاصريه الذين لايلتقي بهم لقاء مباشرا وذلك من خلال الرسائل المتبادلة التي كان يلجأ اليها بين الحين والحين (كما سنوضح ذلك في الفصل الخاص برسائله) .

وهو في سبيل ان ينشر العلم ما عظم منه وما دق كان لايجد حرجا في ان يسأل عن دقائق الامور كما كان يصنع مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فيما اشرنا اليه من قبل حين يسألها عن عادات الرسول ﷺ مع زوجاته لكي يستخلص من ذلك الاحكام الفقهية الدقيقة التي تنظم علاقة الرجل بالمرأة في الإسلام .

وهو في المقابل لايجد حرجا ان يبصر النساء بأمور دينهن ويشرح لهن ماخفي عليهن بل انه ليقف في الطريق اذا لزم الامر يتحدث الى احداهن ويشرح لها وهو يستريح عندما يجدها تحسن الاصغاء وتفهم مسائل العلم فيقول لها : اني احبك في الله ويتعهد امرأة اخرى هي هند بنت المهلب احدى رواة حديثه التي تقول : " كان جابر بن زيد اشد انقطاعا الى والى امي وكان لايعلم شيئا يقربني الى الله عزوجل الا امرني به ولاشيء يباعدني منه الا نهاني عنه وكان ليأمرني اين اضع الخمار ووضعت يدها على الجبهة "(١٣٢) .

على هذا النحو يتضح معنى توجيه العلم عند جابر بن زيد لمواجهة طغيان العصر ووضعه وسيلة لمساعدة الفقراء والضعفاء ومنهاجاً لنشر الهداية بين الناس وتبصريهم بأمور دينهم من قرب منهم ومن بعد سعى إلى العالم في مجلسه أو منعه السعي وهو في حاجة إلى العلم فسعى إليه العلم حيث يكون .

---

(١٣١) انظر نشأة الحركة الإباضية د/عوض خليفات ص ٩٨ وما بعدها .

(١٣٢) انظر ابن الأثير البداية والنهاية ج٩ ص ٩٥ وانظر كذلك د/صالح الصوافي : الإمام جابر وآثاره في الدعوة ص ٤٧ .



العلم وطغيان العصر

" ٢ "

الحكمة في
مواجهة العنف



كانت البصرة من أكثر مدن الأسلام في الصدر الأول نصيبا من إراقة الدماء وشدة الحروب وقسوة الولاة خلال السنوات التي عاش فيها جابر بن زيد بها .

ويكفي أن يدرك المرء ذلك حين يعلم أنه تعاقب على حكمها أشهر ثلاثة ولاة عرفوا بالقسوة وهم زياد بن أبيه الذي تولى البصرة من العام الخامس والاربعين للهجرة حتى العام الثالث والخمسين ثم عبدالله بن زياد الذى حكم البصرة بعد فترة فاصلة قصيرة عن حكم أبيه بها وهي فترة تولاها خلالها سمرة بن جندب وعمرو بن غيلان ثم آلت إلي عبيدالله عام ٥٤هـ حتى العام الخامس والسبعين حيث تولّاها الحجاج بن يوسف الثقفي واستمر والياً عليها حتى وفاة جابر .

وكان هؤلاء الولاة الثلاثة يعملون في إطار سياسة الأمويين الرامية الى أخضاع الخارجين عن إرادتهم او الرافضين لنظريتهم في الحكم بكل الوسائل المتاحة والضرب على إيديهم بقسوة قبل إن يفكر غيرهم في الأقتداء بهم والأنضمام إليهم وأعتبار المدينة كلها مسئولة عن وجود من يخرج على طاعة الولاة بها .

وقد عبر عن هذه السياسة زياد بن أبيه حتى كان يخطب في أهل البصرة قائلا : "والله لتكفن هؤلاء أو لُأبد أنكم والله لئن أفلت منكم رجل لا تأخذون من عطائكم درهما . .وأن أى خارجة خرجت من قبيلة فلم تقاتلها حرمتها العطاء وأجليتها "(١٣٣)

وكان زياد ينكل بالنساء اللائي يعتبرهن خوارج فأذا ظفر بأمرأة منهن كان يلجأ إلى وسيلة "التعرية" وهي أن يقتل المرأة ثم يصلبها عارية في شوارع المدينة وهي وسائل في التنكيل تجافي كل الاعراف والمبادىء حتى ولو أدت الى نتيجة حاسمة من وجهة نظر الحاكم .

وأذا كان زياد بن أبيه قد هادن أهل البصرة حينا من الزمن وخفف على الأقل من قسوة تعميم التنكيل فأن أبنه عبدالله حين تولى الحكم رفع شعار جديدا

---

(١٣٣) تاريخ الطبرى ج٥ ص ٢٢٨ نقلا عن د / عوض خليفات . نشأة الحركة الإباضية ص ٦٤

وهو قولة : "أقمع النفاق قبل أن ينجم" ومن أجل هذا فقد كان يرسل جواسيسه فى كل مكان يتتبع أحاديث الناس ونواياهم ويقتحم عليهم مجالسهم ويأخذهم بالشبهة وينكل بمن يقع في يده من مخالفيه قتلا وصلبا وتمثيلا"(١٣٤) .

بل أن أبن زياد يلجأ ألى أساليب أخرى للتفريق بين الجماعات التى تلتف حول مبدأ واحد "فقد كان يحبس الجماعة منهم ثم يأمرهم بقتل بعضهم بعضا ، ومن قتل رجلا عفا عنه وأخرجه من السجن وقد حدث بالفعل أن قتل بعضهم زملاءهم في السجن فأطلق سراحهم ولم يلبثوا أن ندموا على فعلهم وحاولوا التكفير عن خطيئتهم بدفع الدية لذوى القتلى ولكنهم رفضوا ثم عرضوا رقابهم للذبح ولكن دون جدوى وتبرا منهم أصحابهم ولم يجدو طريقة يكفرون بها عن فعلهم القبيح إلا بالثورة ضد أبن زياد متمثلين بالآية الكريمة "**ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** "وكذلك كان يفعل أيضا عندما كان يحرض العرب والموالي ليقتل بعضهم بعضا في السجن .

وكم من العلماء من أوذى أو سقط في موجات العسف والظلم التي عمت البصرة وهاهو ذا "أبو فقاس" أحد تلاميذ جابر بن زيد البارزين وأحد رفقائه إلى رحلة العلم والحج كل عام يختفي من صحبة جابر في الرحلة فيفتقده عبدالله بن عباس حين لايجده ويسأل جابرا : أين صاحبك؟ قال أخذه أبن زياد ، قال أبن عباس لجابر : وأنه لمتهم؟ قال : نعم قال: أو ماأنت متهم؟ قال جابر : اللهم بلى"(١٣٦)

وجابر يصرح لأبن عباس بأنه متهم مثل "أبى فقاس" وأنهما معا وأصحابهما من وراءهما يذهبون مذهبا واحدا في عدم الرضا بسفك الدماء وظلم المسلمين واستحلال حرماتهم وأموالهم ودمائهم وأنهم وهم يرون هذا المنكر

---

(١٣٤) انظر نماذج من هذا الصنع في طبقات المشايخ للدرجيني ج٢ ص ٢٢٤ وما بعدها . وكذلك د/عوض خليفات . نشأة الحركة الإباضية ص ٦٧ .

(١٣٦) العقود الفضية في أصول الإباضية للشيخ سالم بن حمد بن سليمان الحارثي (وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان) ص ١٠٣

يريدون أن يغيروه ، ولكن جابرا الذي كانت روح العلم تغلب فيه على كل شيء كان يدرك أن العلم يفرض عليه رسالة بعيدة المدى عليه أن يحمي نفسه من أجلها وكان أصحابها أكثر حرصا عليه وضنا به من أن يعرضوه أو يدعوه يعرض نفسه للسيوف العمياء التي تحصد الرقاب دون تمييز .

ولقد ساعده على ذلك نفسه الوادعة وطبعته الهادئة وهيئته التي أشرنا إليها والتي لم تكن تلفت النظر إليه ثم حكمته المتزنة فلقد كان ـ كما يقول الشيخ الحارثي ـ يذهب إلى صلاة الجمعة "وكان يصليها خلف زياد وولده عبد الله وخلف الحجاج" وعندما عتب عليه تلميذه وصاحبه حبيب والد الربيع صاحب المسند ، حضور الصلاة خلف هؤلاء الولاة قال جابر في رفق "أنها صلاة جامعة وسنة متبعة"(١٣٧)

ثم جاء الحجاج واليا على البصرة فبلغت موجة العنف والخوف معه مداها وأشاع الرعب في نفوس الناس وأخذهم بالظن وبادرهم بالأنتقام قبل أن يبادروه بالكراهية : "حكى القاضي أبو الفرج المعافى في كتاب الجليس الأنيس قال : لما أراد الحجاج بن يوسف الخروج من البصرة إلى مكة شرفها الله تعالى ، خطب الناس فقال : ياأهل البصرة أنى أريد الخروج إلى مكة وقد أستخلفت عليكم محمدا أبنى وأوصيته فيكم بخلاف ماأوصى به رسول الله ﷺ في الأنصار فأنه أوصى أن يتقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ألا وأني أوصيته فيكم الا يقبل من محسنكم والا يتجاوز عن مسيئكم الا وأنكم قائلون بعدى كلمة ليس يمنعكم من أظهارها إلا الخوف : "لاأحسن الله له الصحابة" وأني معجل لكم الجواب : "لاأحسن الله عليكم الخلافة"(١٣٨)

وهذه الخطبة على وجازتها تغني عما سواها في إظهار مناخ فقدان الأمن والأستقرار عند أهل البصرة عامة وعند مفكريها وعلمائها خاصة ممن كان يظن فيهم الحجاج أنهم يمكن أن يكونوا مصدر تحريض الناس ولقد كان هؤلاء العلماء الذين يجاهرون بأرائهم يقعون تحت طائلة عقاب الحجاج أو يفرون هربا

---

(١٣٧) المرجع السابق ص ٩٧

(١٣٨) وفيات الأعيان لإبن خلكان ج٢ ص ٣٦

بحياتهم إلى أبعد مدى يستطيعون فيه الخروج من دائرة الحجاج ولقد كانت هذه الدائرة تتسع شيئا فشيئا برضاء الخلفاء الأمويين عنه ، فامتد حكم الحجاج إلى العراق كله وإلى مكة والمدينة في فترة القضاء على عبدالله بن الزبير وما بعدها وإلى خراسان وسجستان بداء من العام الثامن والسبعين ، ومن ثم كان رعب الحجاج واسع الدائرة وهذا ماجعل الفرار من قبضته صعبا ، يتطلب الأمعان في البعد أو الأمعان في التنكر عن قرب ، ولقد كان إبراهيم النخمي ممن هربوا [١٣٩] من الحجاج مدة أيامه ، ثم ظهر بعده فقيل له : أين كنت ، قال كنت حيث يقوْل الشاعر :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى   وصـوت إنســان فكـدت أطـير

أى سلاح يمكن أن يواجه به رجل على هذا القدر من القوة والعنف ؟

لقد أختار جابر بن زيد سلاح الحكمة والتروى أو لنقل سلاح "العلم" في مواجهة الحجاج . .فهو لم ينتظر جواسيس الحجاج حتى يكتشفوا أنه رجل صاحب رأى مخالف ومن ثم يقاد للمساءلة والعقاب ولم ينتظر كذلك أن يعلم عنه أنه رجل صاحب علم وفضل فيطلب منه أن يكون عونا للوالي ، فاذا قبل فقد ضاع مايدعوه إليه علمه ومايدعو هو إليه غيره ممن يثق بهم من رفض هذا الأمر ولكن من خلال حسن التأني في الرفض ،وأذا رفض العمل علانية مع الوالي حين يطلب إليه ذلك فقد عرض نفسه للأنتقام قبل أن يؤدى رسالته .

لم يشأ جابر أن ينتظر حتى يحدث شيء من هذا كله ولكنه وضع خطة محكمة تلافى من خلالها هذه المضاعفات كلها ، فقد أحكم أولا صلته بكاتب الحجاج يزيد بن أبي مسلم وكان رجلا يثق في علم جابر وفضله ويجله كثيراً وقد رأينا من قبل كيف ظلت الصلة بينهما قائمة وقوية حتى بعد ذهاب يزيد إلى واسط عندما بناها الحجاج عام ٨٣ هـ ، ومن خلال الصلة بين جابر ويزيد تم تدبير اللقاء الأول بين جابر والحجاج وهو لقاء تتواتر المصادر على روايته على النحو التالي : " كان يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج صديقا لجابر فوفد إليه

---

(١٣٩) نفس المرجع السابق ص ٣٩ .

مرة فأدخله على الحجاج فقال أتقرا ؟ قال نعم قال : اتفرض ؟قال : نعم ، فعجب به ، فقال لاينبغي أن نؤثر عليك أحداً، نجعلك قاضيا للمسلمين قال جابر : أنا أضعف من ذلك ، قال وما بلغ بك الضعف ؟ قال : يقع بين المرأة وخادمها شر فما أحسن أن أصلح بينهما ، قال : أن هذا لهو الضعف قال : فهل لك حاجة ؟ قال نعم : قال وماهي ؟ قال : تعطيني عطائي ، وتدفع عني المكروه قال الحجاج : هذا لايستقيم أن نعطيك من بيت مال المسلمين ولانستعملك لهم ، فقال يزيد : هنا خصلة تخف على الشيخ وفيها عون للمسلمين تجعله في أعوان صاحب ديوان البصرة قال كذلك .

فلما خرجا قال جابر : ماصنعت شيئا أتراني أكون عونا لصاحب الديوان؟ قال يزيد : أكتب لصاحب الديوان أن لايكلفك مؤونة ويعطيك عطاء كاملا وكان عطاؤه سبعمائة أو ستمائة وكان في ديوان المقابلة"(١٤٠)

ولاشك أن الذي روى الخبر على هذا النحو أغفل التفاصيل التي تفهم من السياق والتى يعرفها أهل العصر ، ومنها دون شك تمهيد يزيد بن أبي مسلم لجابر لدى الحجاج أنطلاقا من معرفة وثيقة من يزيد بعلم جابر وفضله ، وإلا فلا يعقل أن يطرح الحجاج على رجل يلقاه للمرة الأولى سؤالين أثنين : اتقرأ ؟ ثم اتفرض ؟ فاذا كان قارئا فارضا أى حاسبا رشحه لولاية القضاء للمسلمين وأنما يبدو هذان السؤالان من الحجاج أستفهاما تقريريا يؤكد بـــه ماوصله من أخبار عن علم جابر وفضله ومكانته ويرشحه من ثم لتولى قضاء المسلمين .

واعتذار جابر يبدوا اعتذاراً مهذبا وإظهارا للتمادى في الضعف وهو أقرار بالعلم الذي ظنه الحجاج ، وأظهار لفقدان الحزم الذي ينبغي أن يكون لدى القضاة لكنه في جوهره موقف أعلن عنه جابر في أساليب أخرى في غير مواقف مقابلة الولاة ويبدوا أن عروض تولى القضاء كانت تلاحقه وتحوم حوله وحول علماء عصره وهاهو ذا عمرو بن دينار يقول : " قال لي جابر بن زيد: أى عمرو،

---

(١٤٠) انظر العقود الفضية في الأصول الإباضية ص ١٠٠ وطبقات الدرجيني ص ٢١١ والدرجيني يقول إنه " ديوان المعاملة " .

كتب الحكم بن أيوب نفرا للقضاء وكنت فيهم ، اى عمرو : فلو كان من ذلك شيء لركبت راحلتي ثم هربت في الأرض "(١٤١)

فالاعتذار عن القضاء عند جابر موقف ثابت وليس ادعاء الضعف إلا وسيلة ظاهرة لعدم القبول. بقى أن يسأل عن السر من سعي جابر للقاء الحجاج وواضح من صيغة الرواية أن جابرا هو الذي طلب اللقاء فقد سأله الحجاج : فهل لك حاجة ؟ فاجاب جابر بالإيجاب ثم حدد حاجته في " تعطيني حاجتي وتدفع عني المكروه " فجابرا أذن هو الذي سعى بهدف محدد يتمثل في العطاء والحماية . .

فهل كان بالفعل في حاجة إلى هذين بالمعنى الظاهر أم أنه يهدف إلى أبعاد أخرى من اللقاء ؟

أما قضية العطاء فينبغي أن نتذكر أن اللقاء تم بعد سنة ٧٥ هـ أى بعد أن كان جابر على مشارف الستين وكان قد مضى عليه في البصرة نحو أربعين عاماً ولاتتحدث سيرة جابر عن عمل معين كان يؤديه لكسب الرزق كما تتحدث مثلا عن معاصره أبن سيرين حيث كان يعمل بزازا فيما ينسبه أبن سعد في الطبقات إلى ميمون بن مهران حين قال : " قدمت الكوفة وأنا أريد أن أشترى البز فأتيت محمد بن سيرين وهو يومئذ بالكوفة فساومته فجعل أذا باعني صنفا من أصناف البز قال : هل رضيت ؟ فأقول : نعم فيعيد على ذلك ثلاث مرات ثم يدعو رجلين فيشهدهما على بيعنا ثم يقول : أقفل متاعك وكان لايشترى ولايبيع بهذه الدراهم الحجاجية فلما رأيت ورعه ماتركت شيئا من حاجتي أجده عنده إلا أشتريته " (١٤٢) .

ولم تتحدث المصادر كذلك أن كان جابراً يأخذ عطاء من عبيدالله بن زياد وزياد بن أبيه أم لا ، والمعروف من سيرته أنه كان يحمد الله على الرزق الكفاف يوماً

(١٤١) كتاب المعرفة والتاريخ للبسوى ج٢ ص ١٤ وانظر حلية الاولياء ص ٨١ .

(١٤٢) طبقات ابن سعد ج٧ ص ٢٠٢

بيوم ، ففيم كان حرصه إذا على طلب العطاء من الحجاج وتقديم ذلك على طلب الأمان ؟

أغلب الظن أن جابرا كان يهدف إلى غاية أبعد مدى من خلال طلبه العطاء وهذه الغاية هي طمأنة الوالي نفسه واعطاؤه لونا من الاعتراف بحكمه وعدم النية في الخروج عليه ومن ثم صرف الأنظار وبواعث الريبة عن نفسه ، ويبدوا أن هذه السياسة الحكيمة أصبحت عرفا متبعا يؤخذ عن جابر وينسب إليه ـ ذلك أن بعض المتحمسين ممن لم يكونوا راضين عن سياسة الولاة الأمويين كانوا يبدأون أظهار عدم رضاهم بأن يرفضوا العطاء بأعتباره عطاء الجبابرة وباعتباره مالا جمع بطريقة لايرضون عنها فيبدأون أعلان أحتجاجهم بالإمتناع عن قبوله وهذه الخطوة ذاتها من شأنها أن تلفت الأنظار إليهم وتركز عيون السلطة حولهم وهو ماتنبه إليه جابر في البداية حين بدأ بطلب العطاء ومن هنا فقد كان صنيعه هذا يعتبر مثلا يحتذى وقد رويت عن سفيان بن الرحيل هذه الرواية التى تؤكد ذلك الأتجاه قال : " تكلمت نساء من المسلمين بعد جابر في المال الذي تجمعه الجبابرة فقلن أنه حرام ثم أفشينه حتى لقين رجلا يقال له أبو الوزير فأجابهن إلى ذلك فقال صدقتن وهممن أن يرفعن ذلك إلى ضمام وأبى عبيدة قال فلم يزل بهن حتى لقين أبا حمزة الأشعث فكلمنه في ذلك فقال لهن أبوحمزة : ومن وافقكن على ماتقلن ؟ قلن أبو الوزير فقال أبو حمزة: أو قد بلغ ضعف أبى الوزير ماأرى ؟ قال ثم نهاهن وأعظم ذلك عليهن فقال : اما إذا زعمتن ذلك فانكن تتقدمن على جابر بن زيد وأبى بلال وأصحابه فأنهم ماتوا وهم يأخذون أعطيتهم قال وبلغ ذلك ضماما فاشتد في ذلك وأعظم قولهن قال : فرجعن وأستغفرن الله ولم يعدن إلى ذكر شىء ذلك " (١٤٣)

فطلب العطاء أذن في لقاء جابر بن زيد بالحجاج كان "حكمة" اكبر منه "حاجة" وكان صرفا للأنظار أكثر منه جلبا للدراهم والدينار .

أما طلب الحماية والأمان فقد كان هو المنشود حتى يواصل جابر رسالته في سبيل جمع العلم ونشره وهداية خلق الله به ، ولكن الحجاج كان له شرط

(١٤٣) طبقات المشايخ للدرجيني ج٢ ص ٢٠٩

للإستجابة للمطلب وهو يتمثل في ضرورة العمل في الدولة ولعله بدوره لايريد من "العمل" مجرد اداء العمل وأنما يريد ماوراء ذلك وهو إظهار الولاء علنا ، وليس بمطلوب من شيخ على مشارف الستين أن يقوم بعمل يومي في أحد الدواوين ومايهدف إليه الحجاج هو مالايرغب فيه جابر ، ولكن يزيد بن أبى مسلم يجد حلا شكليا يتمثل في أن يسند إلى جابر "عمل شكلي" في ديوان المقابلة بالبصرة وإلا يذهب إلى ذلك العمل .

على هذا النحو يكون لقاء جابر بن زيد بالحجاج نموذجا للقاء الحكمة بالقوة وتصرف العلم أمام سطوة السيف ويكون الرجل قد ضمن الهدوء وأستمرار عمله ورسالته دون أن يبذل من نفسه ماليس يرضاه .

والحق أن المناخ المحيط بالحجاج ورجالة في البصرة كان يستحق كثيرا من التحوط من جانب رجل له رسالة جابر بن زيد وطبيعته .

كان الحجاج قد أحيط بجو أسطورى من الرعب والرغبة في سفك الدماء حتى أن قيل أنه كان يشرب الدماء وهو طفل رضيع وقد روى المسعودي بعضا من هذه الأساطير في مروج الذهب فقال : " ولد الحجاج مشوها لادبر له فنقب عن دبره ، ثم أبى أن يقبل ثدي أمه أو غيرها فأعياهم أمره فيقال : أن الشيطان تصور لهم في صورة الحارث بن كلدة (حكيم العرب) فقال : ماخبركم ؟ فقالوا : بُنِيَ ولد ليوسف وقد أبى أن يقبل ثدى أمه فقال : أذبحو له جديا أسود وأولغوه دمه فأن كان اليوم الثاني فافعلوا به كذلك فأن كان اليوم الثالث فاذبحو له تيسا أسود وأولغوه دمه ثم أذبحو له أسود سانحا فأولغوه دمه وأطلوا به وجهه فأنه يقبل الثدى في اليوم الرابع قال ففعلوا به ذلك ، فكان لايصبرعن سفك الدماء لما كان منه في أول أمره " (١٤٤) .

وهذه الأسطورة التى تبلغ من الشيوع حدا يجعل مؤرخا كالمسعودى يثبته في مروجه ويجعل المؤرخين الآخرين ينقلونه عنه لتدل أكثر من عشرات الروايات الحقيقية التى يمكن إيرادها على مدى الأثر الذى تركه الحجاج في نفوس معاصريه

(١٤٤) المسعودى مروج الذهب ج٣ ص ١٣٢

وعلى مدى الطيش الذى يمكن أن يلحقه بهم ولقد قيل أنه " لما ظفر بأصحاب أبن الأشعث جلس لضرب أعناقهم عامة النهار فأتى آخرهم برجل من تميم قال له : والله ياحجاج لئن كنا قد أسانا في الذنب لما أحسنت في العقوبة ، فقال الحجاج : أف لهذه الجيف أما فيها رجل يحسن مثل هذا؟ وعفا عنه " [١٤٥] وذلك واحد من الأدلة على سفك الدماء وتقلب المزاج وتأثير الكلمة في وقت واحد فيه .

وأذا كان القتل هو نهاية المطاف للمخالفين فقد كانت تسبقه وسائل التعذيب ونزع الأعترافات وقد سبق وأن رأينا كيف كان رجال الحجاج يثرون من وراء أنتزاع الأعترافات ويبدو أنه كان يلجأ إلى وسائل قاسية في التعذيب " وكان من جملة ما يعذب به الرجل أن يشد عليه القصب الفارسي المشقوق ثم يجر حتى يجرح جسده ثم ينضح عليه الخل والملح " [١٤٦]

وكان التجسس على مجالس العلماء شائعا وإن العلماء ليدركون ذلك حين يرون بين الجلوس فتيانا ليست لهم هيئة طلاب العلم ولاعندهم تساؤلاتهم وهاهم بعض طلاب الحسن البصرى يقولون : كنا عند الحسن جلوسا وعنده فتيان لايسألونه عن شىء فجعل بعضهم ينظر إلى بعض فقال : مالهم حيارى ، مالهم تفاقدوا؟ ثم قال الحسن : أنه ليجالسنا في حلقتنا هذه قوم مايريدون به إلا الدنيا ثم قال : رحم الله عبدا لم يتقول علينا مالم نقل " [١٤٧]

وكان جزء من مهمة هؤلاء الجواسيس أن يعرفوا الميول السياسية للعلماء وأراءهم فيما كان يسمى بالفتن ويطلق على الطوائف التي ترى في الحكم أراء مخالفة لما يراه الأمويون وتعبر عن أرائها تلك من خلال " الخروج على الدولة وهاهو رجل يحضر مجلس الحسن البصرى وفي المجلس نفر من أهل الشام وهم الصق الناس بالخليفة الأموى ـ فيقول للحسن البصرى : ياأبا سعيد ماتقول في الفتن مثل يزيد بن المهلب وأبن الأشعث ؟ فقال الحسن لاتكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء وإذا برجل من أهل الشام يقول : ولامع أمير المؤمنين ياأباسعيد ؟ فيغضب

---

(١٤٥) وفيات الأعيان لإبن خلكان ج٢ ص ٣٩

(١٤٦) المرجع السابق ص ٣٨

(١٤٧) الطبقات الكبرى لإبن سعد ج٧ ص ١٦٩

الحسن ويردد السؤال : ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ؟ ثم يقول : نعم ولامع أمير المؤمنين . (١٤٨)

هكذا أذن كان مناخ العصر وكانت أستشارة العلماء وكانت وسائل التعذيب ثم كانت سيوف المنايا ، وكانت طبيعة جابر بن زيد أهدأ من هذا كله ، وكان أصحابه يضنون عليه أن يتعرض لشيء منه وكان حرصه على رسالته يجعله ينأى عن مهب الريح ، ومن هنا كان لجوؤه إلى مفتاح الحكمه في لقائه المحكم مع الحجاج وهو لقاء ضمن له قدرا طيبا من الهدوء النسبي ومواصلة اداء رسالته العلمية في أمان ، من تكوين تلامذته وحملة العلم عنه ، وتدوين مسائله ، وتوثيق آرائه وأحكامه .

وكان هذا الهدوء يلازم جابراً حتى في مناقشاته العلمية فتجعله ينأى عن مواطن الخلاف ويبحث عن مواطن التشابه ويبتعد عن شبهة التعصب لطائفة أو جماعة أو التعصب ضد طائفه أو جماعة مما احله في نفوس جميع المسلمين محلا رفيعا وأن تلميذه عمرو بن دينار ليسألة ذات مرة عن رسالة شاعت في عصره وكتبها الحسن بن محمد بن علي بن أبى طالب يعبر فيها عن رأيه في الأحداث الكبرى للتاريخ الأسلامي وتأويلاتها التي شغلت الناس في ذلك العصر فيقول له جابر : أقرأ علي رسالة الحسن ، فيقرأ عمرو مافي الكتاب من الوصية بالتقوى والموعظة باتباع كتاب الله وسنة رسولة . . ثم يقول في آخره : " ونوالي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، نجاهد فيهما لانهما لم تقتتل عليهما الأمة ولم تشك في أمرها ونرجيء من بعدهما ممن دخل في الفتنة فنكل أمرهم إلى الله فيقول جابر معلقا على الرسالة : " والله ماأحببت شيئا كرهه ولاكرهت شيئا أحبه "(١٤٩) .

ولكن هذا الهدوء في الرأى والبحث عن مواطن التشابه التي تجمع عليها الأمة لم يكن ليمنع جابرا من أن يخالف . بل أن بعض الروايات لتذهب فى ذلك إلى مدى بعيد حتى تورد أن جابرا كان يرد على الحجاج ردودا تتسم بالشدة كقولة حين طلب منه أن يناوله قلما وقع منه وجابر فى مجلسه : " قال له الحجاج ناولنى

(١٤٨) المرجع السابق ص ١٦٤

(١٤٩) انظر كتاب المعرفة والتاريخ للبسوى ج٢ ص ١٣ وانظر في الهامش جزءاً من نص رسالة الحسن وقد نقلها المحقق عن تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني .

القلم ، فقال جابر : "قال رسول الله" لعن الله الظالمين وأعوانهم وأعوان أعوانهم ولو بمدة قلم " .

وبعض الروايات تنسب إلى جابر أنه كان يبدأ باستثارة الحجاج كما حدث حين سأله الحجاج عن أول آية في البقرة فقال جابر تلك للمؤمنين وعن الثانية فقال تلك للكافرين وعن الثالثة فقال له : فيك وفى أصحابك وهي آية نزلت فى المنافقين .

والحق أن طبيعة جابر الهادئة فى مناصرة الحق ومقاومة الطغيان ومنهج " العلم " الذي كان يرتضيه يجعل شخصيته أقرب إلى المجادلة والمحاورة منها إلى الأستنفار والإثارة وهو مايجعل مثل هذه الأخبار تبدو " منفردة " بالقياس إلى ملامح شخصيته التى أشرنا إليها .

ولقد كان يناقش ويخرج عن صمته عندما يرى أنتهاكا لحرمات المسلمين وعلى نحو خاص لحرمة الدماء وكان بعض الخوارج في عصره قد بالغوا في الثورة والخروج فكفروا كل من خالفهم ولم يسر على رأيهم ومن ثم أستحلوا أموالهم وسبي نسائهم وأشاعوا بذلك نوعا من الرعب والفوضى في نفوس المسلمين يضاف إلى ماكان يلقاه هؤلاء من عنت الحكام وظلمهم ولم يرض جابر عن سلوك هؤلاء المتشددين فكان يخرج إليهم يحاورهم بالعلم سلاحه الأول حتى يفحمهم ، يقول ضمام بن السايب " كان جابر يأتي الخوارج الذين أستحلوا أموال أهل القبلة وسبي ذراريهم ونسائهم فيقول لهم : اليس قد حرم الله دماء المسلمين بدين ؟ فيقولون : بلى ، فيقول : وحرم البراءة منهم بدين فيقولون نعم ، فيقول : أوليس قد أحل دماء أهل الحرب بدين بعد تحريمها بدين ؟ فيقولون :نعم فيقول : هل أحل الله مابعد هذا بدين ؟ فيسكتون " (١٥٠)

ولاشك أن هذا النقاش العلمي العلني يفت في عضد المخالفين ويقلل من قوة الذين يستبيحون حرمات المسلمين وجابر كان حريصا على أن يعلن رأيه هذا على الملأ لكيلا تذهب أحدى هذه الفرق المخالفة فتنسب نفسها إليه. وهذا التشدد وتلك الغيرة على حرمات المسلمين تجعلنا نتصور أهمية الدوافع التي تجعل جابرا يجيب

(١٥٠) العقود الفضية في أصول الإباضية للحارثي ص ٩٨ وطبقات المشايخ للدرجيني ج٨ ص ٢٠٩

شابا أتاه يسأله عن أفضل الجهاد فيدله على قتل خائن يسمى خردلة بل ويشير إليه فى المسجد ويلمس كتف لئلا يخطئه الشاب ، الذي يتقدم نحو خردلة بخنجر مسموم فيقضى عليه[١٥١] ، فلا شك أن دماء خردلة لم تستبح في رأي جابر ، إلا لأنه كان يمثل خطراً على دماء المسلمين من خلال وشايته بهم إلى الولاة ، وتسببه في أهدار دمائهم .

على أن جابرا لم يسلم رغم هذا التحوط كله من الأذى والسجن والنفى ، فقد زج به في السجن مرات ، وقد رأينا من قبل ، كيف سجن لكي يعطل عن أداء فريضة الحج وعن رحلة العلم إلى مكة والمدينة ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تأكد ساجنوه أنهم فوتوا الفرصة عليه ، ومع ذلك فقد حملته ناقته وبلغت به عرفات في نصف الزمان المعهود فأدرك ماكان مقدرا له أن يدرك .

ولقد سجن مرة أخرى في عهد الحجاج ، ومن الطريف أنهم جاءوا يبحثون عنه في السجن ليفتيهم في مسألة فقهية أشكلت عليهم وساقوه إلى الحجاج مقيدا لكي يسأله: مارأيك في توريث الخنثى؟ فقال: أتستفتونى وفي رجلي قيودكم؟ قالو: نعم فأفتاهم رغم ذلك لأنه لايكتم العلم وقال : أنظروا من أين يبول فورثوه على أساس من ذلك [١٥٢] .

وكان الإيذاء قد بدأ يلحق بجابر من قبل الحجاج مع الحروب التي خاضها الحجاج مع أزد عُمان عندما ثاروا بزعامة سعيد وسليمان أولاد عباد بن الجلندى وأرسل الحجاج حملات عدة لقمع الثورة لكنها باءت جميعها بالفشل ، ثم أرسل جيشا كبيرا بقيادة القاسم المزنى فهزمه العمانيون أيضا ، وهنا ثارت ناثرة الحجاج فوجه إنتقامه للأزد المقيمين فى البصرة وعلى رأسهم جابر بن زيد فحبسهم ، ثم لم يلبث أن أطلق سراح جابر ونفاه مع هبيرة جد أبى سفيان محبوب بن الرحيل إلى عُمان [١٥٣] .

---

(١٥١) المرجع السابق : ص ١٠٠ .

(١٥٢) العقود الفضية ص ٩٩ .

(١٥٣) أنظر مزيداً من التفاصيل فى نشأة الحركة الإباضية ص ٩٩ ومابعدها .

هكذا أدت سياسة الحكمة والعلم في مواجهة الطغيان إلى سلامة جابر وسلامة دعوته وسلامة علمه حيث حل ، حتى في السجن بحل معه العلم ويستفتى به ، وحتى في المنفى يعود إلى الأرض التى خرج منها منذ نحو نصف قرن مشتاقا إلى العلم ، ضاربا الآفاق في سبيل البحث عنه ، فإذا به يعود محملا بثماره ، فيكون نفيه خيراً وبركة على أهل عُمان ، فينشر بينهم ضوء العلم الذي يتعطش الكثير من بينهم له كما كان جابر يتعطش منذ نصف قرن ، ويمهد الطريق " لحملة العلم " الذين تكونوا على يديه في البصرة ، والذين سيرحلون إلى عُمان في وقت لاحق بعد وفاة جابر ، لكي ينشروا العلم الذي عاش له جابر ، وكافح في سبيله ، وطور تقاليده في الأسلام توثيقا وتدوينا وتعليما ، وحوله إلى سلوك يتبع في مواجهة الطغيان ، وإلى أمواج صافية من النور تسرى على مدى الأزمان .



آثار جابر

المخطوطة والمطبوعة

خلف جابر دون شك أثارا علمية تمثلت حينا في الرجال الذين أعدهم لكي يكونوا حملة العلم إلى الآفاق البعيدة فحملوا اراءه وأفكاره وبثوها في كتب الحديث والتفسير وغيرها من فروع المعرفة التي خاضوا فيها ـ

وإلى جانب هؤلاء التلاميذ كان جابرا قد دون كما رأينا كتابه الكبير " الديوان " الذي عاش قرونا طويلة من بعده في مكتبات العراق والحجاز والمغرب ثم أختفى أثره دون أن يفقد العلماء الأمل في العثور عليه .

ومع أختفاء " الديوان " فهنالك بعض الآثار الموجودة والتي تنسب لجابر بن زيد وهي آثار يحتمل أن تكون جزءا من ذلك الديوان المفقود وتتمثل هذه الآثار في شيئين :ـ

١ ـ رسائل جابر بن زيد وتوجد منها نسخة مخطوطة بالمكتبة الإسلامية بمسقط .

٢ ـ من جوابات الإمام جابر بن زيد وقد طبعت سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م بترتيب الشيخ سعيد بن خلف الخروصي .

وسوف نعرض في هذا الفصل لهذين العملين .

١ ـ رسائــل جابــر

تتكون هذه الرسائل من سبع عشرة رسالة ، وتوجد منها نسخة مخطوطة بالمكتبة الإسلامية بمسقط وهي نسخة منقولة عن نسخة أخرى أشير إلى أنها موجودة بالمملكة المتحدة (دون تحديد لاسم المكتبة أو المدينة) .

ونسخة المكتبة الإسلامية مشفوعة ببعض التعليقات والتصويبات الخفيفة دون ذكر لاسم من قام بها ، وهي مكتوبة على الآلة الكاتبة وقد كتب على كل رسالة عنوانها بخط حديث وقد تركت في بعض السطور فراغات بيضاء للكلمات التي لم يهتد الناسخ إلى قراءتها وورد فيها نماذج قليلة من كلمات نسخت عن الأصل [١٥٤] بطريقة الخط القديمه أو صورت ووضعت وهي تشير إلى أن الأصل كتب بخط نسخ قديم .

وتمتاز الرسائل السبع عشرة بالتجانس من حيث الشكل فهي جميعا منسوبة إلى جابر بن زيد وتبدا جميعا بالبسملة ثم بعبارة " من جابر بن زيد إلى فلان " وقد تعكس هذه العبارة الأخيرة كما جاء في صدر الرسالة السادسة عشرة فيقال بعد البسملة " لعبد الملك بن المهلب من جابر بن زيد " [١٥٥]

بالإضافة إلى ذلك فإن البناء الفني للرسائل جميعا يسير على خطة واحدة ويسير كذلك إسلوبها على نسيج واحد مما يؤكد صدورها جميعا عن كاتب واحد وفيما يتصل بالنسبة للبناء الفني تتشكل كل رسالة على النحو التالي :ـ

١ ـ البسملة

٢ ـ تحديد المرسل منه والمرسل إليه .

٣ ـ التحية بالسلام .

٤ ـ مقدمة وعظية رقيقة قد تطول وقد تقصر .

---

(١٥٤) انظر الرسالة التاسعة ص ٢٤

(١٥٥) الرسالة السادسة عشرة ص ٣٧

٥ ـ رد على تحية المرسل وشكر له على السؤال .
٦ ـ إجابة على أسئلته الفقهية التى طرحها في رسالته مع تواضع علمي بالغ .
٧ ـ توصية المرسل إليه فى بعض الأحيان بأن يكتم أمر الرسالة .
٨ ـ تحيـــــة الختـــام .

هذه هي النقاط التي تشكل الهيكل الفني الذي تشترك فيه جميع الرسائل ، وهو إشتراك يؤكد وحدة المنبع فإذا أضيف إليه خصائص الأسلوب الرفيع الذي تتمتع به جميعا وتناسق المعلومات الواردة بها عن كاتبها وعن عصره ، مما ستشير إليه أمكن الاطمئنان العلمي إلى صحة نسبة الرسائل إلى جابر وهو أطمئنان يحتاج بالطبع إلى مزيد من التثبت من خلال العثور على نسخة أصلية للمخطوطة أو أكثر ومقابلتها وتحقيقها .

ونود الآن أن نعود إلى بعض هذه النقاط بشىء من التفصيل ونستطلع من خلال ذلك بعض جوانب هذه الرسائل الهامة .

يلاحظ أن هذه الرسائل جاءت جميعا ردا على رسائل سابقة وردت إلى جابر في البصرة من أطراف متعددة لم تحددها الرسالة ولكن يفهم من بعضها أنها واردة من عُمان كما هو الشأن في الرسالة الثامنة والرسالة الخامسة عشرة وبعضها الآخر وارد من بلاد فارس حيث ترد كلمة " الدهاقين " في الإشارة إلى نظم زراعة الأرض وتملكها كما هو الشأن في الرسالة التاسعة والرسالة السابعة عشرة .

وهذا التنوع الجغرافي للرسائل له دلالات هامة :ـ
ـ منها أن جابرا كان قد نجح في تمكين طريقته في " التدوين " كوسيلة حضارية لنقل العلم وتبادل الرأى والفتوى مع من يحتاج إليها في أرجاء العالم الإسلامي وهي نقلة حضارية أشرنا إلى قيمتها فيما سبق وإلى أهميتها وضرورتها مع أتساع رقعة العالم الإسلامي وتجدد مشكلات الحياة التي تبحث عن اراء العلماء ولاتجد الوقت لانتقال السائلين من أطراف الأرض إلى البصرة أو ألى مكة المكرمة والمدينة، والرسائل من هذه الناحية تثبت أهمية

وفعالية الوسيلة الحضارية التي ناصرها جابر وتحمس لها وهي وسيلة " التدوين والكتابة " .

ـ ومن الدلالات كذلك أن شهرة جابر وعلمه قد ملأت الآفاق وأن الناس يكتبون إليه من بلاد بعيدة ويبحثون عن فتاواه على نحو خاص وجابر يشير إلى شيء من ذلك في الرسالة السادسة عشرة حين يقول : " أتاني كتابك الذي تسألني فيه من الذي تزعم أن صدوركم لاتثلج إلى فتيا غيري فلعمرى ماأنا إلامتعلم متبع آثاراً قد وطئت قبلي ، وماعندي من ذلك ثقة ولادلالة إلا رواية عسى أن نختلف فيها " (١٥٦) وهي عبارات مشبعة بروح التواضع الجم عند العلماء .

رسائل جابر أذن رسائل "رد" وليس رسائل "طلب" فعلى من يرد جابر في رسائله ؟

تحدد الرسائل السبع عشرة أسماء من توجهت إليهم فيما عدا الرسالة الأولى التي ضاعت صفحتها الأولى من المخطوط وهي الصفحة التي تحمل أسم المرسل إليه ومن ثم فهي تحمل في المخطوطة عنوان : " رسالة جابر بن زيد إلى أحد أصحابه " وبقية الرسائل ممهورة بأسماء من توجهت إليهم ، وبعض هؤلاء تلقى أكثر من رسالة كطريف بن خليد الذي وجهت إليه الرسالة الثالثة والرابعة عشرة وعبد الملك بن المهلب الذي تلقى الرسالتين السادسة عشرة والسابعة عشرة ومالك بن أسيد الذي تلقى الرسالتين العاشرة والخامسة عشرة ونعمان بن سلمة الذي تلقى الرسالتين الثانية عشرة والثالثة عشرة وفيما عدا هؤلاء فأن رسالة واحدة وجهت إلى كل من :ـ عثمان بن يسار ـ غطريف بن عبد الرحمن ـ الحارث بن عمر ـ عنيفة ـ نافع بن عبدالله ـ يزيد بن يسار ـ عبدالعزيز بن سعد ـ سالم بن زكوان .

ومعظم هذه الشخصيات لاترد عنها معلومات في كتب التراجم والطبقات الشائعة فيما عدا عبدالملك بن المهلب بن أبى صفرة الأزدي أخا

---

(١٥٦) الرسالة السادسة عشرة ص ٣٨

يزيد بن المهلب والذي خرج معه على عبد الملك بن مروان وكان من شجعان العرب وأشرافهم وقد توفي بالسند عام ١٠٢ هجرية .

لكن الرسائل نفسها يمكن أن يستشف منها بعض المعلومات عن الأفراد الذي أرسلت إليهم وأماكن معيشتهم أو منزلتهم الإجتماعية .

فالرسالة الخامسة الموجهة إلى الحارث بن عمرو ترد فيها هذه العبارة التي يوجهها جابر إليه : " فما زلت والحمد الله أخبرك انذي بلغك الله من الفقه في الدين والنصيحة ومنتهى ماترجو فيه فواضل الأمور فأتم الله عليك النعمة وزادك من فضله ، فأنت ممن نحب وتقر علينا عينه ونحب رشده ورضاه وعافيته أنت سيدنا وقديمنا وكهلنا ومن نرجوه لكل منفعة وشديدة تنوبنا ، فأتم الله علينا وعليك الذي أعطانا من فضله وزادنا شكرا برضائه عنا " (١٥٧) ويفهم من ذلك أن الرسالة موجهة إلى أحد شيوخ العصر وعلمائه ممن يكبرون جابرا سنا ، وذلك مايجعل من المستبعد مثلا أن يكون المقصود بالحارث بن عمرو الحارث بن عمر الطائي معاصر جابر والذي كان واليا على البلقاء وأرمينيه وأذربيجان لان وفاته كانت عام ١١٢ هـ أى بعد وفاة جابر بنحو عشرين عاما وجابر قد توفى في الخامسة والسبعين من عمره فاذا كان الحارث يكبره على الأقل بعشرة أعوام كما توحي بذلك لغة الرسالة فلا بد أن يكون قد جاوز المائة ولو كان قد عمر لاشارت كتب التاريخ لذلك وهي لم تشر .

أما يزيد بن يسار الذي وجهت إليه الرسالة الثامنة فتشير بعض سطور الرسالة إلى أنه كان واليا على عمان ، يقول له جابر : " وقد أتاني كتابك تذكر الذي ولاك الله من أهل عُمان مما أبتلاك به وتخبرني أنك حريص على الأقتصاد فيه " (١٥٨)

وإلى عُمان أيضا توجهت الرسالتان العاشرة والخامسة عشرة توجهتا إلى مالك بن أسيد الذي كان من ذوى الشأن كما يفهم من قول جابر له : " وقد علمت

---

(١٥٧) الرسالة الخامسة ص ١٣

(١٥٨) الرسالة الثامنة ص ٢٢

كيف تطاهرت عليك نعم الله وقد خلقت لأمر أتخذ الله عليك فيه الحجة وبلغك من الله العذر والنذر وقد فهمت الذي أمرت به وبين لك الذي نهيت عنه ليعلم الله كيف تعمل لما خلقت له ، وكيف شكرك لما أنعم الله عليك " (١٥٩)

وإذا كانت هذه السطور تبين أنه كان يلي أمرا هاما فان سطورا أخرى في نفس الرسالة تبين المكان الذي كان يقيم فيه وتحكي موقفا من مواقف حنين جابر المستمر إلى موطنه الأول عُمان ، فهو يقول لمالك في رسالته : " أنك كتبت لاكتب إليك أن تشتري لي ناقة من أبل عُمان فان رأيت ذلك فأفعل وقد كان يعجبني أن تأتيني ناقة نجيبة من نجائب عُمان فاشترلي نجيبة . . يعجبك حسنها ومشيها وحسن دلها ، فأني شيخ قد كبرت وهي حاجتي لسفر بعيد . . فأن تيسر بعثها فابعث بها إلى مع من شئت أنت وأكتب إلى بثمنها الذي تشتريها به فأرسل به إليك أن شاء الله " (١٦٠)

وأما عبدالعزيز بن سعد الذي وجهت إليه الرسالة التاسعة فيفهم من سطور الرسالة أنه كان يلـي بعض أمور المسلمين في بلاد فارس وما وراءها فقد جاء في الرسالة : " وقد أتاني كتابك تذكر فيه حسن دفاع الله عنك وزعمت أنك وليت أمرا "ثم جاء بعد قليل قوله : " واما ماذكرت من رجل بعث على عمل فتنزله دهاقين الأرض . . الخ (١٦١)" وعبارة دهاقين ترد عند توجيه الكلام إلى عبد الملك بن المهلب في ختام الرسالة السابعة عشرة حيث يقول : " واما الذي ذكرت من شركة الدهاقين في أرضهم فلا يحل لمسلم شركة مشرك من أهل الكتاب لما يستحلون من الذي يحرم عليهم "(١٦٢) .

اما نعمان بن سلمة . . الذي توجهت إليه الرسالتان الثانية عشرة والثالثة عشرة فتدل لغة الرسالة وطبيعة المشكلة التي يطرحها على جابر والحل الذي يقترحه عليه جابر على أنه كان عاملا للخراج في بلاد العجم والمشكلة التي كانت

---

(١٥٩) الرسالة الخامسة عشرة ص ٣٥

(١٦٠) الرسالة الخامسة عشرة ص ٣٦

(١٦١) الرسالة التاسعة ص ٢٤

(١٦٢) الرسالة السابعة عشرة .

تواجهه وعرضها على جابر كانت هي مشكلة الوسطاء من الدهاقين الذين يتوسطون بين عامل الخراج وزارع الأرض لكي يضمنوا له إداء الخراج ويتخذوا في سبيل جمعه الأساليب التي يرونها تكفل جمع المال ورد جابر على المشكلة يدل على بصر واع ورحمة واسعة بالمسلمين وبعد نظر في أمور السياسة والأقتصاد فهو يقول له : " كتبت إلي أن أدلك على المخرج من الذي أنت فيه وتأمرني أن أبين لك العدل في الذي أنت فيه ولعمري لو أخذت في ذلك بأمر أهل العدل لوسعك ذلك فان كان في ذلك حاجتك فأجمع أهل أرضك ثم ادع كل أنسان منهم فاسأله مايطيق ، فأنه ليس منهم أنسان إلا كان سيحمل من ذلك أمرا يكون لك يه كفاية فأن الدهاقين يأخذون أضعاف ماكانوا متحملين لك ، لايصل من ذلك إلى بيت المال إلا القليل ، يمسكونه لأنفسهم ويأخذون الشرط دونهم ، وأمور كثيرة تغشاهم ولايصل إلى بيت المال منه كثير ، فأنظر كل أنسان منهم تحمل لك أمرا فقل ليس عليك دهقان دوني ولاشرطي ، أن تشأ أن اكتب لك صكا بذلك وتدفع إلي الذي تحملت لي وأن لم يكن عندك اليوم فتحمله في طلب ذلك فاذا رفعت إلي شيئا من ذلك ، كتبت لك به صكا فأن الرجل لعله يؤخذ منه ثلاثمائة فلا يصل إلى بيت مالكم منه مائة درهم تذهب دونكم ومتى توضع عن صاحب الثلاثمائة مائة وتؤخذ منه مائتا درهم يبقى له مايعيش به وتصيب حاجتك ، فهذا أمر أن أخذت به أهل أرضك تكون لهم فيه راحة ، وأرجو أن تستخرج منهم أمرا يكون أضعاف مالو حرصت فيه على خراب أموالهم لم تعْدُ ذلك " (١٦٣) .

ونعمان بن سلمة هو الذي تلقى كذلك رسالة أخرى خصصت للحديث عن خرص النخيل بعد الرسالة التي أشرنا إليها والتي خصصت لتنظيم بيت المال . اما طريف بن خليد الذي توجهت إليه الرسالتان الثالثة والرابعة عشرة فيبدوا أنه من أهل البيت النبوي فجابر يخاطبه قائلا : " أتاني كتابك تذكر فيه سلامتك وتعظم مابيني وبينك فيما قسم الله ، فنحن بذلك عارفون ومنتصحون فيه فأنت ممن نحب صوابه ورشده وتوفيقة لما أعطاكم الله أهل البيت من الشرف في الأسلام والرضا في أهله والثقة عندهم " (١٦٤)

---

(١٦٣) الرسالة الثالثة عشرة ص ٣١

(١٦٤) الرسالة الرابعة عشرة ص ٣٣

وعلى هذا النحو تساعدنا عبارات الرسائل نفسها في كشف جوانب بعض الشخصيات التي كانت تحرص على معرفة رأى العالم الفقيه جابر بن زيد والأسترشاد بأرائه في مختلف الأمصار الأسلامية لذلك العهد .

كانت الرسائل تتضمن إجابات على أسئلة فقهية وجهت إليه لكنها كانت تمهد دائما قبل الإجابة بتهيئة النفس لتلقي الحكم الشرعي من خلال التذكير بأداب الدنيا والدين ، ومن خلال مقدمات وعظية رفيعة المستوى .

وفي هذا الإطار فأن ماتضمنته مقدمات الرسائل عند جابر ينتمي إلى أرفع الطبقات في الأدب العربي والأدب النثرى على نحو خاص، في أسلوب مرسل أخاذ ولكنه يعتمد على تتابع المقابلات وهي مقابلات فكرية محكمة وليست مقابلات لفظية جوفاء كما شاع بعد ذلك في أدب الرسائل على نحو خاص وعندما يقول جابر : " وأعلم أن الأحمق الجاهل من طلب مخادعة الخالق خالق الخداع " [١٦٥] فأنه لايلجأ فقط إلى رد الاعجاز على الصدور ، ولكنه يلمس عمق المعنى وجوهره ويصل من خلال التعبير الجيد إلى مستوى من المعنى لايصل إليه التعبير العادى ولايدرك كنهه إلا أصحاب البصائر النافذه .

وهو يلجأ إلى المعاني المجردة الدقيقة فيجسدها ويجعلها تتحرك أمام العين ، بل أنه ليجعلها تتصارع فيما بينها وعلى المرء أن يجعل من نفسه حكما بينها لئلا يضل بينها ، وهاهو ذا يقول لمالك بن أسيد : " أوصيك بتقوى الله فأن التقوى مقبول فيها العمل ومغفور فيها الذنوب ، وأن المتقين غرباء في أهل الأرض يعرفون حين ينظر إليهم وحين يتدبر أمرهم في العواقب وعند عزائم الأمور ، وعليك بتقوى الله فترى بها في مجالسك كلها ومواطنك ، وأعلم أنك تؤتى من قبل الله ولن يحيف عليك ولا لك ، فأذا جاءك كتابي فكن قاضيا على نفسك وأجتمع أنت وخصمك عند كتاب الله ، ثم ليقص كل واحد منكما قصته على كتاب الله فأن جمع أمركما قدوما على ذلك، وأن فرق بينكما فليؤت أحدكما صاحبه ولاتشقيا وليعترف أحدكما لصاحبه فأن التنازع والتشاجر هلاك لأمركما وأعلم أن خصمك في ذلك

(١٦٥) الرسالة الرابعة ص ١٠

عملك ، فأن قضى لقولك واصطلحا ، فليتعرف من أمركما (مايعرف) وأن نقص العمل القول كان ذلك غاية الفساد ، الحكم بينكما كتاب الله لا خيرة فيه ، ولامنازعة بهوى نسأل الله ونطلب إليه بغير دالة ندل بها ولاقوة ولاخير نمن به " (١٦٦) .

أن هذا النموذج يشير إلى لون من الأدب الرفيع الذي يتصدر كل رسائل جابر ويكشف عن لون من الأداء التعبيري الراقي الذي ينبغي أن يُهتم به في تاريخ الأدب لذلك العصر فضلا عن الأهتمام به في مناهج تقويم النزعات وتوجيه السلوك ،

وأذا كانت سبع عشرة رسالة عثر عليها تشف عن ذلك القدر فكيف يمكن أن يكون " ديوان جابر " على ضخامته من هذه الناحية لو تم العثور عليه ؟

★ ★ ★ ★

إلى جانب المقدمة الأدبية الوعظية لكل رسالة فأنه يوجد قدر من الأسئلة الفقهية تجيب عليها الرسائل ولانريد أن ندخل هنا في تفاصيل المسائل الفقهية التى تعرضت لها الرسائل وإنما نشير إلى إنها كانت في مجملها تتصل بالمشاكل الجديدة التي واجهها المسلمون نتيجة التوسع في الفتوحات ومأأفاء الله عليهم به من غنائم وسبايا ومن هذا المنطلق فأنه يمكن أن نرى نوعين من المشاكل تسيطران على الرسائل :

أولهما : مشاكل تتصل بالأرض الزراعية وطريقة التعامل مع زارعي الأرض مشاركةأو مؤاجرةثم ثمار الأرض وطريقة التعامل بها بيعا أو بدلا آجلا أو عاجلا وغير ذلك مما يعرض من مشاكل الزراعة .

ثانيهما : مشاكل تتصل بالتعامل مع النساء وربما الأماء منهن على نحو خاص ومايتفرع عن التعامل معهن من أن تنتقل إحداهن من مكان إلى مكان بالبيع أو الشراء، وحدود المعاملة التي تقود إلى الإنجاب ومايتصل بهذه المعاملة من أصول وقواعد .

---

(١٦٦) الرسالة العاشرة ص ٢٥

والملاحظ على ردود جابر أنها ردود عالم صاحب رأى ولكنه يطرحه في تواضع ودعة ، وأعتراف بفضل السابقين وهو كثيراً مايشير إلى ذلك ، يقول في رده على كتاب " عنيفة " أتاني كتابك في الذي تحب أن تسألني عنه مما (ترجوني) أن أبلغ فيه ماتطمئني إليه ، فأنما ذلك بالله وسنته ، ليس من ذلك شيء إلا مايروى الناس عن الناس ، واما من رأى عندنا فنحن في ذلك أنقص رأيا " (١٦٧) .

وهو يزيد هذا المعنى وضوحا وتأكيدا في رسالة إلى عبد الملك بن المهلب حين يقول : " ورأى من قبلنا أفضل من رأينا الذي نرى ، لم يزل الآخر يعرف للأول وكانوا أحق بذلك المهاجرين مع رسول الله ﷺ والتابعين لهم بأحسان فقد شهدوا وعلموا والحق علينا وطيء أقدامهم وأتباع أثرهم وأعلم أنه لم يهلك قوم قط حتى نازع الآخر الأول في العلم أذا تمسك أهل العلم بعلمهم " (١٦٨) .

على هذا النحو لايصير العلم حكما يلقى وأنما يصير تواصلا وإمتدادا ومودة ورحمة ، وتصبح فتوى العالم منهجا يجيب على سؤال السائل لكنه في الوقت نفسه يثبت أركان العلم ومن أولى بهذا في الصدر الأول من عالم وقف حياته على العلم مثل جابر بن زيد ؟ .

★ ★ ★ ★

على أن اللافت للنظر حقا هو أن معظم هذه الرسائل تنتهي بطلب من جابر بن زيد إلى من تبلغه الرسالة بأن يكتمها أو يمحوها حتى لاتثير حوله المشاكل ، فهو يختم الرسالة الأولى بقوله : " أنظر امتع الله بك وأصلحك الا ترفع كتابي هذا إلى أحد فأني لولا أعرف من بليتكم (ما) كنتم فيه ، لم أرجع عليكم شيئا " (١٦٩) .

وفي رسالته إلى الحارث بن عمرو يقول : " وأعلم انك اصلحك الله ـ بأرض أكره أن تذكر لي فيها أسما فلا ترو شيئا مما كتبت به إليك " (١٧٠) .

---

(١٦٧) الرسالة السادسة ص ١٨ .

(١٦٨) الرسالة السابعة عشرة ص ٤٢ .

(١٦٩) الرسالة الأولى ص ٢ .

(١٧٠) الرسالة الخامسة ص ١٥ .

وفي ختام رسالته إلى سالم بن ذكوان يقول : " وأعلم أنه لايعجبني أن تترك لي عندك كتابا الامحوته ولاترو عني شيئا مما أكتب به إليك "[171] .

وتختتم رسالته إلى طريف بن خليد ، طالبا أن يمحو كتبه التي عنده : " أنظر أمتع الله بك وغفر لنا ولك ماكتبت إليك من كتاب فأمحه وأكتب إلى بما كان لك من حاجة " [172] .

وهو في النهاية يوضح لعبد الملك بن المهلب سر خوفه لان هناك أناسا يتربصون به ويطلبون العلل عليه لكي يوقعوه في المهالك فيقول : " أكتب إلي بما كانت لك من حاجة في سر وثقة ، فأنك قد علمت الذي نحن فيه وما نتخوف من الذي يطلب العلل علينا ، فلا تعرضنا لذلك لأمر تهلكنا به أصلحك الله " [173] .

ولاشك أن جو الإرهاب الذي كان يسيطر على العصر والذي أوضحنا جزءاً منه في الفصل السابق ، هو الذي كان يدفع جابرا إلى مزيد من التحوط لكي يقدر للعلم الذي يحمله أن ينفع الله به أكبر قدر من الناس .

لكن هذا التحوط بالتأكيد تسبب في ضياع الكثير من رسائل جابر ولم يبق بين أيدينا إلا هذا العدد القليل في حجمه ، الكبير في قيمته ، ونود الآن بعد أن أوردنا تحليلا لهيكل الرسائل عند جابر ومضامينها والمناخ المحيط بها ، أن نحيل القارىء إلى نص تفصيلي لواحدة من هذه الرسائل ، حتى يكتمل تصور قيمتها وسيجد هذا النص في الملحق الوثائقي للكتاب .

---

(١٧١) الرسالة الحادية عشرة ص ٢٨ .
(١٧٢) الرسالة السادسة عشرة ص ٤٠ .
(١٧٣) الرسالة السادسة عشرة ص ٤٠ .

٢ـ من جوابات الإمام جابر بن زيد

هذا أثر من آثار جابر صدر مطبوعا في كتاب عن وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عُمان سنة ١٤٠٤هـ/سنة ١٩٨٤م بترتيب الشيخ الفقيه سعيد بن خلف الخروصي .

ويقع الكتاب في مائة وأربع وسبعين صفحة من القطع المتوسط وقد صدر بمقدمة موجزة للشيخ سعيد الخروصي ، بين فيها أن الكتاب في الأصل كان رسالتين توردان روايتي أبى صفرة عبدالملك بن صفرة وحبيب بن أبى حبيب عن جابر بن زيد " وكانت المسائل ترد متفرقة مسألة فى الطهارة ومسألة فى الزكاة ومسألة فى النذور ومسألة في الفرائض ـ وهكذا . . فعمد الشيخ سعيد إلى الرسالتين فدمجهما ثم رتبهما فجمع مسائل كل باب على حدة فجاء الكتاب في خمسة وثلاثين بابا يجمع أراء جابر في الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والنذر والإيمان والأضاحي والنكاح والطلاق والوصايا والعتق والبيوع والميراث والعلم والآداب والأخلاق والشهادات والحدود ثم النكاح بفروعه المختلفة .

والكتاب بهذا الترتيب يقدم فائدة جليلة لدراسة أراء جابر الفقهية أذ يساعد على تجميع كثير منها وترتيب الروايات التي وردت عن الشيخين الجليلين أبى صفرة وحبيب فيما نسباه إلى جابر من فتاوى وأراء .

ولأن الكتاب مطبوع وذائع فاننا نكتفي بإحالة القارىء إليه لمزيد من التعمق والأستفادة(١٧٤) .

---

(١٧٤) انظر جوابات الإمام جابر بن زيد ، ترتيب الشيخ الفقيه سعيد الخروصي ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .



ملامح

انسانية



ليس العالم الصغير الذي يحيط بالعلماء في بيوتهم وبين ذويهم وأصدقائهم بأقل أهمية من العالم الكبير الذي يحيط بهم في دنيا المعرفة ومسائل البحث والدرس والتحصيل ومناقشة القضايا والرد على الخصوم .

وليست الملامح التي تؤخذ من سلوك العلماء والأدباء والمفكرين حيال " عوالمهم الصغرى "بأقل خطرا من تلك التي تستشف من سلوكهم حيال " العوالم الكبرى " بل أن الدائرة الضيقة في عالم الأهل والأصدقاء ربما تظهر من الخصائص ماقد تختفي في زحام الدائرة الواسعة في مناقشة الأفكار والآراء .

ومن العلماء والمفكرين من يستطيعون تصور عوالم مثلى وطرح نظريات تحكم العلاقة بين أفرادها وتشيع بينهم العدل والإخاء فاذا ماأنتقل المفكر إلى عالمه الأصغر الذي يديره هو وتتشابك رغباته مع رغبات أفراده القلائل فأن حظه من إقامة النظرية التي دعا إليها ربما يكون أقل من حظه في التدليل النظري على صحتها .

بل أن الأقتراب من الحياة الخاصة أو العوالم الصغرى لبعض المفكرين أو الفنانين تظهر أنهم كثيرا مايتناقض سلوكهم الخاص مع مبادئهم العامة ، وذلك يقود عند التحليل إلى أن أعتقادهم وإيمانهم بما يدعون إليه ليس أعتقادا عميق الجذور ، ولا أيمانا راسخا وأنهم أنما يقولون مايقولون بدوافع أخرى .

على أن جانبا من مزايا مايعطيه " الأيمان العميق " للعالم المجتهد هو أن يهب حياته توازنا وطمأنينة ، فيقترب جانبها العام من جانبها الخاص ويتساوى ماتظهره في العلن مع ماتطبقه في السر ، ويبدو العالم الصغير بالنسبة لهذا النفر من العلماء المؤمنين مجالا تختبر فيه المبادىء وتطبق ، ومسرحا توصل فيه الأرحام وتشيع فيه المودة ولين الجانب ويتم الالتفات إلى دقائق من الأمور تراعى ويتم التوجيه من خلالها ، وهي دقائق قد لاتتيح العوالم الكبرى لها فرصة الظهور .

ولقد كان جابر في حياته الخاصه واحداً ممن أتفق سرهم مع علنهم ، وكانت مبادؤه التي يدعو إليها في عالمه الكبير تتحول إلى سلوك عملي في بيته ومحيطه الخاص يستوى في ذلك أن تكون الدعوة إلى المودة والتعاطف والرحمة ، أو أن تكون إلى التحرز والتعفف والزهد .

كان بيت جابر الصغير تعمره زوجة تتحدث عنها الروايات هي " أمنة " وربما كانت هنالك زوجة أخرى كما يفهم مما اورده الالوسي في تفسيره ، أن جابرا كان يقول : " كانت لي أمرأتان فلقد كنت أعدل بينهما حتى كنت أعد القبل "(١٧٥)

لكن " أمنه " هي التى تشير إليها الروايات عند الحديث عن بيت جابر ، ويبدو أنها ـ حتى مع أفتراض وجود واحدة معها ـ كانت أكثر نشاطا وحركة ، وكانت ذات " شخصية قوية " ـ كما يقال بلغة العصر ـ وموضع حب من جابر أيضا .

كانت تتصرف في بعض الأحيان على سجيتها وطبيعتها كما تتصرف أية أمرأة تأخذ من العادات ماهو مألوف ، ومن ردود الأفعال ماهو متوقع ، وكان جابر يريد أن يدربها على التصرف كزوجة عالم تمحص الأشياء قبل أن تقدم عليها . وتسأل فيما هو محتاج للسؤال ، ولاتسلم نفسها للمشاعر أو الأنفعال .

وكانت الخصومة تدب بينهما أحيانا بسبب تعارض هذين المنزعين ، منزع التلقائية ، ومنزع سلوك العلماء ، حدث مرة أن أصابها مايصيب الناس من أمراض الجسد ، وأستشارت الجارات والقريبات فأشرن عليها بالأكتواء . والأخذ بأسباب العلاج ، وعرضت الأمر على جابر فكان يرى أن عليها أن تتوكل على الله فهو الذي يهب الشفاء ، ولاتهبه نار الأكتواء ، ويعاودها المرض ، فتقع حائرة بين ماتنصح به التقاليد ، ومايعظ به جابر ، وذات يوم يعود فيجدها قد أكتوت ولم تستمع إلى نصحه ، فيغضب عليها ويهجرها ، لكن موسم الحج عندما يجيء ويعد جابر العدة لرحلته المعتادة ترجوه أمنة أن يصطحبها معه ، وهو يرق قلبه ، فلا يستطيع أن يمنعها من عباده ، لكنه يستمر في عقابها الذي بدأه ويهجرها ، وتضمر في نفسها أن تشكوه إلى شيخه أبن عباس عندما تلقاه ، وتعرض الأمر عليه ، ويقول جابرا مفسرا سر غضبه وهجره : " أنها لم تتوكل على الله والله يقول: **ومن يتوكل على الله فهو حسبه**" ويبتسم ابن عباس بصدره الرحب

---

(١٧٥) نقلاً عن : فقه الإمام جابر بن زيد .

وأفقه الواسع وعلمه الغزير ، فيقول له : " أفلا تكمل الآية ياجابر "[١٧٦] . ويقول جابر " **قد جعل الله لكل شيء قدرا** " ويقول أبن عباس : أفرأيت؟ وهنا يزول عتب جابر ويزول غضبه ، وينهى عقابه ، فلقد كان العتب والهجر ، لأنها خالفت في تصوره حكما أجتهد فنصحها به ولم تعمل به ، لكن أستاذه عندما وسع أمامه مناحى الحكم وجد لآمنة عذرا .

ولقد رأينا من قبل . كيف كان سلوكها معه عندما عادت من رحلة الحج المفردة وشكت إليه سوء الصحبة من صاحب القافلة ، وكان النقاش بينهما يخضع للمبدأ الذي أشرنا إليه ، هي تريد أن تتصرف وفقا للعادات السائدة وردود الأفعال الطبيعية ، وهو يريدها على أن تستفيد من تجربته الواسعة في مجاهدة النفس والخروج عن أطار " المألوف " إلى إطار " المعروف " هي ترى أن من يسيء يستحق الإساءة أو على الأقل لايستحق الأحسان ، وهو يرى أن آداب المجاهدة تقتضى أن نخرج المسيء من إطار تصوره الضيق وتعالجه بالاحسان إليه ، ولقد كانت آمنة في هذا الموقف ، تعارض جابرا بالقول لكنها لاتعارضه بالفعل فهو يقترح أن يُعَدَّ لصاحب القافلة المسيء ، الطعام فَيُعَدّ ، وأن يُعْطَى متاع الرحلة الزائد فيعطى ، وأن تُشْــتَرى الأثواب فتشترى ، وكأن " آمنة " حتى في لحظة أجهادها وغضبها تتعلم من زوجها . وحق لها أن تفعل ذلك .

وعلى نفس النحو كانت معاتبتها له عندما يحافظ على سلوكه في الورع والتعفف الذي تعوده ، فيطلب منها أن تحتفظ بعصا أنتزعها من سور حديقة لكي يدفع بها عن نفسه الكلاب ، وهو ينوى أن يعيدها إلى موضعها من السور في الغد ، وهى قد ترى أن في ذلك من التحوط أكثر مما ينبغى لكنها تمتثل للأمر ، ولاتعكر على جابر صفو تمسكه بمثل جديدة جاء بها الدين وهو يريد أن يجسدها ويحلها في النفوس ـ وأولها مايتصل به وبآل بيته ـ محل ماهو سائد ومألوف أن وجد تعارض ولو كان خفيفا بينهما .

---

(١٧٦) العقود الفضية فى أصول الإباضية للحارثي ص ٩٥ .

ولم تكن تلك المناقشات الا عاملا يزيد المودة والرحمة بينهما ، فهي ليست مناقشات أختلاف الرأى ، ولكنها مناقشات التثبت من جوانبه ، وتلك أحدى الفوائد التي يقدمها " البيت " أو المحيط الصغير ، لرجل العلم وصاحب الرأى ومن هنا فلقد كان جابر لاينكر أن أمنه أحدى نعم الله الثلاث التي طلبها جابر فأجيب إليها حين يقول : " سألت ربى ثلاثا فأعطانيهن : أمرأة مؤمنة وراحلة صالحة ورزقا كفافا " .

وكان جابر يحب أمنة ويجد أنها سكن يأوى إليه ، وحماية لبيته الصغير ومن هنا فلقد كانت أمنيته ، أن تكون هى آخر أفراد البيت وداعا للدنيا ، وهاهو ذا يجلس مع بعض أصدقائه على باب داره ، فيخرج أبن صغير له فيدنيه جابر ويقبله ويمسح على رأسه ، ثم يقول لجلسائه : " أترونى أحبه ؟ قالوا : أجل ، قال : صدقتم والله أنى لأحبه ، ومامن نازل ينزل به أحب إلى من الموت ينزل به وبأخوته ، ثم ينزل بى ، ثم بأمنة ، قالوا : فأمنة أعز عليك من ولدك ؟ قال : ماهى أعز على منهم ، ولكن لاأحب أن أبقى في الدنيا يوما واحد عازبا وكان كما تمنى "[177] .

وقد تكون هذه الرواية في تفاصيلها موضع نقاش ، وأن كانت في جملتها موضع قبول ، فالمرء لايتمنى الموت عادة لأولاده من قبله إلا في أزمنة الكوارث الكبرى ، والخوف على الأبناء من أن يلحق بهم ضير لايستطيعون تحمله في غياب الآباء ، وليس بمستبعد ذلك في زمن كثرت فيه بالبصرة الكوارث بأنواعها المختلفة من مرض وقهر ، كما أشرنا إلى ذلك في الفصل السابق ، لكن تبقى تلك الدلالة العامة للخبر ، وهى ثقة جابر في أن أمنة هى خير من يحمى الركب حتى آخر فرد فيه .

* * * *

فيما عدا الزوجة لم ترد أشارات كثيرة إلى الأبناء والبنات في حياة جابر ، إلا أشارات خاطفة كالخبر السابق الذي أوردناه وفيه الاشارة إلى أبن صغير له يقبله ويمسح على رأسه ، وفيما عدا الأشارة إلى أبنته " الشعثاء " التى كان يكنى بها

---

(١٧٧) العقود الفضية ، ص ١٠٢ .

فيقال " أبو الشعثاء " جابر بن زيد ، والتى ماتت في عُمان ودفنت في " فرق " على مشارف نزوى ومازال قبرها معروفا هناك .

ولاشك أن تكنية جابر بأسم أحدى بناته لا أبنائه ، دليل على أنه رزق أولا ببنت قبل أن يعقب أولادا ، بل ليكاد يظن المرء أنه لم يرزق بأبناء صبيان بعد الشعثاء مباشرة أو قريبا منها وإلالكان من المتوقع أن يكنى بأحدهم على عادة العرب في الميل أن يكنى الرجل بأسم ولده فيقال : أبو محمد وأبو عبدالله وأبو الحسن ... الخ . على حين تندر الكنية بأسماء البنات بين العرب إلا لمن كانت ذريته من البنات .

على أن جابرا أنجب صبيا أو صبيانا كما تشير الرواية السابقة إلى أحد أبنائه ، ولكن يبدو أنه أنجبه في سن متأخرة ، ولعل ذلك يفسر جزءا من شدة الشفقة عليه ، والخوف من أن يصيبه ضرر بعده لدرجة تمنى له فيها ماتمنى في الرواية السابقة .

وقد يؤكد ذلك ، أن الروايات التي تشير إلى أسماء تلاميذ جابر وأصحابه وأتباعه ، من حضر معه الدروس ، ومن روى عنه الأحاديث ، ومن حمل عنه العلم ، ومن حج أو أعتمر معه ، ومن حبس أو نفى في صحبته ، كل هذه الروايات لاتشير أى منها إلى أسم من أسماء أبناء جابر ، شاركه في أمر من الأمور الكثيرة التى كانت تشغله وتشغل عصره .

ويبدو أن أبن جابر الذي وردت الأشارة إليه ـ قد توفى وهو صغير ـ كما أشارت رواية العقود الفضية إلى ذلك ، ويؤكد ذلك أن المراجع لاتشير إلى أبناء جابر بعد وفاته . في أى من ميادين العلم والدعوة التي عرفت عن جابر .

❋ ❋ ❋ ❋

كان جابر في خارج المحيط الصغير ودودا مع الناس ، يخفض الجناح لهم ويعلمهم حتى على قارعة الطريق ، ويبدى لهم المودة والحب في الله فقد " لقى جابر أمرأة من أهل الدعوة فوقف ساعة يكلمها وتكلمه ، قال : فلما أراد أن يفترقا قال لها : أنى أحبك ، ثم افترقا، فانطلق غير بعيد ، ففكر في قوله لها " أنى أحبك " ،

فانصرف إليها وقال : " في الله " قال " فقالت له : وماتظن أنى حملت ذلك على غير الحب في الله ؟ أى والله في الله "(١٧٨) .

وهو في مرات أخرى يذهب إلى مجالس النسوة المسلمات ، يبذل لهن الفتوى ، ويرشدهن ويجيبهن على مايسألن عنه ، وهى في ذلك يكمل خفض الجناح للناس ، والضعفاء منهم خاصة ، ويذهب بالعلم إلى من لاتساعده ظروفه ليذهب هو إلى العلم " قال : أبو سفيان : دخل أبو فرج على عاتكة بنت المهلب وكانت من المسلمات ، فقال : كأنى أرى مجلس رجل ، قالت الآن خرج من عندى الأحول تعنى جابرا ، قال : فهل ظفرت منه بشيء قالت سألته عن لباس الخفين ، قال : أن كنت تلبسينهما من حر الأرض وبردها وخشونتها فلا بأس ، فلا تبالين وأن أنكشفا ، وأن لبستهما لغير ذلك ، فلا تبديهما " ثم ذكرت مسائل فقهية أخرى سألته عنها فأجابها "(١٧٩) . وكذلك كان يفعل مع هند بنت المهلب حين كان يزورها هى وأمها فيعلمهما أمور الدين حتى طريقة وضع الخمار على الجبهة(١٨٠) .

* * *

على هذا النحو كان سلوك جابر في عالمه الصغير ، تطبيقا حيا لما يدعو إليه في أفكاره وآرائه ، يبدأ بنفسه ثم بمن يليه حتى تتسع الدائرة ، فيتطابق فيها النظر مع التطبيق ، والمبدأ مع السلوك ، فتجد الصدى الحسن لأنها وجدت القدوة الحسنة ، وتتمثل من خلال ذلك كله فكرة التوازن في شخصية " العالم المؤمن " وفكرة أمتداد الأثر الصادق من نفسه المشعة إلى ماحوله ، ومن سامعيه إلى من يبلغون ومن جيله إلى الذين من بعده يأتون ، ويستمر تأثير العلم أنطلاقا من أخلاص صاحبه وصدق مبادئه في نفسه حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

* * *

---

(١٧٨) طبقات المشايخ للدرجينى ج٢ ص ٢٠٩ .
(١٧٩) العقود الفضية ، ص ١٠٤ .
(١٨٠) حلية الأولياء للأصفهانى .

حين جاءت لحظة الختام في حياة هذا العالم الجليل ، على أرض البصرة ، أكدت ماأظهرته المسيرة الطويلة فى رحلة العلم منذ بدأ الشوق إليه في أحضان الجبل الأخضر في عُمان ، ومنذ أن سانده العزم في الرحلة الطويلة على شاطىء الخليج أو فوق مياهه ، شوقا إلى الأقتراب من العلم في البصرة ملتقى العلماء . ثم منذ أن أنضجته رحلات الحنين المتصلة إلى المنابع فى مكة والمدينة وهي رحلات يتتابع فيها الذكر والفكر والعبادة مع كل خطوة خطتها " جزوة " أو النياق الأخرى في الطريق الطويل الممتد بين البصرة والحجاز حتى في أشد مراحل الزمن ضيقا .

لم يشأ جابر أن يغمض عينيه عندما أغمضهما للقاء الله الا كما يليق بعالم كبير ، كان آخر ماتمناه أن يلقى صديقه وعالم عصره الجليل الحسن البصرى وقد كان مختبئا من الحجاج،وكان آخر رأى أدلى به على فراش الموت حين حضر الحسن البصرى ، فهما لآية قرآنية بدا جديدا على الحسن نفسه بعد هذا العمر الطويل ، وكان آخر شىء طلب سماعه حديثا من أحاديث الرسول الذي يتأهب للقياه ، وهو يحس برد الموت على كبده : (١٨١) " دخل ثابت البنانى على جابر حين أحتضر ، فقال : هل تشتهى شيئا ؟ قال : أنى لأشتهى أن ألقى الحسن البصرى قبل أن أموت ، فخرج ثابت فأعلمه بقول جابر ، وكان مستخفيا من الحجاج . فركب بغل ثابت على السرج ، وركب خلفه ثابت بطيلسانه فلما دخل على أبى الشعثاء وهو مضطجع أنكب عليه الحسن وهو يقول : قل لا إله إلا الله ، فرفع جابر عينه وهو يقول : أعوذ بالله من غدو أو رواح إلى النار ، ثم قال : ياأباسعيد " **يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً**(١٨٢) " قال الحسن : هذا والله الفقيه العالم ، ثم قال : ياأباسعيد : أخبرني عن حديث ترويه عن رسول الله ﷺ في المؤمن إذا حضرته الوفاة ، فقال : قال عليه السلام : أن المؤمن إذا حضرته الوفاة وجد على كبده بردا ، فقال جابر : الله أكبر ، أنى أجد بردا على كبدى ثم قبض رحمة الله عليه " ولقد قال قتادة شيخ

---

(١٨١) العقود الفضية ، ص ١٠٠ .

(١٨٢) سورة الأنعام آية ١٥٨ .

البخارى يومها : " اليوم مات أعلم العرب " وقال أنس بن مالك خادم رسول الله : " اليوم مات أعلم من على ظهر الأرض " .

رحم الله جابرا في الأولين ، ورحم الله جابرا في الآخرين .

ورحم الله جابرا مع العلماء العاملين إلى يوم الدين .

' قائـمة بأهـم مراجـع الكتـاب '



قائمة بأهم مراجع الكتاب
(مرتبة ترتيبا أبجديا حسب اسم الكتاب)

١ ـ **الإمام جابر بن زيد العُماني و آثاره في الدعوة** :
تأليف : د/صالح بن أحمد الصوافي ـ سلطنة عُمان ـ
وزارة التراث القومي والثقافة ـ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٢ ـ **"أخبار عُمان في الأدب الجغرافي العربي "**
تأليف : منديلا مارين ،
بحث نشر في كتاب " حصاد ندوة الدراسات العُمانية "
الجزء السابع ـ سلطنة عُمان ـ وزارة التراث القومي والثقافة ـ ١٩٨٠م .

٣ ـ **إزالة الوعثاء عن أتباع أبي الشعثاء** :
ويشتمل على ذكر أئمة المذهب الإباضي وأصوله الصحيحة من الكتاب والسنة والإجماع .
تأليف : الشيخ العلامة سالم بن حمود بن شامس السيابي السمائلي :
تحقيق وشرح : الأستاذه الدكتورة/ سيدة اسماعيل كاشف ـ
سلطنة عُمان وزارة التراث القومي والثقافة ـ ١٩٧٩م .

٤ ـ **أزمنة التاريخ الإسـلامي** :
تأليف وتصنيف : د/عبدالسـلام الترمانيني .
مراجعة وتحقيق : د/شاكر مصطفى وأحمد مختار العبادى .
المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ـ ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

٥ ـ **أطلس تاريخ الإسـلام** :
تأليف : د/حسين مؤنس ـ مكتبة الزهراء للأعلام ـ القاهرة ـ ١٩٨٥م .

٦ ـ **الأعـــــلام** :
قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء ،
تأليف : خيرالدين الزركلي .

٧ - **الأعـلام الجاهليـة** :
دراسة في البنية اللغوية ،
تأليف : د/عاطف مدكور ،
دار الثقافة للنشر والتوزيع - القاهرة - ١٩٨٨م .

٨ - **البـداية والنهايـة** :
الجزء التاسع - لابن كثير - القاهرة - ١٩٣٢م .

٩ - **التاريـخ الكبيـر (القسم الثاني - الجزء الأول)** :
لمحمد بن اسماعيل بن ابراهيم الجعفي البخارى -
(حيدرآباد - ١٣٨٢هـ) .

١٠ - **تاريخ الأدب العربـي** :
تأليف : أحمد حسن الزيات (دار نهضة مصر للطبع والنشر) .

١١ - **تاريخ أهـل عُمان** :
(مجهول المؤلف) تحقيق : الدكتور/سعيد عبدالفتاح عاشور -
سلطنة عُمان - وزارة التراث القومي والثقافة (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) .

١٢ - **تاريـخ عُمـان** :
المقتبس من كتاب كشف الغُمة الجامع لأخبار الأمة -
تأليف : سرحان بن سعيد الأزكوى العُماني ،
تحقيق : عبدالمجيد حسيب القيسي - سلطنة عُمان -
وزارة التراث القومي والثقافة (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) .

١٣ - **التاريـخ والسـير** :
تأليف : د/حسين فوزى النجار -
الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر -
سلسلة المكتبة الثقافية - ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

١٤ ـ **تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان** :

تأليف : الشيخ أبي محمد عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي

(مطبعة الإمام ـ القلعة ـ مصر) .

١٥ ـ **تذكرة الحفاظ** :

لمحمد بن أحمد الذهبي (حيدرآباد ـ ١٣٣٤هـ) .

١٦ ـ **تقييد العلم** :

لأحمد بن علي بن ثابت (الخطيب البغدادى) .

صدره وحققه وعلق عليه : يوسف العش ـ

المعهد الفرنسي للدراسات العربية دمشق ـ ١٩٤٩م .

١٧ ـ **تهذيب الكمال في أسماء الرجال (المجلد الرابع)** :

للحافظ جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزى ؛

حققه : د/بشار عواد معروف

خرج أحاديثه : شعيب الارنؤوط ـ مؤسسة الرسالة .

١٨ ـ **تهذيب التهذيب (الجزء الثاني)** :

لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (حيدرآباد ـ ١٣٢٩هـ) .

١٩ ـ **تيسير التفسير للقرآن الكريم (الجزء الخامس)** :

للعلامة الفقيه محمد بن يوسف أطفيش ـ سلطنة عُمان ـ

وزارة التراث القومي والثقافة ـ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

٢٠ ـ **الثقافة العربية أقدم من الثقافتين العبرية واليونانية** :

تأليف : عباس محمود العقاد ـ دار الكتاب اللبناني ـ المجموعة الكاملة .

٢١ ـ **الجامع الصحيح** :

مسند الإمام الربيع بن حبيب بن عمر الأزدى البصرى :

طبعة مكتبة الاستقامة بعُمان ـ ١٤٠٦هـ تصويراً عن طبعة المطبعة العمومية بدمشق ـ ١٣٨٨هـ .

٢٢ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (الجزء الثالث) :
للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني ـ
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٢٣ ـ دائـرة معارف البسـتاني :

٢٤ ـ رسائل جابر بن زيد :
مخطوطة بالمكتبة الإسلامية بمسقط ـ سلطنة عُمان .

٢٥ ـ سيرة العلامة المحقق عبدالله بن مداد :
سلسلة (تراثنا) العدد السادس والخمسون ـ
وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عُمان ـ يونيو ١٩٨٤م .

٢٦ ـ سـير أعلام النبـلاء :
تصنيف : الإمام شـمس الدين محمد بن أحمد الذهبي
(الجزء الرابع) ؛ تحقيق وتخريـج : شعيب الارنؤوط ومأمـون الصاغرجي ـ مؤسـسة الرسالة .

٢٧ ـ الشـعر والشعــراء :
لأبي عبدالله محمد بن مسلم بن قتيبة (ليدن ـ ١٩٠٣م) .

٢٨ ـ ضحـى الإســلام :
تأليف أحمد أمين ـ الطبعة العاشرة ـ مكتبة النهضة المصرية .

٢٩ ـ الطبقـات الكبــرى :
لمحمد بن سعد كاتب الواقدى (ليدن ـ ١٩٠٥م) .

٣٠ ـ طبقات المشـايخ بالمغرب :
تأليف : الشيخ أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني ،
تحقيق : ابراهيم طلاى : مطبعة البعث قسنطينة ـ الجزائر .

٣١ ـ العقود الفضية في أصول الإباضية :
تأليف : الشيخ سالم بن حمد بن سليمان الحارثي ـ
وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عُمان ـ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٣٢ ـ علم اللغة العام الأصوات :

تأليف : الدكتور كمال محمد بشر : دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٣م .

٣٣ ـ عُمان عبر التاريخ :

تأليف : الشيخ سالم بن حمود بن شامس السيابي :

وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عُمان ـ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

٣٤ ـ فجر الإسلام :

تأليف : أحمد أمين ـ مكتبة النهضة المصرية .

٣٥ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل :

تأليف : الإمام أبي محمد علي بن أحمد (ابن حزم الظاهرىَ) .

تحقيق : د/محمد ابراهيم نصر و د/عبدالرحمن عميره ـ

دار عكاظ للنشر والتوزيع ـ جدة .

٣٦ ـ فقه الإمام جابر بن زيد :

تقديم وجمع وتحقيق : يحيى محمد البكوش :

دار المغرب الإسلامي ـ بيروت ـ ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

٣٧ ـ فقه اللغة :

تأليف : د/علي عبدالواحد وافي ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر .

٣٨ ـ كتاب السير :

تأليف : الإمام أحمد بن سعيد بن عبدالواحد الشماخي :

تحقيق : أحمد بن سعود السيابي ـ

وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عُمان ـ ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

٣٩ ـ كتاب المعرفة والتاريخ (المجلد الثاني) :

تأليف : أبي يوسف يعقوب بن سفيان البسوى ـ

رواية : عبدالله بن جعفر بن درستوية النحوى ـ

تجقيق : د/أكرم ضياء العمرى .

٤٠ ـ كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون :
تأليف مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة ـ
وكالة المعارف ـ ١٩٤٦م .

٤١ ـ مدخل إلى علم الفقه :
تأليف : د/محمود فهمي حجازى ـ دار الثقافة للطباعة والنشر ـ
القاهرة ـ ١٩٧٨م .

٤٢ ـ مدرسة جابر بن زيد وأثرها في الفقه الإسلامي :
تأليف : د/يحيى محمد البكوش
(بحث ألقي في ندوة الفقه الإسلامي بجامعة السلطان قابوس ـ
١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) .

٤٣ ـ المدينـة الإسـلامية :
تأليف : د/محمد عبدالستار عثمان
(سلسلة عالم المعرفة ـ المجلس الوطني للثقافة والآداب)
الكويت ـ ١٩٨٨م .

٤٤ ـ مـروج الذهـب :
تأليف : علي بن الحسين (المسعودى) باريس ـ ١٨٧٣م .

٤٥ ـ معجـم البلـدان :
ياقـوت الحمـوى .

٤٦ ـ من جوابات الإمام جابر بن زيد :
ترتيب الشيخ سعيد بن خلف الخروصي
وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عُمان ـ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

٤٧ ـ نشـأة التدوين في الفقه واستمراره عبر القرون :
تأليف : الشيخ مبارك بن عبدالله الراشدى
(بحث ألقي في مؤتمر الفقه الإسلامي بجامعة السلطان قابوس
١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) .

٤٨ ـ **نشـأة الحركة الإباضية** :
تأليف : د/عـوض خليفات ـ
مطابع دار الشعب ـ عَمّان ـ الأردن ـ ١٩٨٢م .

٤٩ ـ " **هل يتجدد الأمل في العثور على ديوان جابر** " ؟ :
د/خيرى علي ابراهيم : مقال بجريدة عُمان (٧ رمضان ١٤٠٨هـ) .

٥٠ ـ **وفيـات الأعيـــان** :
أحمد بن محمد (بن خلكان) بيروت ـ ١٩٧١م .



’ملاحق
توثيقية‘

أولا :

نصوص من جابر

"نص الرسالة الرابعة"

نقلا عن مخطوطة رسائل جابر بن زيد

بالمكتبة الإسلامية

بمسقط

رسائل جابر بن زيد

٤

رسالة جابر بن زيد

الى

غطريف بن عبد الرحمن

(٤)

بســـم الله الرحمن الرحيم .

من جـــابر بن زيــــد ، الى غطريف بن عبد الرحمن ، سلام عليك ، فانى احمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، واوصيك بتقوى الله ، وحسن الثقة فى التوكل عليـه فان الحسن الظّن بالله يكن ثقته به ، ومن يكن سيّء الظن بالله يكن ثقته بمن لا يكفيه من امره كفاية وينزل السيء ظنهم بالله بمنزلة الردى والخسران ، فاتق الله ولا تكن منه على حرف ، وكن صادقا فى النصيحة ولا تكن مخدوعا خادعا . واعلم ان الاحمق الجاهـل من طلب مخادعة الخالق ، خالق الخداع ، ذلك ينزل به جهلـــه ابواب النفاق . واعلم ان لاهل النفاق ابوابا نسبتهم فى منازل مختلفة الناس منهـا ما يصغر فى انفسهم امره يخلف الله به من الاسلا؛ فيعلم من شاء بذلك ، ومنهم من يصير له باخلاق يتخلق بها فى الاسلام . واعلم انه كان من اصغر ابواب النفاق فـــى انفس الناس الخلف ، فاعلم الله به الناس امرا عرفوا ان مصيره من خالطه من الذى يصغر فى نفوسهم الى الناس فيعرف اهل اللب ان ما سوى ذلك عند الله ما هو اكبر من الخلف على قدر ما يعظم من ابواب النفاق . فتعاهد تلك الامور وتذكر عاقبتها ، وتنزه عنها تنزه من توقى (توقا دوا) من ترك فيه كثيرا من صفة الامور مخالفة القربة من التى يسخط الله علـــى المقارفين لها . واعلم ان العباد بمنزلة عور الكيس منهم المقارف للحزن والبكاء والخوف مخافة الاستدراج . فان استطعت ان تعاهد منزلتك فى كتاب الله فافعل فان منازلـــــ العباد مستبينة واضحة يعرفها اهـل المخرج من الزلل والعثرات .

واعلم ان الجبار لم يزل يصنع الى المناصحين له فى امره من الصنع صنعا عرّفهم بـــــه منازلهم من الله فى كتابه فما زالوا به للمهتدين منارة يهتدوا بها فياخذون فى جادّتها ، اعلم لهم فيها النور حتى اذا ذللت لهم طرقها ، وذلوا بعرفانها ، ووطنوا انفســـهم عليها وتبين لهم واضح مهيع سما بهم فى مزيد الهدى والثبات حتى اعلمهم جملة نسبتهم ونسبة الناس حتى عرفوا امر الله ونسبته لخلقه مالم تعرف الملائكة ، حتى عرفوا مواضــــع الكلام وكل لحظة وزلة ، فان استطعت الا تكون متعاهدا لما لا تغنى به شيئا ، وتصـــنع الذى انت عليه مسئول من هذا ، واحذر ان تدل على الله بدالة ، ولا ترينّ ان لك

فضلا في الاسلام ، فانه من يكون بتلك المنزلة من التزين تزيـد من معرفة فضله
ومن يكن بهذه المنزلة يكبر مقته عند الله ، وكفى بالعباد شقا' ان يكونوا بمنزلة
يرون ان لهم فضلا على سائر العباد بخير ابتلاهم الله به واختصهم به . واعـلم
ان المصغر اليه نفسه المحتقر اليه عمله بمنزلة غبطة عند الله وشرف ، فتفهم فـي
الذي عمر الله به قلبك من كتاب الله ، فان القاري' له من عرف منزلته ، والجاهـل
له من لم يدر اموره وان دل به لسانه . فنسال الذي بفضله ورحمته يتدارك اهـل
الزلل والخطايا ان يتداركنا في الذي اخطئناه فيه .

اما بعـــــد ، فانا صالحون سالمون ان عرفنـا الله فضله وفواضله ، وقد اتاني
كتـابك تذكر فيه صلاحك وعافيتك فحمدت الله على ذلك ، وسالته تمام كرامته فيما يوافق
محبته حتى يمضينا على ذلك .

واما الذي ذكرت من رجل اسلف بردا بثوبين ، فان برد غير البرود فان ذلك لا يصلح .
واما الذي ذكرت من شان المجلوب وما يباع شي'ء منها نسيئة ببر فان ذلك لا يصلح .
واما الذي ذكرت من رجل ادرك الامام يوم الجمعة وقد تقدم الى الصلاة وليس الرجـل
على طهر ولا ما' كونه ان طلب الما' فاتته الصلاة مع الامام هل له ان يتيمم بالصعيـد
ويصلى ؟ فلا لعمري الصعيد في قرية فيها الما' انما الصعيد في الفلوات حيث ليـس
الما' فليطلب الما' ثم يصلى الاولى ، فلا والله ما انا بمرخص له في الصعيد وهو غير متوض
وما بال الرجـل يأتي الجمعة وهو غير متوض!!
واما الذي ذكرت من رجـل اصاب من امرأة زنى في شركهما ثم اسلما بعد ذلك هل يصلح له
ان يتزوجها بجدد لها ، فذلك الذي كان يقول ابن عباس رضي الله عنه : اوله سفاح
وآخـــره نكاح .

واما الذى ذكرت من رجل اعتمر اعمرة ثابتة ثم رجع الى اهله قضى له ان يحج هل له ان يتمتع . فان قدم من يوم عرفة فلا عليه ان يتمتع ، فان قدم قبل ذلك وانفد فانى اكره ان يقيم بمكة اياما محرمة فليتمتع ، على انه العمرة فى السنة واحدة .

اكتب الي بما كان لك من حاجة ، والسلام عليك ورحمة الله .

ثانيــا :

نصوص حول جابر

فــي كتــب الدارســين

١- نصوص من القرن الثالث الهجـرى :

أ - من كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد المتوفى ٢١٠هـ .

ب - من كتاب المعرفة والتاريخ لأبي يعقوب البسوى المتوفى ٢٧٧هـ .

الطبقات الكبرى

لابن سعد

المجلد السابع

في البصريين والبغداديين والشاميين والمصريين وآخرين

دار صادر
بيروت

جابر بن زيد الأزديّ

ويكنى أبا الشعثاء .

قال : أخبرنا يزيد بن هارون قال : أخبرنا خالد بن يزيد الهَداديّ عن حيّان الأعرج أو صالح الدهّان في حديث رواه أنّ جابر بن زيد كان أعور .

قال : أخبرنا عارم بن الفضل قال : حدّثنا حمّاد بن زيد عن خالد ابن فَضاء عن إياس قال : أدركتُ البصرة ومفتيهم رجل من أهل عمان جابر بن زيد .

قال سفيان عن عمرو قال : ما رأيتُ أحداً أعلم من أبي الشعثاء .

قال : وقال سفيان عن عمرو عن عطاء قال : سمعتُ ابن عبّاس يقول : لو نزل أهل البصرة عند قول جابر بن زيد لأوسعهم عمّا في كتاب

الله علماً .

وقال يحيَى بن سعيد القطّان عن سليمان التيميّ أكبر علمي قال : كان الحسن يغزو وكان مفتّي الناس هاهنا جابر بن زيد ، قال : ثمّ جاء الحسن فكان يفتّي .

قال : أخبرنا سليمان بن حرب قال : حدّثنا حمّاد بن زيد قال : ذكر أيّوب يوماً جابر بن زيد فعجب من فقهه .

قال : أخبرنا سليمان بن حرب وعارم بن الفضل قالا : حدّثنا حمّاد ابن زيد قال : سُئل أيّوب هل رأيتَ جابر بن زيد ؟ قال : نعم ، كان لبيباً لبيباً ، قال عارم في حديثه : من رجل فيه حد .

قال : أخبرنا عفّان بن مسلم قال : حدّثنا جرّير بن حازم قال : سمعتُ إياس بن معاوية قال : أدركتُ البصرة وما لهم مُفْتٍ يفتيهم غير جابر بن زيد .

قال : أخبرنا حفص بن عمر الحَوْضيّ قال : حدّثنا هَمّام بن يحيَى قال : حدّثنا قتادة قال : سُجن جابر بن زيد فأرسلوا إليه يستفتونه في الخنثى كيف يورّث ؟ فقال : تسجنوني وتستفتوني ! قال : انظروا من أيّهما يبول فورّثوه .

قال : أخبرنا عارم بن الفضل قال : حدّثنا حمّاد بن زيد قال : حدّثنا حجّاج بن أبي عُيينة عن هند قالت : خرجنا من الطاعون فراراً إلى العراق فكان جابر بن زيد يأتينا على حمار فكان يقول : ما أقربكم ممّن أرادكم !

قال : أخبرنا عارم بن الفضل قال : حدّثنا حمّاد بن زيد قال : حدّثنا حجّاج بن أبي عُيينة عن جابر بن زيد قال : مضى من أجلي ستّون سنةً ، قال : فأصبتُ فيها ونعمت فَنَعْلي الآن أعزّ عليّ من ذلك كلّه إلاّ خيراً قدّمه .

قال : أخبرنا عفّان بن مسلم وعارم بن الفضل قالا : حدّثنا حمّاد ابن زيد عن عمرو بن دينار قال : قيل لجابر بن زيد إنّهم يكتبون عنك ما يسمعون ، فقال : إنّما لله يكتبون ، فقال عفّان : وأنا أتحوّل عنه غداً ، وقال عارم : وأنا أرجع عنه غداً .

قال : أخبرنا عفّان وعارم بن الفضل قالا : حدّثنا حمّاد بن زيد عن يحيَى بن عتيق قال : ذُكر جابر بن زيد عند محمّد بن سيرين فقال : رحم الله جابراً كان مسلماً عند الدراهم .

قال : أخبرنا الفضل بن دُكين قال : حدّثنا محمّد بن بُرْجان قال : رأيتُ أبا الشعثاء جابر بن زيد يجيء سابق الحاجّ يسير إحدى عشرة اثنتي عشرة .

قال : أخبرنا مسلم بن إبراهيم قال : حدّثنا القاسم بن الفضل الحُدّاني قال : رأيتُ جابر بن زيد أبيض الرّأس واللحية .

قال : أخبرنا عمرو بن الهيثم قال : حدّثنا أبو خُلدة قال : رأيتُ جابر بن زيد يصفّر لحيته .

قال : أخبرنا سعيد بن عامر وعفان بن مسلم قالا : حدّثنا همّام عن قتادة عن عزْرَة قال : قلتُ لجابر بن زيد إنّ الإباضيّة يزعمون أنّك منهم ، قال : أبرأ إلى الله منهم ، قال سعيد في حديثه : قلت له ذلك وهو يموت .

قال : أخبرنا عارم بن الفضل قال: حدّثنا حمّاد بن زيد عن هشام عن محمد قال : كان بريئاً ممّا يقولون ، يعني جابر بن زيد . قال عارم : وكانت الإباضية ينتحلونه .

قال : أخبرنا موسى بن إسماعيل قال : حدّثنا أبو هلال قال : حدّثنا داود بن أبي القصاف عن عزْرة الكوفيّ قال : دخلتُ على جابر بن زيد فقلتُ : إنّ هؤلاء ينتحلونك . فقال : أبرأ إلى الله من ذلك .

قال : أخبرنا عبد الصمد بن عبد الوارث بن سعيد قال : حدّثنا همّام

ابن يحيى عن ثابت البُناني قال : دخلتُ على جابر بن زيد وقد ثقل ، قالَ : فقلتُ له : ما تشتهي ؟ قال : نظرة من الحسن ، قال : فأتيت الحسن وهو في منزل أبي خليفة فذكرتُ ذلك له فقال : اخرج بنا إليه ، قال قلتُ : إني أخاف عليك . قال : إنّ الله سيصرف عني أبصارهم ، قال : فانطلقنا حتى دخلنا عليه ، قال : فقال له الحسن : يا أبا الشعثاء قل لا إله إلا الله ، قال فقال : يوم يأتي بعض آيات ربك ، قال : فتلا هذه الآية ، قال : فقال له الحسن : إنّ الإباضيّة تتولاّك ، قال فقال : أبرأ إلى الله منهم ، قال : فما تقول في أهل النهر ؟ قال فقال : أبرأ إلى الله منهم ، قال : ثمّ خرجنا من عنده .

قال : أخبرنا عارم بن الفضل قال : حدّثنا حمّاد بن زيد عن حبيب ابن الشهيد عن ثابت قال : قيل لجابر بن زيد وهو يشتكي : ما تشتهي ؟ قال : نظرة من الحسن ، قال : فانطلق ثابت إلى الحسن وهو متوارٍ في منزل أبي خليفة فجاء به إليه ، فقال : أقعدوني .

قال : أخبرنا يزيد بن هارون قال : أخبرنا نوح بن قيس عن عِصْمة ابن سالم عن ثابت البُناني قال : أتيتُ الحسن وهو مُخْتَفٍ عند أبي خليفة فقلت : إنّ أخاك جابر بن زيد بالموت ، قال : رُوَيْداً نمشي ، فلمّا أمسى أرسل إلى بغلته فركبها وأردفني خلفه وأتى جابرَ بن زيد فلم يزل عنده حتى أسحر ، فلمّا خاف الصبح ولم يمت قام فكبّر عليه أربعاً ودعا له ، ثمّ انصرف .

قال : أخبرنا وكيع بن الجرّاح عن أبي هلال عن حيّان الأعرج أو أبي الصلت الدهّان، شكّ أبو هلال، أنّ جابر بن زيد أوصى أن تغسله امرأته .

قال محمد بن عمر وغيره : مات جابر بن زيد سنة ثلاث ومئة ، وقال أبو نُعيم : مات جابر سنة ثلاث وتسعين مع أنس بن مالك في جمعة ، قال محمد : وهذا خطأ ووهل من أبي نعيم فيهما جميعاً ، مات جابر بن زيد سنة ثلاث ومئة مُجْتَمَعٌ عليه ، ومات أنس سنة إحدى وتسعين .

كتاب المعرفة والتاريخ

تأليف

أبي يوسف يعقوب بن سفيان البسوي
توفي سنة ٢٧٧ هـ

رواية

عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي

المجلد الثاني

تحقيق

الدكتور أكرم ضياء العمري

مؤسسة الرسالة

أخبره قال : ذكر جابر بن زيد عند ابن سيرين ، فقال محمد بن سيرين : كان جابر بن زيد مسلما عند الدرهم[١] .

حدثنا ابو بكر الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال : ما علمت من جابر بن زيد رأي الاباضية قط ولا سمعته منه ، لقد قرأت عليه رسالة الحسن بن محمد[٢] فقال : ما احببت شيئاً كرهه ، ولا كرهت شيئاً أحبه .

حدثنا ابو بكر حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال : جاء رجل الى ابي الشعثاء فسلم عليه واثنى عليه ودعا له ، فلما ولى قلت : اتعرف هذا يا أبا الشعثاء[٣] ؟ قال : لا الا أني أظنه من صفريتكم هذه .

وبه : حدثنا عمرو قال : ما رأيت أحداً أعلم بالفتيا من جابر بن زيد .

---

(١) اوردها ابو نعيم من طريق سفيان بن عيينة ايضا وأضاف آخرها « يعني كان ورعاً عندهم » (حلية الاولياء ٣/٨٩) .

(٢) الحسن بن محمد بن علي بن ابي طالب ابو محمد الهاشمي المدني، قال ابن حجر: «وقفت على كتاب الحسن بن محمد اخرجه ابن ابي عمر العدني في « كتاب الايمان » له في آخره قال : حدثنا ابراهيم بن عيينة عن عبدالواحد بن أيمن قال : كان الحسن بن محمد يأمرني أن أقرأ هذا الكتاب على الناس : أما بعد فانا نوصيكم بتقوى الله فذكر كلاما كثيرا في الموعظة والوصية لكتاب الله واتباع ما فيه ، وذكر اعتقاده ثم قال في آخره : ونوالي ابا بكر وعمر رضي الله عنهما ، ونجاهد فيهما لانهما لم تقتتل عليهما الأمة ولم تشك في أمرهما ، ونرجيء من بعدهما ممن دخل في الفتنة فنكل امرهم الى الله الى آخر الكلام . قال ابن حجر : فمعنى الذى تكلم فيه الحسن انه كان يرى عدم القطع على احدى الطائفتين المقتتلتين في الفتنة بكونه مخطئا أو مصيبا ، وكان يرى ان يرجيء الامر فيهما ، وأما الارجاء الذى يتعلق بالايمان فلم يعرج عليه فلا يلحقه بذلك عاب . والله اعلم (تهذيب التهذيب ٢/٣٢١) .

(٣) ابو الشعثاء كنية جابر بن زيد صاحب الترجمة .

[جابر بن زيد](٣)

حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب قال : ذكر جابر بن زيد فجعل يتعجب من فقهه(٤) .

حدثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن زيد قال : قيل لأيوب : رأيت جابر بن زيد ؟ قال : نعم والله كان لبيبا لبيبا(٥) .

حدثنا ابو بكر الحميدي ثنا سفيان ثنا عمرو(٦) قال : سمعت ابن عباس يقول : لو ترك أهل البصرة على قول جابر بن زيد لأوسعهم عما في كتاب الله علما(٧) .

حدثنا أبو بكر حدثنا سفيان حدثنا عمرو : أن ايوب السختياني

---

(١) علقمة بن قيس النخعي الكوفي (تهذيب التهذيب ٢٧٦/٧) .

(٢) فرقة من الخوارج تنسب الى عبدالله بن أباضى .

(٣) هو جابر بن زيد الازدي يكنى ابا الشعثاء وهو من اهل الطبقة الثانية من البصريين (ابن سعد : الطبقات ١٧٩/٧) وهو من الطبقة الثالثة عند خليفة بن خياط (الطبقات ٢١٠) .

(٤) اوردها ابن سعد من هذا الطريق ايضا (الطبقات ١٨٠/٧)، والامام احمد : كتاب العلل ومعرفة الرجال ٣٨٧/١ .

(٥) اوردها ابن سعد من هذا الطريق ايضا (الطبقات ١٨٠/٧) ، والامام أحمد : كتاب العلل ٣٨٧/١ ، ٢٤٢ .

(٦) ابن دينار ، والسند فيه انقطاع وفي ابن سعد (الطبقات ١٧٩/٧) ، عن عمرو عن عطاء قال سمعت ابن عباس ، وفي حلية الاولياء ٨٥/٣ ، قال سمعت عطاء ، .

(٧) اوردها ابن سعد من طريق سفيان ايضا (١٧٩/٧) وابو نعيم: حلية الاولياء ٨٥/٣ من طريق سفيان ايضا .

قال عمرو :وكنت اذا رأيته قلت لا يحسن شيئاً ، لم تكن له تلـك الهيئة .

وبه : حدثنا عمرو بن دينار قال : قال لي جابر بن زيـد : أي عمرو كتب الحكم بن أيوب نفراً للقضاء وكنت فيهم ، أي عمرو فلو كان من ذلك شيء لركبت راحلتي ثم هربت في الارض[١] .

حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن يحي بن عتيق قال : ذكر جابر عند محمد[٢] فقال : رحم الله جابراً كان مسلماً عند الدرهم[٣].

قال : وحدثنا حماد عن هشام[٤] عن محمد قال : كان يقال المسلم المسلم عند الدرهم .

حدثنا أبو النعمان[٥] حدثنا حماد عن أيوب فذكره - يعني جابر بن زيد - قال : كان والله لبيا لبيا لبيا من رجل فيه حد[٦] الى الله[٧] . (٤ أ)

حدثنا ابو النعمان وسليمان نحوه قالا : حدثنا حماد عن عمرو بـن دينار قال : قيل لجابر بن زيد : يا أبا الشعثاء انهم يكتبون عنك ؟ قال : انا لله يكتبون عني رأيي أرجع عنه غداً[٨] .

---

(١) اوردها ابو نعيم من طريق سفيان بن عيينة ايضـــا بالفاظ مقاربة (حلية الاولياء : ٨٦/٣) .

(٢) محمد بن سيرين .

(٣) اوردها ابن سعد من طريق حماد بن زيد (الطبقات ١٨١/٧).

(٤) هشام بن حسان .

(٥) محمد بن الفضل عارم السدوسي .

(٦) حَدّ : مضاء وصلابة ومقصد الى الخير (اللسان : مادة«حدد» ١١٧/٤) .

(٧) اوردها ابن سعد من هـــذا الطريق الى « حد » (الطبقات ١٨٠/٧) .

(٨) اوردها ابن سعد (الطبقات ١٨١/٧) .

حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد[١] عن حبيب[٢] عن[٣] ثابت البناني قال : قلت لجابر بن زيد : ما تشتهي ؟ قال : نظرة من الحسن ٠ قال :فأتيته فجاءه فسلم عليه[٤] ٠

حدثنا ابو بكر حدثنا سفيان قال : سمعنا عمراً يحدث قال : قال لي أبو الشعثاء : أي عمرو لي ناقة اقف عليها بعرفة اسمها جزة ما أحب أن لي بها بعيراً أقف عليه بعرفة اعطيت بها مائتي دينـــار[٥] ٠ قال عمرو : فقلت له : يا أبا الشعثاء لو كنت عندك لبعتها عليك ٠

حدثنا ابو عمر حفص بن عمر حدثنا زياد بن الربيع اليحمدي حدثنا صالح - يعني الدهان - قال : ما سمعت جابراً - يعني ابن زيد - قط يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصبيان هاهنا يقولون قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الساعة عشرين مرة ، وما علمت جابراً روى عــن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من خمسة عشر أو ستة عشر حديثا أو نحو ذلك[٦] ٠

حدثنا ابو بكر الحميدي حدثنا سفيان اخبرني عمرو بن دينار اخبرني أبو معبد وكان من اصدق موالي ابن عباس ٠

---

(١) حماد بن زيد ٠

(٢) حبيب بن الشهيد ٠

(٣) في الاصل «و» والتصويب من ابن سعد (الطبقات ٧/١٨٢)٠

(٤) اوردها ابن سعد من طريق حماد بن زيد بتفصيل اكثر ، وذكر ان الحسن البصري كان متواريا ٠ (الطبقات ٧/١٨٢) وأوردها أبو نعيم من هذه الطريق بأطول (الحلية ٣/٨٩) ٠

(٥) اوردها ابو نعيم من طريق سفيان بن عيينة ايضا (الحليـة ٣/٨٦) ٠

(٦) وردت هذه الرواية في الاصل بعد الروايات المتعلقة بأبي معبد وابي يحي فقدمتها لتعلقها بترجمة زيد بن جابر ٠

٢ ـ نصوص من القرن الخامس الهجرى :

أ ـ من كتاب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء

للحافظ الأصبهاني المتوفى ٤٣٠هـ .

حلية الأولياء

وطبقات الأصفياء

للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني
المتوفى سنة ٤٣٠ هـ

الجزء الثالث

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

٢١٣ - جابر بن زيد

قال الشيخ : ومنهم المتخلى بعلمه عن الشبه والظلماء ، والمتسلى بذكره فى الوعورة والوعثاء ، جابر بن زيد أبو الشعثاء . كان للعلم عينا معينا ، وفى العبادة ركنا مكينا ، وكان إلى الحق آيباً ، ومن الخلق هاربا ، تأخر ذكره عن طبقته وهو من قدماء التابعين .

* حدثنا محمد بن احمد بن الحسن قال ثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة قال ثنا أبى قال ثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار قال سمعت عطاء قال قال ابن عباس رضى الله تعالى عنه : لو نزل أهل البصرة بجابر بن زيد لأوسعهم علماً من كتاب الله عز وجل * حدثنا احمد بن محمد بن سنان قال ثنا محمد ابن اسحاق الثقفى قال ثنا محمد بن الصباح وعبد الجبار بن العلاء . قالا : ثنا سفيان عن عمرو قال أخبرنى عطاء أنه سمع ابن عباس يقول : لو نزل أهل البصرة عند قول جابر بن زيد لوسعهم علما عما فى كتاب الله عز وجل * حدثنا محمد بن احمد فى كتابه قال ثنا موسى بن اسحاق قال ثنا عمرو بن على قال ثنا عرعرة بن البرند قال حدثنى تميم بن جرير السلمى عن الرباب . قال :

سألت ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن شئ . فقال : تسألونى وفيكم جابر بن زيد .

* حدثنا أبو حامد بن جبلة قال ثنا أبو العباس السراج قال ثنا محمود بن غيلان قال ثنا الفضل بن موسى وزيد بن الحباب . قالا : ثنا يزيد بن عقبة عن الضحاك الضبى . قال : لقى ابن عمر جابر بن زيد فى الطواف فقال : ياجابر انك من فقهاء أهل البصرة وانك ستستفتى ؛ فلا تفتين إلا بقرآن ناطق ، أو سنة ماضية ، فانك إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت * حدثت عن عقبة ابن مكرم قال ثنا يونس بن بكير قال حدثنى سعيد بن عبد الله البصرى قال حدثنى زياد بن جبير . قال : سألت جابر بن عبد الله الأنصارى عن مسئلة . فقال فيها ،ثم قال : كيف تسألونا وفيكم أبو الشعثاء * حدثنا محمد بن احمد بن الحسن قال ثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة قال ثنا أبى قال ثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار . قال : مارأيت أحداً أعلم بالفتيا من جابر بن زيد * حدثنا أبو حامد بن جبلة قال ثنا أبو العباس السراج قال ثنا حاتم بن الليث الجوهرى قال ثنا عارم قال ثنا حماد بن زيد عن خالد بن فضالة الأزدى عن إياس بن معاوية . قال : أدركت أهل البصرة وفقيههم جابر بن زيد من أهل عمان * حدثنا أبو محمد بن حيان قال ثنا محمد بن العباس الاخرم قال ثنا نصر بن على قال ثنا محمد بن سوار قال ثنا أبو الحباب . قال: لما دفن جابر بن زيد قال قتادة اليوم دفن علم الأرض * حدثنا احمد بن محمد بن سنان قال ثنا محمد بن اسحاق الثقفى قال ثنا محمد بن الصباح وعبد الجبار بن العلاء . قالا : ثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار . قال قال لى أبو الشعثاء : كتب الحكم بن أيوب نفرا للقضاء أنا منهم ، أى عمرو(١) فلو ابتليت بشئ منه لركبت راحلتى وهربت فى الأرض.

* حدثنا أبى وأبو محمد بن حيان . قالا : ثنا ابراهيم بن محمد بن الحسن قال ثنا عبد الجبار بن العلاء قال ثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار . قال قال لى جابر بن زيد : إنّ لى ناقة أقف عليها بعرفة ، مايسرنى أن لى كل بعير

(١) كذا فى ج . وفى ت : أنا واحدهم فلو ابتليت الخ .

بعرفة مكانها ، أعطيت بها مائتى دينار فلم أبعها . قال سفيان : وحدثنا بعض البصريين : أن جابر بن زيد خرج على ناقة له بالهلال فوافى الموسم * حدثنا أبو حامد بن جبلة قال ثنا محمد بن اسحاق قال ثنا الجوهرى قال ثنا الفضل بن دكين قال ثنا محمد بن برجان . قال : رأيت أبا الشعثاء جابر بن زيد سابق الحجاج يسير احدى عشرة ، اثنتى عشرة .

* حدثنا أبو احمد محمد بن احمد قال ثنا عبد الله بن عبد الله بن عبد العزيز قال ثنا سويد بن سعيد قال ثنا زياد بن الربيع عن صالح الدهان عن جابر بن زيد . قال : نظرت فى أعمال البر فاذا الصلاة تجهد البدن ولا تجهد المال ، والصيام مثل ذلك ، والحج يجهد المال والبدن . فرأيت أن الحج أفضل من ذلك كله .

* حدثنا محمد بن احمد قال ثنا عبدالله بن محمد البغوى قال ثنا نصر بن على قال ثنا زياد بن الربيع عن صالح الدهان . أن جابر بن زيد : كان لا يماكس فى ثلاث ، فى الكراء الى مكة ، وفى الرقبة يشتريها للعتق ، وفى الأضحية . وقال : كان جابر بن زيد لا يماكس فى كل شئ يتقرب به الى الله عز وجل .

* حدثنا أبو بكر بن مالك قال ثنا عبد الله بن احمد قال ثنا على بن مسلم قال ثنا سيار قال ثنا جعفر قال ثنا مالك بن دينار . قال : خرج جابر بن زيد بسواد ، فأخذ قصبة من حائط فجعل يطرد بها الكلاب ، فلما أصبح ردها فى الحائط * حدثنا محمد بن احمد قال ثنا عبد الله بن محمد البغوى قال ثنا نصر بن على قال ثنا زياد بن الربيع عن صالح الدهان . أن جابر بن زيد كان يتحدث مع بعض أهله فمر بحائط قوم فانتزع منه قصبة فجعل يطرد بها الكلاب عن نفسه ، فلما أتى البيت وضعها فى المسجد . فقال لأهله : احتفظوا بهذه القصبة فانى مررت بحائط قوم فانتزعتها منه . قالوا سبحان الله يا أبا الشعثاء ! ما بلغ بقصبة ؟ فقال : لوكان كل من مر بهذا الحائط أخذ منه قصبة لم يبق منه شئ ، فلما أصبح ردها .

* حدثنا أبو بكر محمد بن احمد قال ثنا محمد بن سهل قال ثنا حميد بن

مسعدة قال ثنا الفضل بن العلاء قال ثنا عثمان بن حكيم عن جابر بن زيد . قال: اذا جئت يوم الجمعة فقف على الباب ، وقل : اللهــم اجعلنى اليوم أوجه من توجه اليك ، وأقرب من تقرب اليك ، وأنجح من دعاك وطلب اليك * حدثنا أبو حامد بن جبلة قال ثنا محمد بن اسحاق قال ثنا هارون بن عبد الله قال ثنا سيار قال ثنا ابن زيد قال ثنا الحجاج بن أبى عيينة . قال : كان جابر بن زيد يأتينا فى مصلانا ، قال فأتانا ذات يوم عليه نعلان خلقان . فقال : مضى من عمرى ستون سنة نعلاى هاتان أحب الى مما مضى ، إلا يك خيراً قدمته .

* حدثنا احمد بن محمــد بن سنان قال ثنا أبو العباس السراج قال ثنا أبو معمر صالح بن حرب قال ثنا خالد بن زيد الهدادى قال ثنا صالح الدهان . قال إن جابر بن زيد كان اذا وقع فى يده درهم (١) ستوق كسره ورمى به ، يعنى لئلا يغرى به مسلما .

* حدثنا أبو بكر بن مالك قال ثنا عبد الله بن احمد بن حنبل قال حدثنى أبى قال ثنا أبو عبــد الصمد العمى قال ثنا مالك بن دينار . قال : دخــل على جابر بن زيد وأنا أكتب ، فقلت له كيف ترى صنعتى هذه يا أبا الشعثاء ؟ قال نعم الصنعة صنعتك ، ما أحسن هــذا تنقل كتاب الله عز وجل من ورقة الى ورقة وآية الى آية وكلمة الى كلمة هذا الحلال لا بأس به .

* حدثنا أبو بكر بن مالك قال ثنا عبد الله بن احمد قال ثنا عبيد الله بن عمر القواريرى قال ثنا جعفر بن سليمان قال ثنا مالك بن دينار . قال : سألت جابر بن زيد قلت قول الله تعالى (ولولا أن ثبتناك لقــد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا اذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) . قال : ضعف عذاب الدنيا ، وضعف عذاب الآخرة (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) .

* حدثنا احمد بن جعفر بن حمدان قال ثنا عبدالله بن احمد بن حنبل قال ثنا شيبان بن أبى شيبة قال ثنا سلام بن مسكين قال ثنا مالك بن دينار . قال : جاءنى جابر بن زيد وقال انطلق بنــا حتى نسمع من قراءة نصر بن عاصم ،

(١) الدرهم الستوق : المزيف من هامش ج .

قال فلما انطلقنا جلسنا فقرأ (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم) . فقال جابر : أما إن مع قراءتكم هذه هو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم .

* حدثنا أبو حامد بن جبلة قال ثنا محمد بن اسحاق قال ثنا عبد الجبار قال ثنا سفيان عن عمرو بن أيوب عن ابن سيرين . قال : كان أبو الشعثاء مسلما عند الدينار والدرهم — يعنى كان ورعا عندهم — .

* حدثنا أبو حامد قال ثنا محمد بن اسحاق قال ثنا عبد الجبار بن العلاء قال ثنا سفيان عن عمرو . قال قال أبو الشعثاء : يا عمرو ما أملك من الدنيا إلا حماراً .

* حدثنا محمد بن احمد بن الحسن قال ثنا بشر بن موسى قال ثنا الحميدى قال ثنا سفيان قال ثنا أبو عمير الحارث بن عمير . قال قيل لجابر بن زيد عند الموت : أى شئ تريد — أو تشتهى ؟ قال نظرة الى الحسن * أخبرنا محمد بن احمد فى كتابه قال ثنا محمد بن أيوب قال ثنا سليمان بن حرب قال ثنا حماد بن زيد قال ثنا حبيب بن الشهيد عن ثابت . قال : لما ثقل جابر بن زيد قيل له ما تشتهى ؟ قال : نظرة الى الحسن ، قال فأتيت الحسن فأخبرته فركب اليه فلما دخل عليه قال لأهله أرقدونى فجلس فما زال يقول : أعوذ بالله من النار وسوء الحساب .

* حدثنا عبد الله بن محمد قال ثنا محمد بن عبد الله بن رسته قال ثنا محمد ابن عبيد بن حساب قال ثنا حماد بن زيد قال ثنا حجاج بن أبى عيينة عن هند بنت المهلب — وذكروا عندها جابر بن زيد — ، فقالوا إنه كان أباضيا . فقالت : كان جابر بن زيد أشد الناس انقطاعا الىّ والى أمى فما أعلم شيئا كان يقربنى الى الله إلا أمرنى به ، ولا شيئا يباعدنى عن الله عزوجل إلا نهانى عنه، وما دعانى الى الاباضية قط ولا أمرنى بها ، وان كان ليأمرنى أن أضع الخمار . ووضعت يدها على الجبهة .

* حدثنا أبو محمد بن حيان قال ثنا محمد بن الحسن بن على بن بحر قال ثنا أبو بكر بن نافع قال ثنا أمية بن خالد قال ثنا شعبة عن مطر الوراق عن جابر بن

زيد . قال : لأن أتصدق بدرهم على يتيم أو مسكين أحب الى من حجة بعد حجة الاسلام .

* حدثنا أبو بكر بن مالك قال ثنا عبد الله بن احمد قال حدثنى الحسن ابن عبد العزيز المصرى قال ثنا يحي بن حسان قال ثنا قريش بن حيان عن مالك بن دينار . قال : جاءنى جابر بن زيد فحضرت الصلاة فأبى أن يؤمنى وقال : ثلاث ربهن أحق بهن ؛ رب البيت أحق بالامامة فى بيته ، ورب الفراش أحق بصدر فراشه ، ورب الدابة أحق بصدر دابته .

أسند الكثير من الحديث عن ابن عباس ، وابن عمر . وروى عنه عمرو ابن دينار وقتادة وعمرو بن هرم .

* حدثنا عبد الله بن جعفر قال ثنا يونس بن حبيب ثنا أبو داود ثنا حبيب بن يزيد الانماطى قال ثنا عمرو بن هرم عن جابر بن زيد . أن ابن عباس جمع بين الظهر والعصر وزعم أنه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة الظهر والعصر . رواه عمرو بن دينار عن أبى الشعثاء * حدثناه الحسن ابن محمد بن كيسان قال ثنا موسى بن هارون قال ثنا داود بن عمرو قال ثنا محمد ابن مسلم عن عمرو بن دينار . قال سمعت أبا الشعثاء يقول : قال ابن عباس رضى الله تعالى عنه صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثمانى ركعات جميعا ، وسبع ركعات جميعا ، من غير مرض ولا علة . رواه معمر وروح بن القاسم وحماد بن زيد عن عمرو مثله (١) .

* حدثنا على بن هارون بن محمد قال ثنا يوسف بن يعقوب القاضى قال ثنا سليمان بن حرب قال ثنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه . قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب وهو يقول : « السراويل لمن لم يجد الازار ، والخفان لمن لم يجد النعلين » . رواه عمرو بن دينار وأيوب السختيانى وأشعث بن سوار

(١) العلامة ابن رسول البرزنجى الشافعى كتاب فى الجمع بين الصلاتين بعذر وبغير عذر اعتمد فيه على ما ذهب اليه ابن عباس .

والثوري وشعبة وابن جريج وسعيد بن زيد وهشيم .

* حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر قال ثنا احمد بن علي بن المثنى قال ثنا هدبة بن خالد قال ثنا همام عن قتادة عن جابر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أريد على ابنة حمزة . فقال : « إنها لا تصلح لي انها ابنة أخي من الرضاعة ، ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب » هذه الاحاديث الثلاثة متفق على صحتها .

* حدثنا سليمان بن احمد قال ثنا عبدان بن احمد قال ثنا جبارة بن المغلس قال ثنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نسي الصلاة عليَّ أخطأ طريق الجنة » . غريب من حديث جابر وعمرو لم نكتبه إلا من حديث جبارة تفرد به .

* حدثنا سليمان بن احمد قال ثنا السري بن سهل قال ثنا عبدالله بن رشيد قال ثنا مجاعة بن الزبير عن قتادة عن جابر عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال : « يؤتى بالشهيد يوم القيامة فينصب للحساب ، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، فيصب لهم الأجر صباً ، حتى أن أهل العافية ليتمنون في الموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله عز وجل لهم » . هذا حديث غريب من حديث جابر وقتادة تفرد به عنه مجاعة .

* حدثنا محمد بن علي بن حبيش قال ثنا احمد بن عبد الجبار قال ثنا ابراهيم ابن محمد بن عرعرة قال ثنا معتمر بن سليمان عن الحكم بن أبان عن الغطريف أبي هارون عن جابر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح الأمين . قال : « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته فيقص بعضها ببعض ، فاذا بقيت حسنة وسع الله له في الجنة » . هذا حديث غريب من حديث جابر والغطريف تفرد به عنه الحكم بن أبان العدني .

٣ ـ نصوص من القرن السابع الهجرى :

طبقات المشائخ بالمغرب

للشيخ أبي العباس الدرجيني

المتوفي ٦٧٠هـ .

كتاب

طبقات المشائخ بالمغرب

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني رحمه الله
المتوفى حوالي 670 هـ

الجزء الثاني

حققه وقام بطبعه

إبراهيم طلاي

« الطبقة الثانية » 50 ـ 100 هـ

جابـر بن زيـد الازدى

منهم جابر بن زيد الازدى رحمه الله . بحر العلـــوم العجاج (1) ، وسراج التقوى ، ناهيك به من سراج ، أصل المذهب وأسّه الذى قام عليه نظامه ، ومنار الدين ومـــن انتصبت به أعلامه ، صاحب ابن عباس رضى الله عنـه ، وكان امهر من صحبه ، وقرأ عليه ، والمقدم ممن يشار فى الفتيى اليه ، ذكر ابو طالب المكى فى كتاب قوت القلوب ، قال ابن عباس رحمه الله : اسألوا جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه ، وعن اياس بن معاوية قال : لقد رأيت البصرة وما بها مفت غير جابر بن زيـد وعن الحصي بن حيال انه قال : لما مات جابر بن زيد بلـــغ موته انس بن مالك فقال : مات اعلم من على ظهر الارض أو قال مات خير أهل الارض ، وعن ابن عباس أيضا انه قال : جابر بن زيد اعلم الناس،وعنه انه كان يقول عجبا لاهل العراق كيف يحتاجون الينا وعندهم جابر بن زيـد ، لو قصدوا نحوه لوسعهم علمه ، وله آثار كثيرة مذكورة ، وكرامات . ومقامات فى العلم تعلـو المقامات سيأتى ما امكن . ان شاء الله .

---

(1) البحر = النهر العجاج بالمبالغة الذى يسمع له عجعجا أى دويا عظيما .

جابر بن زيد يدعو الناس للاعتبار

فمن ذلك ما ذكر ابو سفيان (١) قال : أصاب الناس على عهد جابر بن زيد ظلمة وريح ، ورعد ، ففزعوا الى المساجد ، قال فخرج ابو الشعثاء الى بعض المساجد فجلس فيه يذكر الله ، والناس في تضرع وضجة ، قال فلما انجلت تلك الريح وتلك الظلمة أخذ الناس ينصرفون الى اسواقهم ومنازلهم ، قال فدعا قوما كانوا قريبا منه فقال لهم ما كنتم تظنون هذا الامر ؟ قالوا خفنا ان تكون القيامة قد قامت قال انما خفتم طي الدنيا والافضاء الى الآخرة ، قالوا نعم قال لقد خفتم امرا عظيما فحق عليكم ان تخافوه ، ثم قال اين تذهبون الآن ؟ قالوا الى منازلنا قال لقد خفتم امرا عظيما ففزعتم الى الدعاء ، ولو جاء ما خفتم لم يغن عنكم ما كنتم فيه شيئا ، فالآن اذ رد الله عليكم دنياكم فاعملوا حين قبول العمل واما ما كنتم فيه فلو كان الامر ما خفتموه لم يغن عنكم دعاؤكم من الله شيئا .

وذكر أبو سفيان : ان جابر بن زيد دخل المسجد الحرام فاذا برجل من الحجاج يصلي على ظهر الكعبة ، قال ، فقال جابر بن زيد من المصلي ؟ لا قبلة له ، قال ، وكان ابن عباس في ناحية المسجد ، فسمع قوله أو اخبر به ، فقال ان كان جابر في شيء من البلد فهذا القول منه ، قال ، فنظر فاذا هو جابر بن زيد .

جابر بن زيد يسأل عائشة ويستفيتها

وقال ابو سفيان ان جابر بن زيد وابا بلال دخلا على عائشة رضى الله عنها ، فعاتباها على ما كان منها يوم الجمل قال فاستغفرت الله تعالى ، وتابت مما كانت قد دخلت فيه ، وقال ابو سفيان دخل جابر بن زيد على عائشة رضى الله عنها فاقبل يسألها مسائل لم يسألها أحد عنها حتى سألها عن

جماع النبيء صلى الله عليه وسلم ، كيف كان يفعل . وان جبينه يتصبب عرقا . وهي تقول سل يا بني . ثم قالت له ممن انت؛قال من أهل المشرق من عمان ، قال ابو سفيان فذكرت شيئا له لم احفظه الا اني اظنها قالت : النبيء صلى الله عليه وسلم . قال : ليكثرن وراد حوضي من أهل عمان . أو شبه هذا .

جابر يتمنى لقاء الحسن البصري قبل ان يموت

ولما حضرت جابر بن زيد الوفاة اتاه ثابت البناني وقال يا ابا الشعثاء ، هل تشتهي شيئا ؟ قال اني لا اشتهي الا ان ألقى الحسن قبل ان أموت ، قال فخرج ثابت البناني فدخل على الحسن فأعلمه بقول جابر بن زيد قال وكان الحسن اذ ذاك مستخفيا ، فقال : كيف لي بذلك ؟ قال اركب بغلتي على السرج وأنا اردف خلفك ، وأعطيك طيلساني وارجو ان لا يعرض لنا . قال ففعل ، ودخل على أبي الشعثاء وهو مضطجع فانكب عليه الحسن وهو يقول : يا ابا الشعثاء قل لا اله الا الله فرفع جابر عينيه ، فقال : أعوذ بالله من غدو ورواح الى النار ، فقال له الحسن يا ابا الشعثاء . قل لا اله الا الله . قال : فقال أعوذ بالله من غدو ورواح الى النار ، ثم قال يا ابا سعيد « يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا » قال فقال الحسن هذا والله الفقيه العالم ، ثم قال يا ابا سعيد حدثني بحديث ترويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في المؤمن اذا حضرته الوفاة . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان المؤمن اذا حضرته الوفاة وجد على كبده بردا » فقال جابر الله اكبر ، والله اني لأجد بردا على كبدي .

يحبس لكي لا يذهب الى الحج

قال وكان جابر بن زيد يحج كل سنة ، فلما كان ذات سنة بعث اليه والى البصرة ان لا يبرح العام فان الناس اليه محتاجون ، فقال لا افعل : فحبسه ، فلما كان غرة ذى الحجة جاءه الناس ، فقالوا اصلحك الله قد هل هلال ذى الحجة ، فأرسل اليه واخرجه من السجن . قال فأتى الى داره ولـه ناقة قد اعدها للخروج فأخذ يشد عليها الرحل ، ويقول : ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها . ثـم قال : يا آمنة(1) عندك شيء ؟ قالت نعم ، قال فاجعليه في جرابي ، قال فهيئت له زاده، ثم قال من سألك فلا تخبريه بمسيرى يومى هذا ، قال فخرج من ليلته ، قال فانتهى الى عرفات والناس بالموقف ، قال فضربت بجرانها الارض ، وتجلجلت فقال الناس : ذكها ذكها يا ابا الشعثاء ، فقال حقيق لناقة رأت هلال ذى الحجة بالبصرة ان تفعل هذا، ثم سلمها الله، قال وكان قد سافر عليها اربعا وعشرين سفرة ، فى حجة وعمرة .

جابر يحاجج المستحلين لدماء من خالفهم

وقد بلغنا عن جابر بن زيد ان امرأة كانت له جاريـة فقالت له يا ابا الشعثاء ان فلانا يخطب الي جاريتى فمـا ترى ؟ قال : لا تزوجيه ، فانطلقت فعاد اليها الرجل فعادت الى جابر ، وقال لا تزوجيه فانطلقت فعاد اليها الرجــل فقال ان لم تزوجيها وقعتها حراما ، فأتت جابرا ، فأعلمته بالذى كان من قول الرجل ، فقال زوجيها الآن فهذا خوف العنت .

وقال : حدث ضمام ان جابر بن زيد كان يلقى الخوارج

(1) فى نسخ تذكر باسم : امينة

فيقـون : اليـس قـد احـل اللـه دمـاء أهـل الحرب بدين بعد تحريمها بدين ؟ قال فيقولون بلى . قال : ويقولوا وحرم ولايتهم بدين بعد الامر بها بدين ؟ قـال فيقولون بلى . فهل احل ما عدا هذا بدين ؟ قال فيسكتون ولا يجيبونه بشيء . قلت وهؤلاء اصحاب نافع بن الازرق ومن قال بقولهم ، في استحلال اموال المسلمين بدين .

حكم عطاء الجبابرة

وقال : تكلمت نساء من المسلمين بعد جابر في المال الذي تجمعه الجبابرة فقلن انه حرام ، قال ثم افشينه حتى لقين رجلا يقال له ابو الوزير ، فأجابهن الى ذلك ، فقال صدقتن وهممن ان يرفعن ذلك الى ضمام وابى عبيدة ، قـال فلم يزل بهن حتى لقين أبا حمزة الاشعث فكلمنه في ذلك فقال لهن أبو حمـزة ومن وافقكن على ما تقلن ؟ ، قلـن أبو الوزير ،فقال أبو حمزة أو قد بلغ من ضعف أبى الوزير ما أرى ؟ قال ، ثم نهاهن واعظم ذاك عليهن ، فقال أما اذ زعمتن ذلك فانكن تتقدمن على جابر بن زيد وأبى بلال واصحابه ، فانهم ماتوا وهم يأخذون اعطيتهم ، قال وبلـغ ذلك ضماما فاشتد في ذلك واعظم قولهن قال فرجعـن واستغفرن الله ، ولم يعدن الى ذكر شيء من ذلك .

قال ولما مات جابر بن زيد أتى قتادة وهو اذ ذاك قـد عمي وقال ادنوني من قبره قال فادنوه حتى وضع يده على قبره ثم قال اليوم مات عالم العرب،وقال : لقي جابر امرأة من أهل الدعوة فوقف ساعة يكلمها وتكلمه قال فلما أرادا ان يفترقا قال لها اني احبك ثم افترقا فانطلق غير بعيد ، ففكر في قوله لها اني احبك ، فانصرف اليها وقال في الله قال فقالت له وما تظن اني حملت ذلك عـلى غير الحب في الله ؟ أي والله في الله .

لا نكافىء الاساءة بمثلها

وقال خرجت آمنة زوج جابر الى مكة ذات سنة ، فاقام جابر تلك السنة قال فلما رجعت سألها عن كريها (١) فذكرت منه سوء الصحبة ، ولم تثن عليه بخير ، قال فخرج اليه جابر فادخله الدار فأمر باشتراء لابله علفا ، وعولج له طعام فلما تغدى خرج به الى السوق ، فاشترى له ثوبين فكساهما أياه ، ودفع اليه ما كان مع آمنة من قربة وادات وغير ذلك من آلات السفر ،قال فقالت له آمنة اخبرتك بسوء الصحبة ، ففعلت معه ما أرى قال أفنكافيه بمثل فعله فنكون مثله ؟ لا بل نكافيه بسوء خيرا ، وبالاساءة احسانا .

راي جابر في الهرم العاجز عن الصوم

وقال أبو سفيان كانت جدة أبى يقال لها أم الرحيل . والرحيل أبى وبه يسمى ، واسم جدى العنبر وكانت أم الرحيل قد كبرت حتى لم تطق الصيام، قال فأتى بها ابناها الرحيل والعنبر الى جابر ، فقالا يا ابا الشعثاء ، ان أم الرحيل قد كبرت فلا تطيق الصيام ، قال : وانها لحية بعد ، قالا نعم ، قال : فصوما عنها قال فتنافسا فى ذلك قال وكان الرحيل أكبر من العنبر ، فصام عنها الرحيل ، فلما كان فى العام الثانى أتياه فأعلماه أيضا بحالها ، فقال ما كنت امرتكم به فى العام الاول قال امرتنا ان نصوم عنها ، قال فأطعما عنها فأطعم عنها العنبر .

وقال جاء أبو الحرانى لابى عبيدة ذات سنة قال يا أبا عبيدة اقم للناس بعد الموسم خمسة أيام فامتنع وقال لابى الحر عليك بضمام بن السائب فانه يفعل،قال أو عنده من العلوم ما يكتفى الناس به ؟ قال نعم ، واكثر من ذلك ، قال فأتاه فاقام للناس فاجتمع اليه من حضر الموسم ، فجعلوا يسألونه

(١) الكرى بشد الياء ،المكارى

عن اشياء كثيرة من مسائل دينهم ، قال فكان جوابه ان يقول سألت جابرا ، أو سئل جابر أو سمع جابرا ، أو قال جابر . قال ابو سفيان وكان ضمام قد حفظ عن جابر ما لم يحفظه عنه ابو عبيدة ولا ابو نوح ولا احد من تلاميذه وقال بعثت هندة بنت المهلب الى جابر جزورا فى رمضان فنحرها وعالج جابر للناس طعاما ، فلما غابت الشمس أتانا بالجفان فى المجلس فوضعت للناس وكان مؤذنه يقال له أبو هارون وكان فاضلا ، وقال له يا أبا هارون أرى ان تهبط فتأكل معهم ولا تعجلهم الاقامة ، حتى يتفرغوا من طعامهم .

وقال : اطلع ابو الشعثاء يوما فاذا برجل من الاكارين يبكى ، ويصيح . فقال مالك ويحك ؟ فقال ان فتيان دربكم هذا نزعوا منى قنوي نخل جئت بهما الى صاحب الارض ، فأخاف ان لا يصدقنى ، قال فبعث جابر الى رجل من اصحابه له نخل ، فأخذ قنوين فدفعهما اليه .

جابر يتهرب من القضاء

ووفد جابر بن زيد فيما كان يفد فيه الى يزيد بن ابى مسلم كاتب الحجاج ، وكان به خاصا ، قال فأدخله ابو مسلم على الحجاج فكان فيما كان يسائله ان قال له : أتقرأ ؟ قال نعم ، قال أتفرض ؟ قال نعم ، فعجب الحجاج ، ثم قال ما ينبغى لنا ان نؤثر بك احدا بل نجعلك قاضيا بين المسلمين ، قال فقال جابر انى اضعف من ذلك ، قال وما مبلغ ضعفك ؟ قال يقع بين المرأة وخادمها شر فلا احسن ان اصلح بينهما ، قال ان هذا لهو الضعف ، ثم قال فهل لك من حاجة؟ قال نعم وما هى؟ قال تعطينى عطائى وترفع عنى المكروه ، فقال الحجاج هذا امر لا يستقيم ان اعطيك من بيت مال المسلمين، ولا نستعملك لهم. فقال له يزيد بن

ابى مسلم اصلحك الله ان هاهنا خصلة تخف على الشيخ وفيها عون للمسلمين ، قال وما هي ؟ قال تجعله في اعوان صاحب ديوان البصرة ، قال وذلك، قال فلما خرج من عنده قال له جابر : يا هذا ما صنعت شيئا أترانى ان أكون عونا لصاحب الديوان ؟ قال له يزيد اكتب الى صاحب الديوان ان لا يكلفك مؤونة ، ويعطيك عطاءك كاملا ، قيل وكان عطاؤه سبعمائة أو ستمائة درهم قيل وكان فى ديوان المعاملة .

رأي جابر فى القدر

وقال وقع فى نفس الحجاج شىء من أمر القدر ، فدعا كاتبه يزيد بن ابى مسلم قال ويحك يا يزيد وقع فى نفسى شىء من القدر ، فهل عندك من فرج ؟ قال سأكتب لك الى رجل بالبصرة عنده من ذلك علم ، قال فكتب الى جابر بن زيد ، اما بعد ، فان الامير وقع فى نفسه شىء من أمر القدر فاكتب اليه بما تفرج به عنه ، قال قل للامير يكثر ترديد خطبته فان فيها بيانا لما سأل عنه ، قال فأعلمه بذلك يزيد ، قال فرددها مرارا كل ذلك لا ينتبه منها بشىء حتى اذا كان بعد ذلك انتبه ، فقال من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، فقال يا يزيد ويحك ما اعلم صاحبك !

مما يؤثر عن جابر

وقال خرج جابر بن زيد وهو يريد الجمعة فلما أتى المسجد تلقاه الناس متفرقين ، قال فشق ذلك عليه مشقة عظيمة شديدة وقال اللهم لك علي ان لا اعود ، وقال : استأذن عمارة بن خيان على جابر بن زيد فقال له ارجع ، فلما ذهب قال ردوه فردوه فقال اراك وجدت فى نفسك اما انه ازكى لك اذ رجعت ، وقال دخل العنبر على جابر فى

ليلة صافية مظلمة وآمنة قاعدة الى جانبه فى الدار ، وقال فأخذت عليها صلاتها فحدثها جابر ، وقال : ان الله جعل الليل لباسا ، قال : يقول ان الخمار والمقنعة بالليل يجزيان عن رداء .

وقال قال جابر بن زيد ليس للعالم ان يقول للجاهل أعلم مثل علمى والا قطعت عذرك وليس للجاهل ان يقول للعالم اجهل مثل جهلى والا قطعت عذرك ، فاذا قال العالم ذلك للجاهل قطع الله عذر العالم واذا قال الجاهل ذلك للعالم قطع عذر الجاهل .

وقال مر رجلان من أهل الدعوة على ابى الشعثاء وهو قاعد فى سقيفة باب داره ولم يرياه وهما يتذاكران رجلا فقالا عليه لعنة الله ، فقال أبو الشعثاء لعن الله من لعنتما ، قال فانصرفا حين سمعا كلامه ، فقالا ما رأيناك ولا علمنا بمكانك ثم قالا : يا ابا الشعثاء اتلعن رجلا ولم يثبت عندك أمره ؟ قال وأي شيء اثبت منكما وقد اجمعتما على لعنه ؟ وعن الربيع بن حبيب عن شيخ من أهل البصرة . انه قال دخل جابر على عائشة رحمهما الله فسألها عن مسائل ثم انصرف فقالت عائشة لقد سألني عن مسائل لم يسألني عنها مخلوق قط ، تعنى جابرا . وعن الربيع بن حبيب عن بعضهم قال اتيت جابر بن زيد فى بعض الفتيى مما يبتلى به الناس فما أعلم انى كلمت فقيها ولا عالما ولا أميرا قط أعلم منه ، ولا أعقل منه .

جابر تمنى على الله ثلاثا فحققها لـه

وعن الحصين عن جابر بن زيد أنه قال : سألت ربى عن ثلاث فأعطانيهن سألت زوجة مؤمنة ، وراحلة صالحة ورزقا حلالا كفافا يوما بيوم ، وقال لاصحابه ليس منكم رجل أغنى

منى ، ليس عندى درهم ولا علي دين ، وعن قتادة ان الحجاج
أرسل الى جابر بن زيد يسأله عن الخنثى كيف يورث ؟
فقال تحبسوننى وتستفتوننى ! ثم قال يورث من قبل مباله
قلت وعلى ذلك العمل .

٤ - نصـوص من القـرن الثامن الهجـرى :

أ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال .

للحافظ جمال الدين يوسف المزى المتوفى ٧٤٢ هـ .

ب - تـذكـرة الحفـاظ

للإمام شـمس الدين الذهبي المتوفي ٧٤٨هـ .

جـ - سـير أعـلام النبـلاء

للإمام شـمس الدين الذهبي المتوفي ٧٤٨هـ .

د - البداية والنهاية لابن كثير المتوفي ٧٧٤هـ .

تهذيب الكمال في أسماء الرجال

للحافظ المتقن جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي

٦٥٤ - ٧٤٢ هـ

المجلد الرابع

حققه، وضبط نصه، وعلق عليه

الدكتور بشار عواد معروف

خرج أحاديثه وأشرف على طبعه

شعيب الأرنؤوط

مؤسسة الرسالة

٨٦٦ ـ ع : جَابر(٣) بن زيد الأَزْدِيُّ ، اليَحْمَدِيُّ ، أبو الشَّعْثاء

(١) تاريخ البخاري الكبير : ٢ / ١ / ٢٠٣ ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١ / ١ / ٥٠١ وثقات ابن حبان : ١ / الورقة : ٦٣ ، والجمع لابن القيسراني ١ / ٧٣ ، وتذهيب الذهبي : ١ / الورقة : ٩٩ ، والكاشف ١/١٧٦ ، وإكمال مغلطاي ٢/الورقة : ٥١ ، وتهذيب ابن حجر : ٢/٣٧ .

(٢) وأخرج ابن خزيمة حديثه في صحيحه مقروناً بابن لهيعة ، وقال : ابن لهيعة ليس ممن أُخرج حديثه في هذا الكتاب إذا تَفَرَّد بالرواية وإنما أُخرجت هذا الحديث لأن جابر بن إسماعيل معه في الإسناد .

(٣) طبقات ابن سعد : ٧ / ١٧٩ ، وتاريخ يحيى برواية الدوري : ٢ / ٧٣ ، وتاريخ خليفة : ٣٠٦ ، وطبقاته : ٢١٠ (في الطبقة الثالثة من اهل الكوفة) ، والعلل لأحمد : ١ / ٤٨ ، ٨٢ ، ١٦٣ ، ٢٣١ ، ٢٤٢ ، ٢٨٣ ، ٣٢١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٨٧ ، وتاريخ البخاري الكبير : ٢ / ١ / ٢٠٤ ، وتاريخه الصغير : ٨٠ ، والكنى لمسلم ، الورقة : ٥٢ ، وثقات العجلي ، الورقة : ٧ ، والمعرفة ليعقوب : ١ / ٣٩٦ ، ٤٩٦ ، ٧١٤ ، ٢ / ٩ ، ١٠ ، ١٢ـ١٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٢١٨ ، ٥٨٧ ، ٦٩٨ ، ٣ / ٢٧ ، ٢١٣ ، وتاريخ أبي زرعة الدمشقي : ٢٤١ ، ٥١١ ، ٦٧٢ ، والمعارف للدينوري : ٤٣٥ ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١ / ١ / ٤٩٤ ـ ٤٩٥ ، وثقات ابن حبان : ١ / الورقة : ٦٣ ، والحلية لأبي نعيم : ٣ / ٨٥ ، وطبقات الفقهاء للشيرازي : ٨٨ ، والجمع لابن القيسراني : ١ / ٧٣ ، والأنساب للسمعاني واللباب لابن الأثير في «الجوفي» ، وتهذيب الاسماء للنووي : ١ / ١٤١ ، والمختصر لابن عبد الهادي ، الورقة : ٨ ، ومعرفة التابعين للذهبي ، الورقة : ٥ ، والتذهيب : ١ / الورقة : ٩٩ ، والكاشف : ١ / ١٧٦ ، وسير أعلام النبلاء : ٤ ، ٤٨١ ، ٤٨٣ ، وتذكرة الحفاظ : ١ / ٧٢ ، وتاريخ الاسلام : ٤ / ٧٧ ـ ٧٨ و ٤/٩٥ ، وإكمال مغلطاي : ٢ / الورقة : ٥١ ، ٥٢ ، وتهذيب ابن حجر ٢ / ٣٨ ، ٣٩ وغيرها .

الجَوْفيُّ ، البَصْريُّ ، والجَوْفِيُّ [١] : نسبة إلى ناحية بعُمان ، وقيل : موضع بالبصرة . يقال له : دَرْب الجَوْف .

روى عن : الحكم بن عَمرو الغِفَاريِّ (خ د) ، وعبد الله بن الزبير (خت) ، وعبد الله بن عباس (ع) ، وعبد الله بن عُمر بن الخطاب ، وعِكرمة مولى ابن عباس ، ومُعاوية بن أبي سفيان (خت) .

روى عنه : أميّة بن زيد الأزْدِيُّ (خد) ، وأيوب السَّخْتيانيُّ ، وَحَيّان الأعرج ، وداود بن أبي القصاف ، وسليمان بن السائب ، وصالح الدّهـان ، وأبو حفص عُبيد الله بنُ رُسْتُم ، إمام مسجد شعبة ، وأبو المُنِيب عُبيد الله بن عبد الله العَتَكيُّ ، وعَزْرَة بن عبد الرحمان الكُوفيُّ ، وعَمرو بن دينار (ع) وعَمرو بن هَرِم الأزْدِيُّ (س) ، والغِطْريف أبو هارون العُمانيُّ ، وقَتَادة بن دِعامة (ع) ، ومحمد بن عبد العزيز الجَرْميُّ ، ومَزْيَد بن هِلال ، ويقال : هِلال بن مَزْيَد ، والمُهَلَّب بن أبي حَبيبة ، والوليد بن يحيىٰ الأزْديُّ ، ويَعْلَىٰ ابن حكيم ، ويَعْلَىٰ بن مُسْلم (صد س) ، وأبو العَنْبَس الأكبر (د س) .

قال عَمرو بن دينار ، عن عطاء ، عن ابن عباس : لو أن أهل

---

(١) الجوفي ـ بالجيم ـ هكذا قيده المؤلف وجوّده ابن المهندس بخطه ، متابعاً في ذلك أبا سعد السمعاني في « الأنساب » وابن الأثير في « اللباب » ، وكذلك قيدها ياقوت في « معجم البلدان » ، ولكن الذهبي قيده بالخاء المعجمة ونص عليه في « المشتبه » ٢٥٩ وأخذه عنه ابن حجر في « التبصير » وغيره ، على أن المكان الذي بعُمان يقال فيه بالجيم والحاء المهملة والخاء المعجمة كما قرره السيد الزبيدي في « التاج » .

البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد ، لأوسعهم علماً من[1] كتاب الله . وربما قال : عما في كتاب الله .

وقال عَتّاب بن بشير ، عن خُصَيف ، عن عِكرمة ، كان ابن عباس يقول : هو أحد العلماء ـ يعني جابر بن زيد ـ

وقال عُروة بن البرند ، عن تميم بن حُدَير ، عن الرَّباب : سألت ابن عباس عن شيءٍ ، فقال : تسألوني وفيكم جابر بن زيد ! ؟

وقال داود بن أبي هند ، عن عَزْرَة : دخلت علىٰ جابر بن زيد فقلت : إن هؤلاء القوم ينتحلونك ـ يعني الإباضية ـ قال : أبرأ إلى الله من ذلك .

وقال أبو بكر بن أبي خَيْثمة عن يحيىٰ بن مَعِين ، وأبو زُرْعَة : بصريٌّ ثِقَةٌ[2] .

قال أحمد بن حنبل ، وعَمرو بن عليّ ، والبُخاريّ : مات سنة ثلاث وتسعين .

وقال محمد بن سعد : مات سنة ثلاث ومئة[3] .

قال : وقال الهيثم بن عَدِيّ : مات سنة أربع ومئة .

روى له الجماعةُ .

(١) في الجرح والتعديل « لابن أبي حاتم : « عن » .

(٢) وقال العجلي : « تابعي ثقة » . وقال البخاري في تاريخه الكبير : « قال لي صدقة عن الفضل بن موسى عن ابن عقبة عن الضحاك عن جابر بن زيد ، قال : لقيني ابن عمر فقال : يا جابر إنك من فقهاء أهل البصرة وستستفتى فلا تفتين إلا بكتاب أو سنة ماضية » . وقال ابن حبان في ثقاته : « وكانت الإباضية تنتحله ، وكان هو يتبرأ من ذلك . . . وكان من أعلم الناس بكتاب الله » وقال الإمام الذهبي في « السير » : « كان عالم أهل البصرة في زمانه ، يُعَدُّ مع الحسن وابن سيرين ، وهو من كبار تلامذة ابن عباس » .

(٣) أيد الذهبي قول من قال بوفاته سنة (٩٣) ، وقال : « وَشَذَّ من قال : إنه توفي سنة ثلاث ومئة » .

الامام ابو عبدالله شمس الدين الذهبي

المتوفى ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ م

كتاب
تذكرة الحفاظ

الجزء الأوّل

(من الطبقة الاولى الى الطبقه السابعة)

صُحّح

عن النسخة القديمة المحفوظة فى مكتبة الحرم المكّى

تحت اعانة وزارة معارف الحكومة العالية الهندية

دار
احياء التراث العربي

٦٧ ٢/٣ ع - ابو الشعثاء جابر بن زيد

الازدى البصرى احد الاعلام و صاحب ابن عباس روى عنه قتادة و ايوب و عمرو بن دينار و طائفة ، روى عطاء عن ابن عباس قال لوأن اهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علما عما فى كتاب الله ، و روى عن ابن عباس [قال(١)]: تسألونى عن شئ و فيكم جابر بن زيد ، و قال عمرو بن دينار ما رأيت احدا اعلم بالفتيا من جابر بن زيد و عن ضحاك الضبى قال لقى ابن عمر جابر بن زيد فى الطواف فقال يا جابر إنك من فقهاء البصرة و انك تستفتى فلا تفتين الا بقرآن ناطق او سنة ماضية ، فان لم تفعل هلكت و اهلكت. و عن ابى الحباب قال لما دفن ابو الشعثاء قال قتادة: اليوم دفن علم الارض. سمعه من ابى الحباب محمد بن سواء و عن اياس بن معاوية قال ادركت اهل البصرة و مفتيهم جابر بن زيد . قال حماد بن زيد سئل ايوب هل رأيت جابر بن زيد؟ قال نعم، كان لبيبا لبيبا - و جعل يعجب من فقهه قال احمد و الفلاس

(١) من المكية .

و البخارى: مات سنة ثلاث و تسعين . و قال الواقدى و ابن سعد: مات سنة ثلاث و مائة رحمه الله تعالى .

سِيَر أعلام النُّبَلاء

تصنيف

الإمام شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان الذّهبيّ

المتوفى
٧٤٨هـ - ١٣٧٤م

الجزء الرّابع

أشرف على تحقيق الكتاب وخرّج أحاديثه
شعيب الأرنؤوط

حقق هذا الجزء
مأمون الصّاغرجي

مؤسسة الرسالة

١٨٤ - أبو الشَّعْثاء ** (ع)

جابر بن زَيْد الأزْديُّ اليَحْمَدِيّ، مَوْلاهم، البصريّ، الخَوْفيّ، بخاءٍ معجمة[٢]، والخَوْفُ ناحيةٌ من عُمان، كان عالمَ أهل البصرة في زمانه، يُعدُّ مع

(١) انظر التعليق رقم (٨) ص ٣٦٥

* تاريخ البخاري ٤٩٤/٣، الجرح والتعديل القسم الأول من المجلد الثاني ٣٩، تهذيب الكمال ص ٤٩٧، تاريخ الإسلام ٤/٤، تذهيب التهذيب ٢٢/٢ ب، تهذيب التهذيب ٥٤/٤، خلاصة تذهيب التهذيب ١٤٠.

** طبقات ابن سعد ١٧٩/٧، طبقات خليفة ت ١٧٢٩، تاريخ البخاري ٢٠٤/٢، المعارف ٤٥٣، المعرفة والتاريخ ١٢/٢، الجرح والتعديل القسم الأول من المجلد الأول ٤٩٤، الحلية ٨٥/٣، طبقات الفقهاء للشيرازي ٨٨، تهذيب الأسماء واللغات القسم الأول من الجزء الأول ١٤١ والقسم الأول من الجزء الثاني ٢٤٤، تهذيب الكمال ص ١٧٩، ١٦٢٠ تاريخ الإسلام ٧٧/٤، تذكرة الحفاظ ٦٧/١، العبر ١٠٨/١، تذهيب التهذيب ٩٩/١ آ، البداية والنهاية ٩٣/٩، غاية النهاية، ت ٨٦٨، تهذيب التهذيب ٣٨/٢، النجوم الزاهرة ٢٥٢/١، طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٢٨، خلاصة تذهيب التهذيب ٥٩، شذرات الذهب ١٠١/١.

(٢) كذا ضبط في الأصل ونصَّ عليه المؤلف في «مشتبه النسبة» و«تاريخ الإسلام» وتبعه=

الحَسن وابنِ سيرين وهو من كبار تلامذةِ ابن عباس.

حدَّث عنه عَمْرو بن دينار، وأيُّوب السَّخْتياني، وقتادة، وآخرون.

رَوىٰ عطاء عن ابن عباس، قال: لو أنَّ أهلَ البصرة نزلوا عند قَوْل جابر ابن زَيْد لأوْسَعَهُم عِلْمًا عمّا في كتاب الله[1].

ورُوِيَ عن ابن عباس أنَّهُ قال: تسألوني وفيكم جابرُ بن زَيْد[2]!.

وعن عَمْرو بن دينار، قال: ما رأيتُ أحداً أعلم من أبي الشعثاء[3].

قال ابنَ الأعرابي: كانتْ لأبي الشعثاء حَلْقَةٌ بجامع البصرة يُفْتي فيها قبل الحَسَن، وكان من المجتهدين في العبادة، وقد كانوا يُفضِّلون الحسَن عليه حتى خفَّ الحسن في شأنِ ابن الأشعث.

قلتُ: لم يَخِفَّ، بل خرج مُكْرهاً.

قال أيوب: رأيت أبا الشعثاء، وكان لبيباً[4].

وقال قتادة يوم موت أبي الشعثاء: اليوم دُفِن علم أهل البصرة- أو قال: عالِمُ العراق[5].

وعن إياس بنِ معاوية، قال: أدركتُ أهل البصرة، ومُفْتِيهم جابر بن زيد[6].

= ابن حجر في «التبصير» إلا أنَّه في تهذيب الكمال ومعجم البلدان والقاموس ينسب إلى درب الجوف بالبصرة. واختُلف أيضاً في ضبط الخوف التي في عمان، فقيل بالجيم والحاء والخاء، انظر التاج.

(١) ابن سعد ١٧٩/٧، ١٨٠ والمعرفة والتاريخ ١٢/٢ والحلية ٨٥/٣.

(٢) الحلية ٨٦/٣.

(٣) المصدر السابق والمعرفة والتاريخ ١٣/٢ وروايتها: «ما رأيت أحداً أعلم بالفتيا من أبي الشعثاء».

(٤) انظر ابن سعد ١٨٠/٧ والمعرفة والتاريخ ١٢/٢.

(٥) انظر الحلية ٨٦/٣.

(٦) انظر ابن سعد ١٨٠/٧ والحلية ٨٦/٣.

وعن أبي الشعثاء، قال: لو ابتُليتُ بالقضاء، لركبتُ راحِلتي وهربتُ[١].

قال أحمد، والفلاَّس، والبخاري وغيْرُهم: تُوفِّيَ أبو الشعثاء سنة ثلاثٍ وتسعين.

وشذَّ من قال: إنَّه تُوفِّيَ سنة ثلاثٍ ومئة. حديثه في الدواوين المعروفة.

---

(١) انظر الحلية ٣/٨٦.

* طبقات ابن سعد ٥/٣١٩، نسب قريش لمصعب ٤٦، طبقات خليفة ت ٢٠٤٥، تاريخ البخاري ٢/٢٨٩، المعارف ٢١٢، الجرح والتعديل القسم الثاني من المجلد الأول ٥، تاريخ ابن عساكر ٤/٢١٧ آ، تهذيب الكمال ص ٢٥٥، تاريخ الإسلام ٣/٣٥٦، العبر ١/١٩٦، تذهيب التهذيب ١/١٣٢ ب، البداية والنهاية ٩/١٧٠، تهذيب التهذيب ٢/٢٦٣، خلاصة تذهيب التهذيب ٧٧، تهذيب ابن عساكر ٤/١٦٥.



﴿ فى التاريخ ﴾

للإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل
عمر بن كثير ، القرشى ، ابن الدمشق ، المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

الجزء التاسع

﴿ الطبعة الأولى سنة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م ﴾

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى

أبو الشعثاء جابر بن زيد : كان لا يماكس[1] فى ثلاث : فى الكرى إلى مكة ، وفى الرقبة يشتريها للعتق ، وفى الأضحية . وقال : لا تماكس فى شىء يتقرب به إلى الله .

وقال ابن سيرين : كان أبو الشعثاء مسلما عند الدينار والدرهم . قلت : كما قيل :

إنى رأيت فلا تظنوا غيره ... أن التورع عند هذا الدرهم

فإذا قدرت عليه ثم تركته ... فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

وقال أبو الشعثاء : لأن أتصدق بدرهم على يتيم ومسكين - أحب إلىّ من حجة بعد حجة الإسلام .

كان أبو الشعثاء من الذين أوتوا العلم ، وكان يفتى فى البصرة ، وكان الصحابة مثل جابر ابن عبد الله إذا سأله أهل البصرة عن مسألة يقول : كيف تسألونا وفيكم أبو الشعثاء ؟

وقال له جابر بن عبد الله : يا ابن زيد ! إنك من فقهاء البصرة ، وإنك ستستفتى فلا تفتين إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية ، فإنك إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت .

وقال عمرو بن دينار : ما رأيت أحداً أعلم بفتيا من جابر بن زيد .

وقال إياس بن معاوية : أدركت أهل البصرة ومفتيهم جابر بن زيد من أهل عمان .

وقال قتادة لما دفن جابر بن زيد : اليوم دفن أعلم أهل الأرض .

وقال سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار : قال أبو الشعثاء : كتب الحكم بن أيوب نفراً للقضاء أنا أحدهم - أى عمرو - فلو أنى ابتليت بشىء منه لركبت راحلتى وهربت من الأرض .

---

(١) أى : لا يساوم ، والمماكسة فى البيع : انتقاص الثمن واستحطاطه .

وقال أبو الشعثاء : نظرت في أعمال البر ، فإذا الصلاة تجهد البدن ولا تجهد المال ، والصيام مثل ذلك ، والحج يجهد المال والبدن ، فرأيت أن الحج أفضل من ذلك . وأخذ مرة قبضة تراب من حائط ، فلما أصبح ردها في الحائط ، وكان الحائط لقوم قالوا : لو كان كلما مر به أحد منه قبضة لم يبق منه شيء . وقال أبو الشعثاء : إذا جئت يوم الجمعة إلى المسجد فقف على الباب وقل : اللهم اجعلني اليوم أوجه من توجه إليك ، وأقرب من تقرب إليك ، وأنجح من دعاك ، ورغب إليك وقال سيار : حدثنا حماد بن زيد ، ثنا الحجاج بن أبي عيينة قال : كان جابر بن زيد يأتينا في مصلانا ، قال . فأتانا ذات يوم وعليه نعلان خلقان ، فقال : مضى من عمري ستون سنة ، نعلاى هاتان أحب إلى مما مضى منه إلا أن يكون خير قدمته .

وقال صالح الدهان : كان جابر بن زيد إذا وقع في يده سُتُّوق كسره ، ورمى به لئلا يغر به مسلم . السُّتُّوق : الدرهم الغابر أو الدغل ، وقيل : هو المغشوش .

وروى الإمام أحمد : حدثنا أبو عبدالصمد العمي ، حدثنا مالك بن دينار قال : دخل عليّ جابر ابن زيد ، وأنا أكتب المصحف فقلت له : كيف ترى صنعتي هذه يا أبا الشعثاء ؟ قال : نعم الصنعة صنعتك ، تنقل كتاب الله ورقة إلى ورقة ، وآية إلى آية ، وكلمة إلى كلمة ، هذا الحلال لا بأس به . وقال مالك بن دينار : سألته عن قوله تعالى : (إِذاً لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ)[1] قال : ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة (ثم لا تجد لك علينا نصيراً) ، وقال سفيان : حدثني أبو عمير الحارث بن عمير قال : قالوا لجابر بن زيد عند الموت : ما تشتهي وما تريد ؟ قال : نظرة إلى الحسن . وفي رواية عن ثابت قال : لما ثقل على جابر بن زيد قيل له : ما تشتهي ؟ قال نظرة إلى الحسن قال ثابت : فأتيت الحسن فأخبرته ، فركب إليه ، فلما دخل عليه قال لأهله : أقعدوني ، فجلس فما زال يقول : أعوذ بالله من النار وسوء الحساب .

وقال حماد بن زيد : حدثنا حجاج بن أبي عيينة قال : سمعت هنداً بنت المهلب بن أبي صفرة — وكانت من أحسن النساء — وذكروا عندها جابر بن زيد فقالوا : إنه كان إباضياً[2] ، فقالت : كان جابر بن زيد أشد الناس انقطاعا إليّ وإلى أمي ، فما أعلم عنه شيئاً ، وكان لا يعلم شيئاً يقربني إلى الله عز وجل إلا أمرني به ، ولا شيئاً يباعدني من الله إلا نهاني عنه ، وما دعاني إلى الأباضية قط ولا أمرني بها ، وكان يأمرني أين أضع الخمار — ووضعت يدها على الجبهة . أسند عن جماعة من الصحابة ، ومعظم روايته عن ابن عمر وابن عباس .

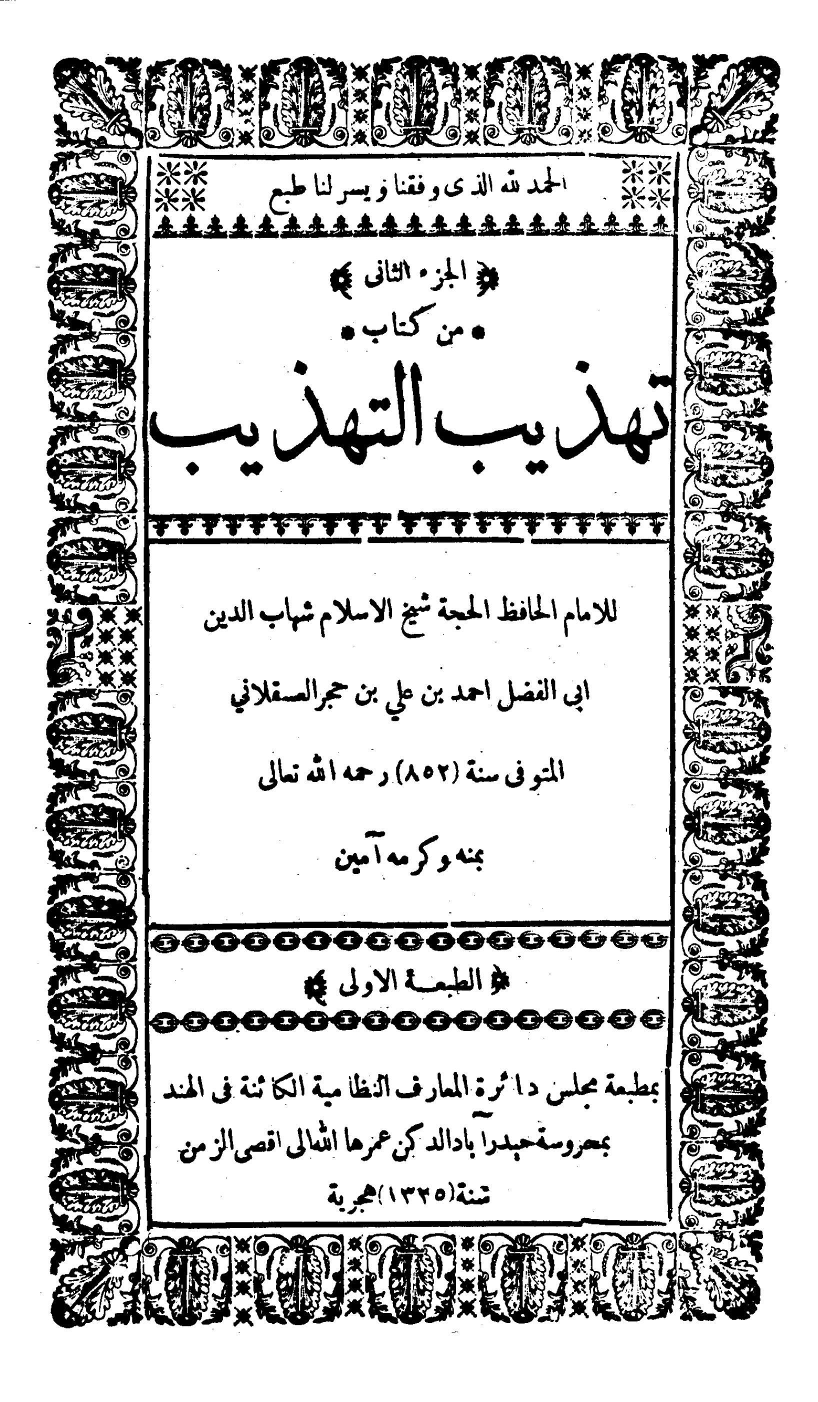
---

(١) الآية : ٧٥ من سورة الإسراء .

(٢) الإباضية : فرقة من الخوارج تنسب إلى عبد الله بن أباض التميمي .

٥ ـ نصـوص من القـرن التاسـع الهجرى :

١ ـ تهذيب التهـذيب لابن حجر العسقلاني المتوفـي ٨٥٢هـ .



الحمد لله الذى وفقنا و يسر لنا طبع

الجزء الثانى

من كتاب

تهذيب التهذيب

للامام الحافظ الحجة شيخ الاسلام شهاب الدين

ابى الفضل احمد بن علي بن حجر العسقلاني

المتوفى سنة (٨٥٢) رحمه الله تعالى

بمنه وكرمه آمين

الطبعة الاولى

بمطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة فى الهند

بمحروسة حيدرآباد الدكن عمرها الله الى اقصى الزمن

سنة (١٣٢٥) هجرية

(٦١) ع - جابر بن زيد الازدى اليحمدي ابو الشعثاء الجوفي (١) البصرى روى عن ابن عباس وابن عمر وابن الزبير والحكم بن عمرو الغفاري ومعاوية ابن ابي سفيان وعكرمة وغيرهم . وعنه قتادة وعمرو بن دينار ويعلى بن مسلم وايوب السختياني وعمرو بن هرم وجماعة . وقال عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس لو ان اهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لاوسعهم علما من كتاب الله وقال تميم بن حدير عن الرباب سألت ابن عباس عن شئ فقال تسألوني وفيكم جابر بن زيد وقال داود بن ابي هند عن عزرة دخلت على جابر بن زيد فقلت ان هؤلاء القوم ينتحلونك يعني الاباضية قال ابرأ الى الله من ذلك . وقال ابن معين وابو زرعة ثقة . قال البخارى وغيره مات سنة (٩٣) وقال ابن سعد سنة (١٠٣) وقال الهيثم بن عدى سنة (١٠٤) . قلت . وقال العجلى تابعى ثقة وفي تاريخ البخارى عن جابر بن زيد قال لقينى ابن عمر فقال ياجابر انك من فقهاء اهل البصرة وقال ابن حبان في الثقات كان فقيها ودفن هو وانس بن مالك في جمعة واحدة وكان من اعلم الناس بكتاب الله وفى كتاب الزهد لاحمد لما مات جابر بن زيد قال قتادة اليوم مات اعلم اهل العراق وقال اياس بن معاوية ادركت الناس ومالهم مفت غير جابر بن زيد وفي تاريخ ابن ابي خيثمة كان الحسن البصرى اذا غزا افتى الناس جابر بن زيد وفى الضعفاء للساجى عن يحيى بن معين كان جابر اباضيا وعكرمة صفريا

(١) بفتح الجيم وسكون الواو بعدها فاء نسبة الى درب الجوف محلة بالبصرة كذا في لب اللباب والتقريب ١٢ ابو الحسن

واغرب

و اغرب الاصيلي فقال هو رجل من اهل البصرة لا يعرف انفرد عن ابن عباس بحديث من لم يجد ازارا فليلبس السراويل. و لا يعرف هذا الحديث بالمدينة.

(١)جنادة بضم الجيم بعدها نون ٢ التقريب (٢) بضم السين المهملة و تخفيف الواو وهمزة نسبة الى سواءة بن عامر بن صعصعة ٢ اللب اللباب

نصوص من القرن الرابع عشر الهجرى

العقـود الفضيـــة

فـــي

أصـــــول الإباضيـــــة

للشيخ العلامة سالم بن حمد بن سليمان الحارثي

سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

العقود الفضية

في

أصول الإباضية

تأليف
الشيخ العلامة
سالم بن حمد بن سليمان الحارثي

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

باب في التابعين وإنشاء المذهب الأباضي

فصل جابر بن زيد قال ابن القيم في أعلام الموقعين عن رب العالمين بعدما ذكر المفتين من الصحابة ذكر التابعين وابتدأ بأهل المدينة وفقهائها وثنى بمكة المكرمة وفقهائها وثلث بالبصرة الغرّا وذكر من فقهائها المفتين الموقعين عن رب العالمين أبا الشعثاء - جابر بن زيد قلت هو ثقة بإجماع المحدثين والفقهاء وأحاديثه في البخاري ومسلم وأبي داود وله المدونة الكبرى ذكرها في كشف الظنون قال القطب وقر بعير وقيل وقر عشرة أبعرة كانت بالمكتبة الكبرى في بغداد وأخذ منها بعض علماء نفوسة نسخة في زمان الإمام أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن الفارسي من أئمة القرن الثاني والثالث للهجرة ولكنها ضاعت ولم نجدها .

ولد جابر سنة واحد وعشرين وقيل سنة اثنتين وعشرين وقيل سنة ثماني عشرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتوفي عام ثلاثة وتسعين على ما رواه الإمام أحمد وقيل سنة ثلاث ومائة على ما رواه ابن سعد وقيل سنة ستة وتسعين - والصحيح

الأول وهو رواية أبي عبيدة مسلم أحد تلامذته الكبـــار وكانت وفاته في الأسبوع والسنة التي مات فيهـا أنس بن مالك الصحابي الجليل .

قال العلامة الشماخي جابر بحر العلم وسراج الدين أصل المذهب وأسه الذي قامت عليه آطامه ، خرج جابر في شبابـه من وطنه فرق من أعمال نزوى عاصمة عمان الثانية فسكن البصرة طالباً للعلم وأصله من ولد عمرو بن اليحمد الأزدي ويكنى أبا الشعثاء بابنته الشعثاء المشهور قبرها الآن ببلدة فرق وعاش بالبصرة متردداً إلى المدينة المنورة فاجتمع بعدد كبير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال جابر أدركت سبعين من أهـل بدر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فحويت ما عندهم إلا البحر يعني ابن عباس وليس ابن عباس من أهل بدر فالاستثناء منقطع وقال أيضاً أدركت جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألتهم عما إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يمسح على خفيه فقالوا لا ، وقال في باب العلم من المسند أدركت ناساً من الصحابة أكثر فتيـــاهم حديث النبي صلى الله عليه وسلم وقـــال في صلاة خوف حدثني جملة عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء هم شيوخه الذين أخذ العلم عنهم فروايته في المسند عن ابن عبـاس وعائشة أم المؤمنين وابن عمر وأبي هريرة وأنس بن مالك وأبي سعيد الخدري ومعاوية وعلي بن أبي طالب ومروان بن الحكم وغيرهم بعضهم بالمشافهـــة وبعضهم بالبلاغ من طريق الثقات وقـال في كتاب رحمة الأمة كان

ابن عباس يستخلف جابر بن زيد في الفتيا روى الإمام الكدمي العماني أحد الأعلام في القرن الرابع صاحب كتاب الاستقامة وكتاب المعتبر قال في الجامع المفيد من جواباته إن آمنة زوج جابر بن زيد اكتوت لعلةٍ بها فغضب عليها جابر وهجرها وفي حجة لهما وعمرة وزيارة اشتكت به مع شيخه ابن عباس هجرانه لها فقال إنها لم تتوكل على الله والله يقول ومن يتوكل على الله فهو حسبه فقال له ابن عباس أفلا تكمل الآية يا جابر يعني قوله تعالى قد جعل الله لكل شيىء قدرا فرضي عنها قال أبو طالب مكي وهو أندلسي الأصل في كتابه قوت القلوب إن ابن عباس قال اسألوا جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه .

وقال ابن عباس رضي الله عنه عجباً لأهـــل العراق كيف يحتاجون إلينا ومعهم جابر بن زيد ورأى جابر بن زيـــد رجلا يصلي على ظهر الكعبة فقال من المصلي لا قبلة له فسمعه ابن عباس وكان في المسجد فقال إن يكن في البلاد جابر بن زيد فهذا من قوله وقال ابن عباس رضي الله عنه جابر بن زيد أعلم الناس بالطلاق .

كان لجابر بن زيد المكانة العليا مـــع ابن عباس وعائشة أم المؤمنين وهما أغلب من أخذ عنهم وكانت عائشة تقدم له وسادة إذا دخل معها وكان يسألها عما دق وجل ودخل عليها هو وأبو بلال مرداس بن حدير فذكرا لها حديث خروجها على الإمام علي فتابت من ذلك واستغفرت .

دخل جابر المسجد الحرام ورأى الناس متحيرين وذلك زمان هدم الحجاج الكعبة فطاف بالناس وهو يتلو إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها فتبعه الناس ، قال في الطبقات قال إياس بن معاوية رأيت البصرة وما فيها مفت غير جابر ابن زيد وقال محمد بن محبوب العالم العماني من علماء القرن الثالث للهجرة جابر أعلم من الحسن البصري ولكن كان جابر لقوم والحسن للعامة يعني إنه يعظهم وأما الفتوى فكانت لجابر خاصه ، قال الربيع ابن حبيب عن ابنة مطرف قالت أتيت جابراً فيما يبلى به الناس فما أعلم أني كلمت فقيها ولا عالماً ولا أميرا قط أعلم ولا أعقل منه وسالته امرأة أخرى عن حر يخطب جاريتها فقال لا تزوجيه ثم راجعته بأن قال الخاطب إن لم تزوجيني زنيت بها فقال الآن زوجيه فهذا هو العنت كان غاية في الأخلاق والجود والكرم خرجت زوجته آمنة إلى الحج ولما رجعت شكت إليه سوء معاملة الجمّال فخرج إليه وأدخله داره واشترى لإبله علفاً وعولج له طعام واشترى ثوبين كساه بهما ودفع له ما كان مع آمنة من قربة وأداوة وغير ذلك فقالت أخبرتك بسوء العشرة ففعلت ما أرى فقال افنكافيه مثل فعله فنكون مثله بل نكافيه بالإساءة إحسانا وبالسوء خيراً وأهدت إليه امرأة جزوراً فأمر أحد تلامذته بنحرها وتجزأتها على الجيران فاكثر جزء أبي الشعثاء فقال أكل جيراننا أصاب مثل هذا قال لا قال واسوتاه ساو بيننا وبين جيراننا واطلع

أبو الشعثا فإذا برجل من الاكادين يبكي ويمسح دموعه قـــال مالك ويحك قـال صبيان دربكم هذا نزعوا مني قنوين جئت بهما إلى صاحب الأرض فـإني أخاف أن لا يصدقني فبعث جابر إلى بعض أصحابه له نخل فأخذ قنوين فبعث بهما إليه .

وخرج يوماً يريد الجمعة فتلقـــاه الناس منصرفين فشق عليه ذلك وقال اللهم لك عليّ أن لا أعود وكان يصليها خلف زياد وولده عبيد الله وخلف الحجاج وكان من تلامذته حبيب أبو الربيـــع المحدث صاحب المسند وعتب عليه حضور الصلاة خلف الحجاج فقال جابر إنها صلاة جامعة وسنة متبعة .

وقيل إن جابراً صلى بالإيماء يوم الجمعة والحجاج يخطب إلى أن فات الوقت وقال جابر بن زيد اليوم نفع كل ذي علم علمه قيل فات وقت الظهر ودخل وقت العصر فخشي جابر فواتـه أيضاً وقد فهم الحجاج أن جابراً صلى بالإيماء فقـــال الحجاج قد عرفنا من صلى ومن لم يصل وكتب أهل عمان لجابر يسألونه هل يأت الجمعة من لا يسمع النداء فكتب إليهم جابر لو لم يأت إلا من يسمع النداء لاقل الله أهلها تؤتى من رأس فرسخين وثلاثـة وفي رواية وقدر أن يأوي إلى منزله قبل الليل فعليه الجمعة لقد امتلأت الكتب العمانية والمغربية بفتاوى جابر ورواياته في الحديث لو حاولنا جمعها لما كانت دون ما يروى عن مدونته المشهورة قال

أبو سفيان محبوب بن الرحيل القرشي إن أبا الحر علي بن الحصين العنبري قال لأبي عبيدة مسلم أبي كريمة التميمي بالولاء أقم للناس خمسة أيام بعـــد الموسم فأبى فقيل له عليك بضمام بن السائب وكان الندب من عمـــان فقـال أوعنده من العلم ما يكتفي بـه الناس قالوا وفوق ذلك فأتاه وقام للناس وكثر عليه السؤال وكان جوابه سألت جابراً وسئل جابر وسمعت جابراً وقال جابر ومن قواعده المشهورة ليس للعالم أن يقول للجاهل أعـــلم مثل علمي وإلا قطعت عذرك وليس للجاهل أن يقول للعالم أرجع إلى جهلي وضعفي وإلا قطعت عذرك وإذا قال العالم ذلك قطع الله عذر العالم وإذا قال الجاهل ذلك قطع الله عذر الجاهل وقال ضمام كان جابر يأتي الخوارج الذين استحلوا أموال أهل القبلة وسبي ذراريهم ونسا هم فيقول لهم أليس قد حرم الله دماء المسلمين بدين فيقولون نعم وحرم الله البراءة منهم بدين فيقولون نعم فيقول أوليس قد أحل الله دماء أهل الحرب بدين بعد تحريمها بدين فيقولون بلى فيقول وحرم الله ولايتهم بدين بعد الأمر بها بدين فيقولون نعم فيقول هل أحل ما بعد هذا بدين فيسكتون قيل وكتب الحجاج إلى يزيد بن أبي مسلم كاتبه لقد وقـع في نفسي شيء من القدر فالتمس لي عالما فكتب يزيد إلى جابر وكان صديقاً له فأجابـه قل للأمير يتدبر خطبته فإن فيها بيان ما سئل عنه فرددها مراراً كل ذلك لم يفتبه ثم بعد ذلك انتبه فقـــال من يهدى الله فهو

المهتدى ومن يضلل فلا هادي له قال ويحك يا يزيد مــا أعلم صاحبك وروى أنه كان في سجن الحجاج فعرضت مسئلة الخنثى فلم يوجد لها مفتيا فقيل للحجاج عليك بجابر فأتي به في أصفاده فقال أتستفتوني وفي رجليّ قيودكمْ قالوا نعم قـال اعتبروا المبال قيل لسعيد بن المسيب قال صدق وإن بال منهما فالحكم للأغلب لقد حبس نفسه للحج ويقال إنه حج أربعين حجة ومنعه ذات سنة أمير البصرة لحاجة الناس إليه فلما كان غرة ذي الحجة جاءه الناس فقالوا أصلحك الله قد هل هلال ذي الحجة قـال فارسله فخرج من السجن فاتى منزله وناقته حوله في الدار قد كان هيأها للخروج فاخذ يشد عليها الرحل ويتلو ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها يا آمنة أعندك شيىء قالت نعم فهيأته في جرابين فقال من سألك فلا تخبريه بمسيري يومي هذا فخرج من ليلته وانتهى إلى عرفات والناس في الموقف فضربت بجرانها الأرض وتجلجت فقال الناس ذكها قال حقيق لناقــة رأت هلال ذي الحجة بالبصرة أن لا يفعل بها هذا ثم سلمها الله تعالى وقد كان سافر عليها أربعا وعشرين مرة بين حج وعمرة ودخل ثابت البناني على جابر حين احتضر فقـال هل تشتهي شيئاً قـال إني لأشتهي أن ألق الحسن البصري قبل أن أموت فخرج ثابت فأعلمه بقول جابر وكان مستخفياً من الحجاج فركب بغل ثابت على السرج وركب خلفه ثابت بطيلسانه فلما دخل على أبي الشعثا وهو مضطجع انكب

عليه الحسن وهو يقول قل لا إله إلا الله فرفع جابر عينيه وهو
يقول أعوذ بالله من غدو أو رواح إلى النار فقال قل لا إله إلا الله
فقال أعوذ بالله من غدو أو رواح إلى النار ثم قال يا أبا سعيد
يوم يأتي بعض آيات ربك . لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من
قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، فقال الحسن هذا والله الفقيه العالم ثم
قال يا أبا سعيد أخبرني عن حديث ترويه عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم في المؤمن إذا حضرته الوفاة فقال عليه السلام إن
المؤمن إذا حضرته الوفاة وجد على كبده برداً فقال جابر الله
أكبر اللهم إني أجد برداً على كبدي ثم قبض رحمة الله عليه
كان يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج صديقاً بجابر فوفد إليه مرة
فادخله على الحجاج فقال أتقرأ قال نعم قال أتفرض قال نعم فعجب
به فقال لا ينبغي أن نؤثر عنك أحداً نجعلك قاضياً للمسلمين قال
جابر أنا أضعف من ذلك قال وما بلغ من ضعفك قال يقع بين
المرأة وخادمها شر فما أحسن أن أصلح بينهما فقال إن هذا
لهو الضعف قال فهل لك من حاجة قال نعم وما هي قال تعطيني
عطائي وتدفع عني المكروه قال الحجاج هذا لا يستقيم أن نعطيك
من بيت مال المسلمين ولا نستعملك لهم فقال يزيد هنا خصلة
تخف على الشيخ وفيه عون للمسلمين تجعله في أعوان صاحب
ديوان البصرة قال كذلك فلما خرجا قال جابر ما صنعت شيئاً
أتراني أكون عونا لصاحب الديوان فقال يزيد أكتب لصاحب

الديوان أن لا يكلفك مؤنة ويعطيك عطاءك كاملاً وكان عطاءه سبعمائة أو ستمائة وكان في ديوان المقابلة وكان يزيد شديد الحب لجابر فخرج إليه ذات مرة إلى واسط في يوم جمعة فلما تغديا دعا يزيد بجارية له فجاءت بغاليه فغلت بها رأس جابر ولحيته فقال اسرج على البرذون لأبي الشعثا قال أعفني من البرذون قال فالبغلة قال نعم فخرج فقال للغلام قف لي على باب المسجد بموضع سماه وأخذ على دجلة ونزل وغسل رأسه ولحيته ودلكها دلكا شديداً يقول اللهم لا تجعل حظي منك منزلتي عند هؤلاء القوم ثم جاء إلى المسجد فلما حضر خروج جابر تنافست امرأتا يزيد في زاده فصنعتا له شيئاً كثيراً وكان معه عمارة بن حيان أحد تلامذته فلما ركبا السفينة قال لعمارة لا تدع أحداً من أهل المركب يفتح زاده فلما انتهى إلى البصرة قال بقي جرابان أحملهما إلى الصبيان قال صبهما على ظهر السفينة وأطعم ملاحيك وادفع اليهم ما بقي وكتب يزيد يوماً من الأيام لجابر أن التمس لي مملوكا قد صلى لأعتقه فاشتراه جابر وأرسله إلى يزيد فأعتقه فلما رجع التمس أحسن جدي فشواه وأهداه لجابر فرده إليه فالتمس أحسن منه ظناً منه أن جابراً لم يكفه فزجره وقال من سعى في مثل هذا فلا تحل له الهدية .

وفي كتاب السير من رواية أبي سفيان محبوب بن الرحيل قال أتى شاب أبا الشعثا فقال أي الجهاد أفضل ؟ قال قتل خردلة ،

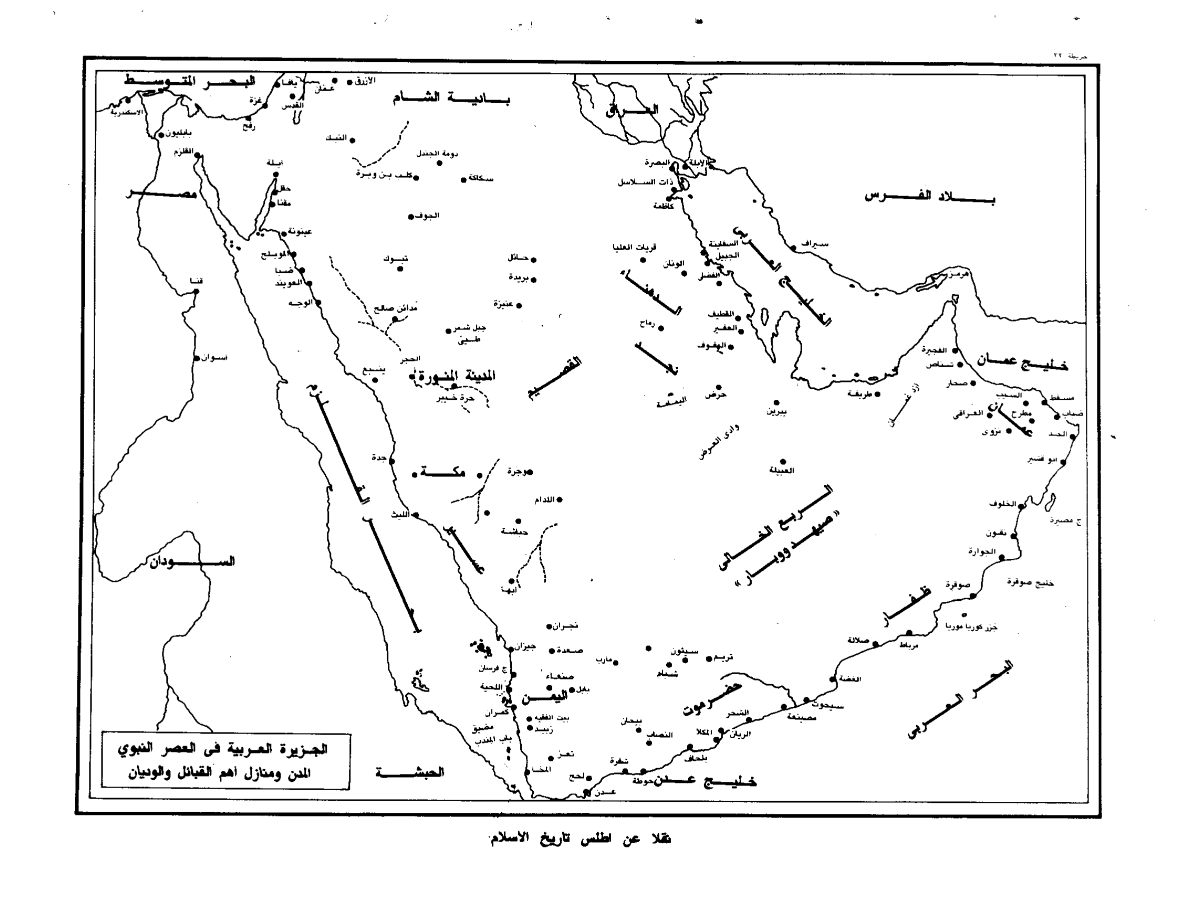
والشاب لا يعرفه فأراه إياه في المسجد ووضع يـــده عليه لئلا يخطئه فضربه بين كتفيه ضربة بخنجر قد سمه فأخذ القاتل وقال له الوالي قد علمت أنك لم تفعل هـــذا من نفسك وإنما أمرت فدلني على من أمرك ، فقال دع عنك هـذا ، فقتله . وكان خردلة سعى بجماعة من المسلمين فقتلوا وخرج ابن لجابر وهـو قاعد على باب داره فقبله ومسح على رأسه وقال لجلسائه أترونني أحبه ؟ قالوا أجل ، قال صدقتم والله إني لأحبه وما من نازل ينزل بـــه أحبّ إليّ من الموت ينزل به وبإخوتـــه ثم ينزل بي ثم بآمنة ، قالوا فآمنة أعز عليك من ولدك ، قـال ما هي بأعز عليّ منهم ولكن لا أحب أن أبقى في الدنيا يوماً واحـداً عازباً . وكان كما تمنى . وقال أبو سفيان نفى الحجّاج جابراً وهبيرة جد أبي سفيان إلى عمان وكأنه عاد إلى البصرة لأنه توفي بها . وقال جابر سألت ربي امرأة مؤمنة وراحلة صالحة ورزقاً كفافاً فأعطانيهن . وأفتى جابر بصوم الحي عن الحي ثم رجع عن هذا الإفتاء إلى الإطعام وله أقوال يعمل بغيرها في المذهب الإباضي منهـــا تحريمه نكاح الصبيان وهو تزويج الصبي بالصبيـة أو تزويج البالغ بالصبية أو تزويج الصبي بالبالغة ويرى فعل النبي صلى الله عليه وسلم خاصاً به ومنها جعله الخلع فسخاً للنكاح لا طلاقا وهذا القول محكي عن ابن عباس واحتج له نور الدين السالمي ، ومنها كراهته الجمع بين بنات العم خوف القطيعة ، وعند أكثر العلمـاء أنها كراهة تنزيه

لا كراهة تحريم ، ومنها إيجابه الزكاة في الزيتون وهو قول لابن عباس والزهري ، ومنها تكرار العمرة في السنة أكثر من مرة فعنده أنها ممنوعة . أخذ عنه العلم عدد كبير من التابعين منهم قتادة ومنهم عمرو بن دينار ومنهم عبد الله بن اباض ومرداس بن حدير وإن كانوا في طبقته وسنه لكنهم يأخذون منه ، ومنهم أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة وضمام بن السائب وأبو نوح صالح الدهان وحيان الأعرج وسلمة بن سعد الذي ذهب إلى المغرب يدعو إلى الله فكان من جرا انتشار المذهب الإباضي هنالك إذ جاء عدد من طلبة العلم فانضموا إلى أبي عبيدة أكبر تلاميذه ، ومنهم أبو فقاس وكان من رفقائه الذين يصحبونه إلى ابن عباس وافتقده ابن عباس في يوم من الأيام فسأل ابن عباس جابراً عنه فقال أين صاحبك ؟ قال أخذه ابن زياد ، قال ابن عباس لجابر وإنه لمتهم ، قال نعم أو ما أنت متهم ، قال اللهم بلى . والحاصل أن مدرسته أخرجت عدداً كبيراً من رجال العلم والفضل بعضهم من من عمان وبعضهم من خراسان وبعضهم من حضرموت وبعضهم من نفس البصرة أشهرهم على الإطلاق ثلاثة مرداس بن حدير وعبد الله بن اباض ومسلم بن أبي كريمة وأما أبو بلال فخرج مجاهداً حتى قتل ، وأما عبد الله بن اباض فقام مجادلا ومتظاهراً بالحج ، وأما أبو عبيدة مسلم فحمل عنه العلم واختفى به معلما ، وتوفي جابر سنة ثلاث وتسعين على الصحيح في البصرة ولما بلغ موته

أنس بن مالـك الصحابي قـال مات أعلم من على ظهـر الأرض أو
قال مات خير أهل الأرض . وكان موتـــه أعني أُنساً في ذلك
الأسبوع ولما مات أتى قتادة قبره وهو أعمى إذ ذاك فقال ادنوني
من قبره فوضع يده على قبره وقال اليوم مات عـــالم العرب
وكان هو وصحار يفترقان بعد العشاء ويلتقيان في السحر فيقول
كل منهما للآخر طال شوقي إليك . وقال أبو سفيان دخل أبو نوح
على عاتكة بنت المهلب وكانت من المسلمات فقال كأني أرى مجلس
رجل قالت الآن خرج من عندي الأحول تعني جـــابراً قال فهل
ظفرت منه بشيء قالت سألته عن لباس الخفين قال إن كنت
تلبسينهما من حر الأرض وبردها وخشونتها فلا بأس فلا تبالين
وإن انكشفا وإن لبستها لغير ذلك فلا تبديها وعن حلى لبنات
أخي يستعار مني فيقوم بمال فقال إن أعرته فاضمني فأنت ضامنة
وعن عبد كان من أنفس مال عندي وأوثقه فأعتقته ثم استخلفته
على ضيعتي قال لا أخرجيـــه من ذلك ولا تدخليه في شيء من
منافعك قال في الإيضاح عن ضمام بن السائب قيل لجابر بن زيد
أرأيت رجلا يكون وقاعاً في الناس فأقع فيه أله غيبة قال لا
قيل له ومن هو الذي تحرم غيبته قال رجل خفيف الظهر من
دماء المسلمين خفيف بطنه من أموالهم أخرس اللسان عن أعراضهم
فهذا الذي تحرم غيبته ومن سواه فلا حرمة له ولا غيبة فيه قال

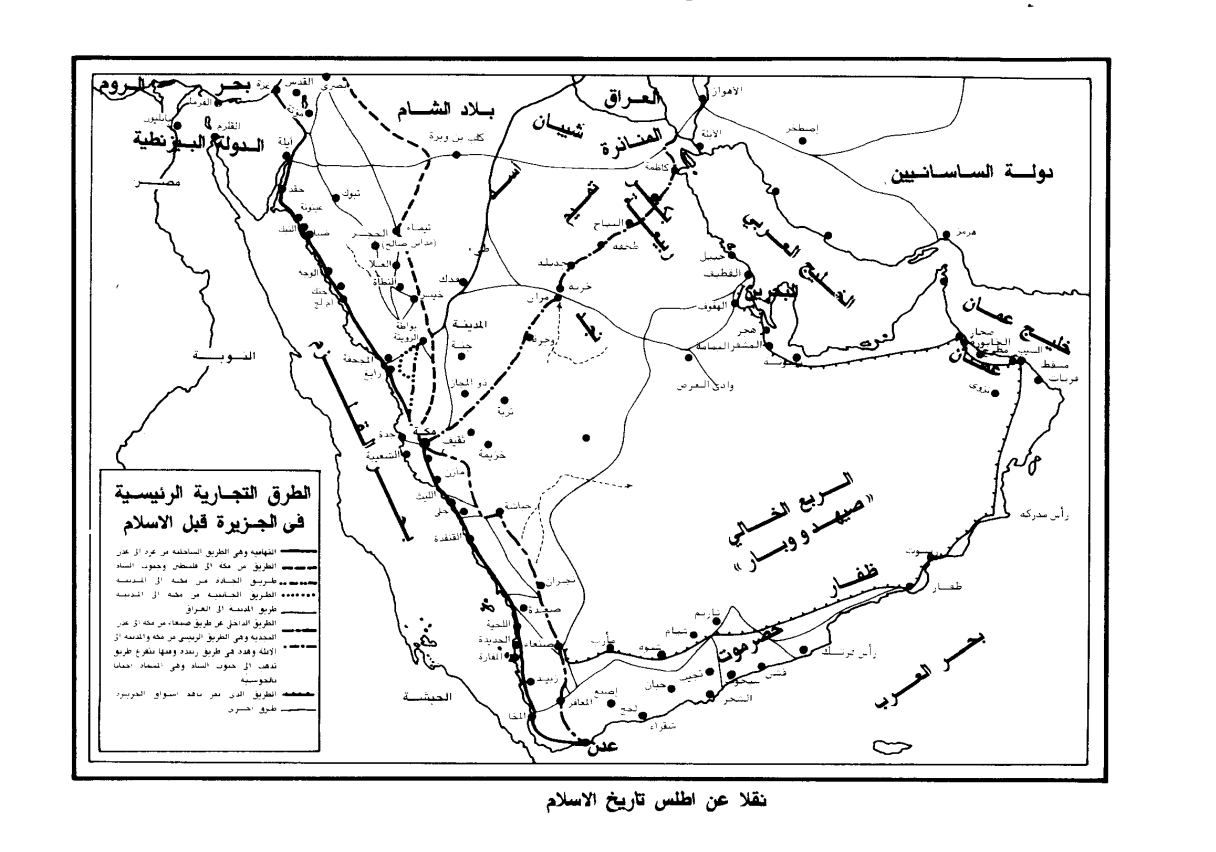
ضمام قلت له يا أبا الشعثاء ما تقول في الرجـل يعرف بالكذب ألـه غيبة قال لا قلت والغاش لأمة محمد ﷺ قال لا غيبة له ولا حرمة قلت والصانع بيده يغش في عمله أله غيبة قال لا قلت ولم قال من أكل الحرام فلا غيبة له ولا حرن وهو مهتوك الستر ألا لا غيبة لكل مهتوك ولا حرمة له عند رب العالمين فكيف عند الخلق قلت فإنه يكذب أحيانـــاً ويتوب أحياناً ويغش أحياناً ويتوب أحياناً من أي صنف هـذا من الناس قـــال هذا رجل مستخف بالله مستهزئ بالأمة .





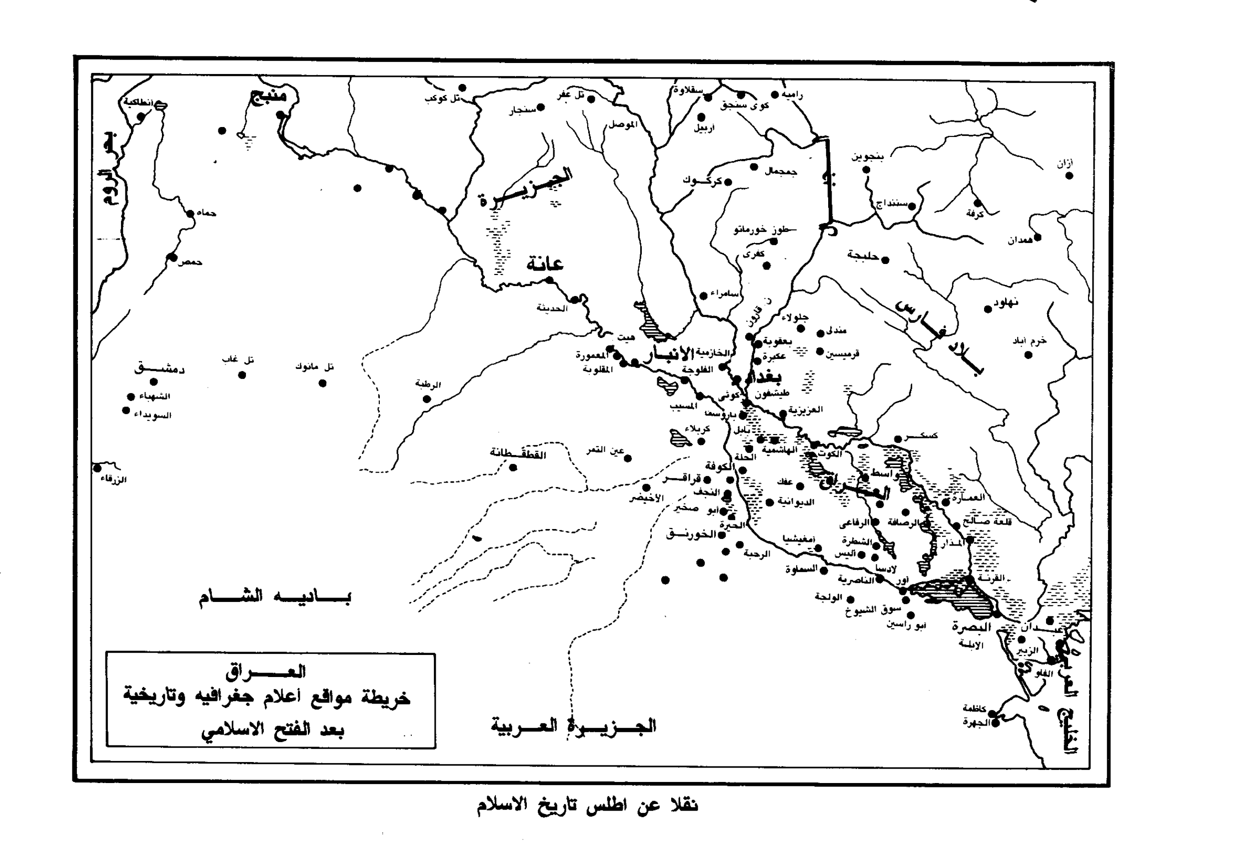
نقلا عن اطلس تاريخ الاسلام





نقلا عن اطلس تاريخ الاسلام





نقلا عن اطلس تاريخ الاسلام

استدراكات وتصويبات

وقعت أثناء إعداد الكتاب بعض الأخطاء ، ونحن إذ نعتذر عنها ، فإنما نثبت هنا قائمة بأهم ما استطعنا تداركه ، موقنين أن ما ترك لن يستعصي على فطنة القارئ .

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	٥	المختلة	المختلفة
٩	٧	عرفة	عرفه
١٢	١٥	الذى	التى
١٨	١٩	صلوات	صلواته
٢٠	١٣	إبطال	أبطال
٢٢	٩	عصبة	عصبية
٢٤	١٥	رخصية	رخيصة
٢٧	١٠	رسـول	رسوله
٤٢	٦	رأية	رأيه
٤٢	١٣	معناً	معنا
٤٦	١٤	واحد	واحدا
٤٦	الأخير	يا أبة	يا أبتي
٤٧	١	أراك	أرك
٥٢	١٨	خمسة عشرة	خمسة عشر
٥٣	١٦	ابن	من
٥٣	١٦	تفتى	تفتيَنَّ
٥٧	١٢	غمرة	عمره
٥٩	١	يقوم	يقول
٥٩	١٢	ولكن	ولكم
٦٠	١٧	يزيدا	يزيد
٦٢	١١	مضيفة	مضيفه
٦٨	١	عمان	أصله من عمان
٧٨	٩	مكتبه	مكتبة

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨٣	١٠	ويفسرو	ويفسرون
٨٣	٢٤	عكا	عكاظ
٨٦	١٠	ألسنة	السنة
٨٧	١	تطور	تطوراً
٨٩	٢٢	غلامة	غلامه
٩١	١٥	ويبدوا	ويبدو
٩٢	٤	بحججة	بحجة
٩٣	١٧	راية	رأيه
٩٤	٤	الاقتراض	الافتراض
٩٤	١١	اظمأن	اطمأن
٩٤	٢٧	حجطة	جحطة
٩٤	٢٧	جلبر	جابر
١٠١	٣	توصيلة	توصيله
١٠١	١٠	ليبيوا	ليبينوا
١٠١	٢٧	عند	عنده
١٠٣	٢٥	درسم	درهم
١٠٤	١٩	زمضان	رمضان
١٠٥	٢٤	جابر	جابراً
١٠٦	١	يصغرها	يصفرها
١٠٦	٨	يحكمها	يحكهما
١٠٧	١٥	درية	دربة
١١٠	٦	الى	فإلى
١١٠	١٢	جابر	جابرا
١١٥	١٤	لا بد أنكم	لأبد أنكم
١١٦	١	قولة	قوله
١١٨	٤	بداء	بدءاً
١١٩	٢٢	ويبدوا	ويبدو
١٢٠	٢١	جابرا	جابر

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢١	٨	بأعتباره	باعتباره
١٢١	١٩	اعطيتهم	أعطياتهم
١٢٢	١٩	اذبحو	اذبحوا
١٢٤	٣	أذن	إذن
١٢٦	١٩	نائرة	ثائرة
١٢٧	٢	بحل	يحل
١٣٠	٤	جابرا	جابر
١٣٥	١	تطاهرت	تظاهرت
١٤٥	٢٤	تطبقه	تبطنه
١٤٦	٢١	عباده	عبادة
١٥٥	٦	منديلا	منويلا

● رقم الإيداع : ٨٨/٤٤٣